شرح حجة الإسلام

لأربعين حديثاً من أحاديث سيد الأنام

عليه أفضل الصلاة وأتم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

شرح حجة الإسلام
لأربعين حديثًا من أحاديث سيد الأنام
عليه أفضل الصلاة وأتم السلام

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع

٢٠١٦/١٠٩١٥م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-744-156-8

الدار العالمية للنشر والتوزيع

ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية

محمول: ٠١٠٠٥٤٠٦٤٠٣ ٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٢٠٣+

E-mail: alamia_misr@hotmail.com

شرح حجة الإسلام

لأربعين حديثاً من أحاديث سيد الأنام
عليه أفضل الصلاة وأتم السلام

مجموع من بعض كتب الغزالي في الرقائق

تأليف

د. أحمد خضر حسنين الحسن

الدار العالمية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل محمدًا بالحق بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، واختاره من جميع خلقه صغيرًا وكبيرًا، وأنزل عليه الكتاب ميسرا تيسيرًا، فأشرقت الأرض بنور رسالته برًّا وبحرًا وكان ربك محسنًا قديرًا، وأدبر ظلام الشرك متبّرًا تتبيرًا، فسبحان من أختص بالتوفيق والهداية من شاء من عباده منًّا منه وتيسيرًا، وحكم على من شاء بالحرمات فكان حظه نفورًا وتنفيرًا، أحمده سبحانه إذ هدانا للإسلام كرمًا منه ولم يزل سبحانه بالإحسان جديرًا؛ وأشكره إذ أرسل علينا من سحائب كرمه وابلًا غزيرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد نزه مولاه عن الشرك وكبره تكبيرًا، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أرسله ربه بالحق مبشرًا ونذيرًا، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد الذي أوضح الحق حتى أضحى مشرقًا منيرًا، وعلى آله وصحبه ومن كان له على الحق ظهيرًا(١).

أما بعد: فإنه من المعلوم لدى كل مسلم أن سيدنا محمدًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أوتي جوامع الكلام، وأحاديث لا ينضب معينها ولا يمكن أن يحاط بما فيها إحاطة كاملة، ومن ثم كان من العلوم التي اهتم بها علماؤنا، قدماء ومعاصرون، علم شرح الأحاديث النبوية، فهناك شروح عديدة لكتب السنة المعروفة كالبخاري ومسلم والأربعين النووية وكتاب السنة للبغوي وغيرها كثير، وإنما كان هذا الاهتمام من أجل استنباط الفوائد واستخراج الدرر والجواهر من كلام سيد الأوائل والأواخر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) مقتبسة من كتاب الحكمة البالغة في خطب الشهور للشيخ عبدالله بن حسين(ص٢٠/ ٢١) بتصرف.

ولما كان الناس في هذا العصر في أمس الحاجة إلى أن يوصلوا بأحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامة وبأحاديث التصفية والتزكية خاصة رأيت أن أجمع عددًا من الأحاديث التي لا يعفى مسلم من معرفتها ولا يعذر بجهله بها، وذلك لأن من العلم الواجب تعلمه علم (التزكية) وأعنى به ما مؤدَّاه إلى براءة القلب من الصفات الذميمة كالكبر والعجب والحسد، واكتساب ـ القلب ـ الصفات المحمودة التي بها النجاة يوم القيامة كالخوف والحب والرجاء والصبر، وما إلى ذلك.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في سورة الشعراء: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

ومما هو معلوم لدى كل مسلم أن من أفضل العلماء الذين تحدثوا في علم التزكية وأشهرهم حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الإحياء وغيره، ولذا كان شرح هذه الأحاديث مقتبسًا من كتبه وحده فأصبح هذا الكتاب –الذي بين يديك– عبارة عن شرح الغزالي لتلك الأحاديث المختارة التي بلغت اثنان وأربعون حديثًا وهي تدور حول ثلاثة أنواع من الأعمال التي يحتاجها كل مسلم:

أحدها: أعمال القلب تصفيةً كالغضب والكبر وعلاجهما، وتزكيةً: كالحب والخوف والرجاء وغيرها.

ثانيها: أعمال الجوارح كالصلاة وتلاوة القران والذكر وحفظ اللسان وما شابهها.

ثالثها: أعمال تشير إلى علاقة العبد بمن حوله من الناس وذلك كأحاديث حسن الخلق والزهد في الدنيا والتواضع وما شابهها.

وتلك هي الخطوط العريضة للأحاديث التي استخرجت شرحها من بعض كتب حجة الإسلام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما منهجي في الشرح فكان كالآتي:

أولًا: اختيار الحديث الصحيح أو الحسن ليدور كلام الغزالي عليه وهذا الاختيار يسري حتى على الأحاديث التي جاءت أثناء الشرح وإن وجد حديث ضعيف فهو مما انطبقت عليه شروط العلماء في قبول الحديث الضعيف كما سيأتي بيانه.

ثانيًا: تقسيم كلام الغزالي إلى محاور أو إلى نقاط ووضع العناوين المناسبة لها، مما يزيد من حسن البيان في شرح الحديث النبوي الشريف والوصول على المراد منه والى فوائده ودرره وما أكثرها.

ثالثًا: تعمدت الإطالة في النقول من شرح الغزالي لهذه الأحاديث، والسبب في ذلك هو أن كلام الغزالي كلامًا مفيدًا مؤثرًا يؤثر في القلوب ويحركها تحريكا عجيبا بحيث يشعر القارئ بزيادة في إيمانه من جهة وبشدة تقصيره في حقه تعالى من جهة أخرى، ولا أظن أن أحدًا مارس كتب الغزالي خالفني الرأي في ذلك، وبالأخص عند قراءة ما ورد في الإحياء من أبواب المهلكات والمنجيات.

رابعًا: لم أشأ أنْ أدقق في ترتيب الأحاديث ترتيبًا معينًا بحسب أبواب بعينها وإنما حاولت أن أجعل الأحاديث المتقاربة في الموضوع بجوار بعضها البعض، وتعمدت ذلك لئلا يأخذ الكتاب طابع الكتب الفقهية وذلك لأن المقصود الأعظم منه هو ترقيق القلب وتزكية للنفس فأيّما حديثٍ بدأت بقراءة شرحه وجدت المتعة والفائدة والتأثير إن شاء الله تعالى ـ دون حاجة إلى الحديث السابق له أو اللاحق.

خامسًا: اعتمدت في تخريج الأحاديث الواردة في كلام الغزالي في هذا الشرح على تخريج العراقي على الإحياء في الغالب كما رجعت إلى حكم المنذري في الترغيب والترهيب والحاكم في المستدرك والسيوطي في الجامع الصغير وذلك قليل جدًّا وعلى العموم لم أترك حديثًا دون بيان الحكم عليه إلا أن يكون وقع ذلك سهوًا والله أعلم.

سادسًا: قمت بكتابة تعريف موجز بالإمام الغزالي والإشارة إلى بعض مؤلفاته، كما قمت بكتابة نبذة مختصرة تعرف القارئ بموضوع غاية في الأهمية ألا وهو: موقف العلماء من الأحاديث الضعيفة والأخذ بها في الترغيب والترهيب والرقائق؛ وإنما كتبت هذا البحث لما حصل من تشويش حول الغزالي ووجود الأحاديث الضعيفة في كتبه وكأنه هو المؤلف الوحيد الذي ذكر الأحاديث الضعيفة في مؤلفاته، بل وزاد البعض إلى عدم الانتفاع بأي كتاب فيه أحاديث ضعيفة.

لقد رجعت في جمعي لهذا الشرح لعدد كبير من كتب الغزالي في التزكية ولكن لم يصفُ لي منها إلا خمسة كتب وهي: الإحياء وهو الأكثر ومنهاج العابدين، وميزان العمل، وكتاب الأربعين في أصول الدين، وبداية الهداية.

وسميت هذا الشرح بـ (شرح حجة الإسلام لأربعين حديثًا من أحاديث سيد الأنام عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ).

ولعلي بهذا الكتاب أكون قد استخرجت بعض ما في كتب الغزالي مما نحن في حاجة إليه وفتحت بابًا للدارسين والمهتمين بعلم الغزالي أن يواصلوا مسيرة البحث على هذا المنوال تقريبًا وتيسيرًا لعلوم الغزالي، ولقد تفاجأت وأنا أتصفح بعض صفحات الشبكة العنكبوتية إذ رأيت في أحد المواقع كتابًا بعنوان تفسير الإمام الغزالي للدكتور محمد الريحاني فوجدته قد جمع كلام الغزالي حول آيات القرآن متتبعًا إياها من أول المصحف إلى آخره، وكان ذلك بعدما قطعت شوطًا كبيرًا في جمعي لكلام الغزالي في شرح الأحاديث فكأنه تلاقت الأفكار في جمع كلام الغزالي في شرح الكتاب والسنة وهذا مما يدل على عظم قدر الغزالي إذ القيام بمثل هذه الأعمال فيه دلالة على تجديد الثواب له حيث ينشر علمه بصورة مقبولة لدى الكثيرين خاصة من قبل أولئك الذين يتحرجون من النظر في إحياء علوم الدين، فها هو الإحياء يلبس حلة جديدة ليفيد الأحياء من خلال تفسير كلام الله

تعالى وشرح أحاديث سيد الأنبياء عليه صلاة رب الأرض والسماء، ورحم الله الغزالي ورفع درجته في عليين، وألحقنا به في الصالحين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

بقلم

د. أحمد خضر حسنين الحسن

قطر. الدوحة

٢٢/صفر/١٤٣٣هـ

الموافق ٢٠١٢/١/١٦

ÆǩłƷŭǩł ϱÊ ƽ âł η ὶ Ꞁǩ ƝƐdžǬƱǭ ηƷƩƸơ

أبو حامد الغزالي، هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري الملقب بحجة الإسلام وزين الدين (٤٥٠هـ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨م - ١١١١م)، مجدد القرن الخامس الهجري، أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء الدين السنة في التاريخ الإسلامي.

:ǴơƗ ǂ ℗p ǴơƳ è p

وُلِد أبو حامد الغزالي في قرية «غزالة» القريبة من طوس من إقليم خراسان عام ٤٥٠ هـ الموافق ١٠٥٨م، وإليها ينسب. ونشأ في بيت فقير من عائلة خراسانية فقد كان والده رجلًا زاهدًا ومتصوفًا لا يملك غير حرفته، ولكن كانت لديه رغبة شديدة في تعليم ولديه محمد وأحمد، وحينما حضرته الوفاة عهد إلى صديق له متصوف برعاية ولديه، وأعطاه ما لديه من مال يسير، وأوصاه بتعليمهما وتأديبهما. فاجتهد الرجل في تنفيذ وصية الأب على خير وجه حتى نفد ما تركه لهما أبوهما من المال، وتعذر عليه القيام برعايتهما والإنفاق عليهما، فألحقهما بإحدى المدارس التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، والتي كانت تكفل طلاب العلم فيها.

:ǴℓℓℓƷǾǬüơ

ابتدأ طلبه للعلم في صباه، فأخذ الفقه في طوس، ثم قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين الجويني في نيسابور فأخذ عنه جملة من العلوم في الفقه وأصوله وعلم الكلام والمنطق، وفي هذه الفترة ألف الغزالي كتابه «المنخول» وعرضه على شيخه الجويني، فأعجب به قائلًا: «دفنتني وأنا حي! هلا صبرت حتى أموت؟!». واجتهد الغزالي في طلب العلم حتى تخرج في مدة قريبة وصار أفضل أهل زمانه وأوحد أقرانه.

من أشهر كتب الغزالي: ألّف الإمام الغزالي خلال مدة حياته (٥٥ سنة) الكثير من الكتب في مختلف صنوف العلم، حتى أنه قيل: إن تصانيفه لو وزعت على أيام عمره أصاب كل يوم كتاب. حيث بلغت ٤٥٧ مصنفًا ما بين كتاب ورسالة، كثير منها لا يزال مخطوطًا، ومعظمها مفقود. ومن هذه الكتب:

في العقيدة وعلم الكلام والفلسفة: مقاصد الفلاسفة:

- تهافت الفلاسفة.
- الاقتصاد في الاعتقاد.
- بغية المريد في مسائل التوحيد.
- إلجام العوام عن علم الكلام.
- المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى.
- فضائح الباطنية.
- القسطاس المستقيم (الرد على الإسماعيلية).
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

في الفقه وأصوله والمنطق:

- المستصفى في علم أصول الفقه.
- المنخول في تعليقات الأصول.
- الوسيط في فقه الإمام الشافعي.
- الوجيز في فقه الإمام الشافعي.
- معيار العلم في المنطق.
- محك النظر (منطق).

في التصوف:

۞ إحياء علوم الدين

۞ بداية الهداية.

۞ المنقذ من الضلال.

۞ روضة الطالبين وعمدة السالكين.

۞ الأربعين في أصول الدين.

۞ منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين.

۞ معارج القدس في مدارج معرفة النفس.

۞ الدعوات المستجابة ومفاتيح الفرج.

۞ مدخل السلوك إلى منازل الملوك.

۞ أصناف المغرورين.

۞ مشكاة الأنوار.

۞ ميزان العمل.

۞ أيها الولد المحب.

۞ كيمياء السعادة (في الفارسية: كيمياي سعادت).

۞ سر العالمين وكشف ما في الدارين.

۞ مكاشفة القلوب المقرب إلى حضره علام الغيوب.

أخرى:

۞ جواهر القرآن ودرره.

۞ الحكمة في مخلوقات الله.

۞ التبر المسبوك في نصيحة الملوك.

۞ آداب النكاح وكسر الشهوتين.

۞ القصيدة المنفرجة.

۞ شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل.

:ĠDzŪ DǨǮǪūǩƗ ğǨā

شيخه أبو المعالي الجويني: الغزالي بحر مغدق. وعندما ألف الغزالي (المنخول في أصول الفقه) في مطلع شبابه، قال له الجويني : دفنتني وأنا حي، هلا صبرت حتى أموت، كتابك غطى على كتابي!

الذهبي: الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط.

ابن الجوزي: صنف الكتب الحسان في الأصول والفروع، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها، وتحقيق الكلام فيها.

تاج الدين السبكي: حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم، جرت الأئمة قبله بشأو ولم تقع منه بالغاية، ولا وقف عند مطلب وراء مطلب لأصحاب النهاية والبداية.

ابن النجار: أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق ورباني الأمة بالاتفاق، ومجتهد زمانه، وعين أوانه برع في المذهب والأصول والخلاف والجدل والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة، وفهم كلامهم وتصدى للرد عليهم، وكان شديد الذكاء، قوي الإدراك، ذا فطنة ثاقبة، وغوص على المعاني.

أبو العباس المرسي: إنا لنشهد له بالصديقية العظمى.

ابن العماد الحنبلي: الإمام زين الدين حجة الإسلام، أبو حامد أحد الأعلام، صنف التصانيف مع التصون والذكاء المفرط والاستبحار في العلم وبالجملة ما رأى الرجل مثل نفسه.

ابن كثير: كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه.

أبو بكر ابن العربي: رأيت الغزالي ببغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم.

أسعد الميهني: لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله.

عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي: أبو حامد الغزالي حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، من لم تر العيون مثله لسانًا وبيانًا ونطقًا وخاطرًا وذكاءً وطبعًا.

الأسنوي: الغزالي إمام باسمه تنشرح الصدور وتحيا النفوس، وبرسمه تفتخر المحابر وتهتز الطروس، وبسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرؤوس. وقال أيضًا: وهو قطب الوجود والبركة الشاملة لكل موجود وروح خلاصة أهل الإيمان والطريق الموصلة إلى رضا الرحمن يتقرب إلى الله تعالى به كل صديق ولا يبغضه إلا ملحد أو زنديق.

تلميذه الشيخ أبو العباس الأقليشي المحدّث الصّوفي، مدحه ومدح كتاب إحياء علوم الدين في أبيات من الشعر:

أبا حامد أنت المخصص بالمجدِ وأنت الذي علمتنا سنن الرشدِ

وضعت لنا الإحياء تحيي نفوسنا وتنقذنا من طاعة النازغ المردي

فربع عباداته وعاداته التي يعاقبها كالدر نظم في العقدِ

وثـالـثـهـا في المـهـلـكـات وإنــه ... لمـنـج مـن الهـلـك المـبرح والـبـعـدِ
ورابـعــهـا في المـنـجـيـات وإنــه ... لـيـسـرح بـالأرواح في جـنـة الخُـلْـدِ
ومـنـهـا ابـتـهـاج لـلـجـوارح ظاهر ... ومـنـهـا صـلاح للـقـلـوب مـن الحـقـد

Æǩłƺŭǩł ǫʃǭ â ł ŋǮΣƩơ Æə Æƽʒʞ Āǩł Ƹəʞŭǩł yШŪ ǫÊ g Ƹ g Ƶ:

قال أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل الخطيب الفارسي، خطيب نيسابور: محمد ابن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، من لم تر العيون مثله، لسانًا، وبيانًا، ونطقًا، وخاطرًا، وذكاء، وطبعًا.

شدا طرفًا في صباه، بطوس، من الفقه، على الإمام أحمد الراذكاني.

ثم قدم نيسابور مختلفًا إلى درس إمام الحرمين، في طائفة من الشبان من طوس.

وجد، واجتهد، حتى تخرج عن مدة قريبة، وبذ الأقران، وحمل القرآن، وصار أنظر أهل زمانه، وواحد أقرانه، في أيام إمام الحرمين.

وكان الطلبة يستفيدون منه، ويدرس لهم، ويرشدهم، ويجتهد في نفسه. وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف.

ثم بقي كذلك إلى انقضاء أيام الإمام، فخرج من نيسابور، وصار إلى المعسكر، واحتل من مجلس نظام الملك محل القبول، وأقبل عليه الصاحب لعلو درجته، وظهور اسمه، وحسن منظارته وجرى عبارته.

وكانت تلك الحضرة محط رحال العلماء، ومقصد الأئمة والفصحاء، فوقعت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة، وملاقاة الخصوم اللد، ومناظرة الفحول، ومنافرة الكبار.

وظهر اسمه في الآفاق، وارتفق بذلك أكمل الارتفاق، حتى أدت الحال به إلى أن رسم للمصير إلى بغداد، للقيام بتدريس المدرسة الميونة النظامية بها، فصار إليها، وأعجب الكل بتدريسه، ومناظرته، وما لقى مثل نفسه، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق.

ثم نظر في علم الأصول، وكان قد أحكمها، فصنف فيه تصانيف. وجدد المذهب في الفقه، فصنف فيه تصانيف. وسبك الخلاف، فحرر فيه أيضًا تصانيف.

وعلت حشمته ودرجته في بغداد، حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء، ودار الخلافة.

[ثم انتقل إلى دراسة التصوف والنظر في كتب القوم].

فانقلب الأمر من وجه آخر، وظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة، وممارسة الكتب المصنفة فيها، وسلك طريق التزهد والتأله، وترك الحشمة، وطرح ما نال من الدرجة، والاشتغال بأسباب التقوى، وزاد الآخرة. فخرج عما كان فيه، وقصد بيت الله وحج.

ثم دخل الشام وأقام في تلك الديار قريبًا من عشر سنين يطوف، ويزور المشاهد المعظمة.

وأخذ في التصانيف المشهورة، التي لم يسبق إليها، مثل: (إحياء علوم الدين) والكتب المختصرة منها، مثل (الأربعين) وغيرها من الرسائل، التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم.

وأخذ في مجاهدة النفس، وتغيير الأخلاق، وتحسين الشمائل، وتهذيب المعاش، فانقلب شيطان الرعنوة، وطلب الرياسة والجاه، والتخلق بالأخلاق الذميمة، إلى سكون النفس، وكرم الأخلاق، والفراغ عن الرسوم والترتيبات، والتزيي بزي الصالحين،

وقصر الأمل، ووقف الأوقاف على هداية الخلق، ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة، وتبغيض الدنيا، والاشتغال بها على السالكين، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية، والانقياد لكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعرفة، أو التيقظ لشيء من أنوار المشاهدة، حتى مرن على ذلك.

ثم عاد إلى وطنه لازمًا بيته، مشتغلا بالتفكر، ملازمًا للوقت، مقصودًا، نفيسًا وذخرًا للقلوب، ولكل من يقصده، ويدخل عليه.

إلى أن أتى على ذلك مدة، وظهرت التصانيف وفشت الكتب، ولم تبد في أيامه مناقضة، لما كان فيه، ولا اعتراض لأحد على ما آثره، حتى انتهت نوبة الوزارة إلى الأجل، فخر الملك، جمال الشهداء، تغمده الله برحمته، وتزينت خراسان بحشمته، ودولته، وقد سمع وتحقق بمكان الغزالي، ودرجته، وكمال فضله، وحالته، وصفاء عقيدته، ونقاء سيرته، فتبرك به، وحضره، وسمع كلامه، فاستدعى منه أن لا يبقى أنفاسه، وفوائده عقيمة لا استفادة منها، ولا اقتباس من أنوارها، وألح عليه كل الإلحاح، وتشدد في الاقتراح، إلى أن أجاب إلى الخروج، وحمل إلى نيسابور.

وكان الليث غائبًا عن عرينه، والأمر خافيًا، في مستور قضاء الله ومكنونه، فأشير عليه بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية، عمرها الله، فلم يجد بدًّا من الإذعان للولاة، ونوى بإظهار ما اشتغل به هداية الشداة، وإفادة القاصدين، دون الرجوع إلى ما انخلع عنه، وتحرر عن رقة من طلب الجاه، ومماراة الأقران، ومكابرة المعاندين، وكم قرع عصاه بالخلاف، والوقوع فيه، والطعن فيما يذره ويأتيه. والسعاية به، والتشنيع عليه، فما تأثر به، ولا اشتغل بجواب الطاعين، ولا أظهر استيحاشًا بغميزة المخلطين.

ولقد زرته مرارًا، وما كنت أحدس في نفسي مع ما عهدته في سالف الزمان عليه، من الزعارة، وإيحاش الناس، والنظر إليهم بعين الازدراء، والاستخفاف بهم كبرًا،

وخيلاء، واغترارا، بما رزق من البسطة في النطق، والخاطر، والعبارة وطلب الجاه، والعلو في المنزلة أنه صار على الضد، وتصفى عن تلك الكدورات.

وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكلف، متنمس بما صار إليه، فتحققت بعد السبر والتنقير، أن الأمر على خلاف المظنون، وأن الرجل أفاق بعد الجنون.

وحكى لنا في ليال، كيفية أحواله من ابتداء ما ظهر له سلوك طريق التأله.

وغلبت الحال عليه بعد تبحره في العلوم، واستطالته على الكل بكلامه، والاستعداد الذي خصه الله به، في تحصيل أنواع العلوم، وتمكنه من البحث والنظر، حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم العرية، عن المعاملة.

وتفكر في العاقبة، وما يجدي وما ينفع في الآخرة، فابتدأ بصحبة الفارمذى، وأخذ منه استفتاح الطريقة، وامتثل ما كان يشير به عليه، من القيام بوظائف العبادات، والإمعان في النوافل، واستدامة الأذكار، والجد، والاجتهاد، طلبًا للنجاة، إلى أن جاز تلك العقبات، وتكلف تلك المشقات، وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده.

ثم حكى أنه راجع العلوم، وخاض في الفنون، وعاود الجد والاجتهاد، في كتب العلوم الدقيقة، والتقى بأربابها، حتى انفتح له أبوابها، وبقي مدة في الوقائع، وتكافؤ الأدلة، وأطراف المسائل.

ثم حكى أنه فتح عليه باب من الخوف، بحيث شغله عن كل شيء، وحمله على الإعراض عما سواه، حتى سهل ذلك.

وهكذا، إلى أن ارتاض كل الرياضة، وظهرت له الحقائق، وصار ما كنا نظن به ناموسًا، وتخلقًا، طبعًا وتحققا، وأن ذلك أثر السعادة المقدرة له من الله تعالى.

ثم سألناه عن كيفية رغبته في الخروج من بيته، والرجوع إلى ما دعي إليه من أمر نيسابور؟ فقال معتذرًا عنه: ما كنت أُجِّوز في ديني أن أقف عن الدعوة، ومنفعة الطالبين بالإفادة، وقد حَقَّ عليَّ أن أبوح بالحق وأنطق به، وأدعو إليه. وكان صادقًا في ذلك.

ثم ترك ذلك قبل أن يترك، وعاد إلى بيته، واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم، وخانقة للصوفية.

وكان قد وزع أوقاته، على وظائف الحاضرين، من ختم القرآن، ومجالسة أهل القلوب، والقعود للتدريس، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته، ولحظات من معه عن فائدة؛ إلى أن أصابه عين الزمان، وضنت الإيام به على أهل عصره، فنقله الله إلى كريم جواره، بعد مقاساة أنواع من القصد، والمناوأة من الخصوم، والسعي به إلى الملوك، وكفاية الله به، وحفظه وصيانته عن أن تنوشه أيدي النكبات، أو ينهتك ستر دينه بشيء من الزلات.

وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين (البخاري) و(مسلم) اللذين هما حجة الإسلام، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن، بيسير من الأيام، يستفرغه في تحصيله.

ولا شك أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية، واشتغل في آخر عمره بسماعها، ولم تتفق له الرواية، ولا ضرر فيما خلفه من الكتب المصنفة في الأصول، والفروع، وسائر الأنواع تخلد ذكره، وتقرر عند المطالعين المستفدين منها أنه لم يخلف مثله بعده.

مضى إلى رحمة الله تعالى، يوم الاثنين، الرابع عشر، من جمادى الآخرة، سنة خمس وخمسمائة. ودفن بظاهر قصبة طابران، والله تعالى يخصه بأنواع الكرامة في آخرته، كما خصه بفنون العلم في دنياه بمنه، ولم يعقب إلا البنات.

وكان له من الأسباب إرثًا وكسبًا ما يقوم بكفايته، ونفقة أهله وأولاده، فما كان يباسط أحدا فى الأمور الدنيوية، وقد عرضت عليه أموال، فما قبلها، وأعرض عنها، واكتفى بالقدر الذي يصون به دينه، ولا يحتاج معه إلى التعرض لسؤال ومنال من غيره.

ومما كان يعترض به عليه وقوع خلل من جهة النحو، يقع في أثناء كلامه، وروجع فيه، فأنصف من نفسه، واعترف بأنه ما مارس ذلك الفن، واكتفى بما كان يحتاج إليه في كلامه، مع أنه كان يؤلف الخطب، ويشرح الكتب، بالعبارات التي تعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها، وأذن للذين يطالعون كتبه، فيعثرون على خلل فيها من جهة اللفظ، أن يصلحوه، ويعذروه، فما كان قصده إلا المعاني، وتحقيقها، دون الألفاظ، وتلفيقها.

ومما نقم عليه ما ذكر من الألفاظ المستبشعة بالفارسية في كتاب (كمياء السعادة، والعلوم) وشرح بعض السور، والمسائل، بحيث لا يوافق مراسم الشرع، وظواهر ما عليه قواعد الإسلام.

وكان الأولى به، والحق أحق أن يقال، ترك ذلك التصنيف، والإعراض عن الشرح به، فإن العوام ربما لا يحكمون أصول القواعد بالبراهين، والحجج، فإذا سمعوا شيئًا من ذلك، تخيلوا منه ما هو المضر بعقائدهم، وينسبون ذلك إلى بيان مذاهب الأوائل.

على أن المنصف اللبيب إذا رجع إلى نفسه، علم أن أكثر ما ذكره، مما رمز إليه إشارات الشرع وإن لم يبح به، ويوجد أمثاله في كلام مشايخ الطريقة مرموزة ومصرحا بها، متفرقة، وليس لفظ منه إلا وكما يشعر أحد وجوهه بكلام موهم، فأنه يشعر سائر وجوهه بما يوافق عقائد أهل الملة.

فلا يجب إذا حمله إلا على ما يوافق ولا ينبغي أن يتعلق به في الرد عليه متعلق، إذا أمكنه أن يبين له وجهًا في الصحة، يوافق الأصول.

على أن هذا القدر يحتاج إلى من يظهره، وكان الأولى أن يترك الإفصاح بذلك، كما تقدم ما ذكره، وليس كما يتقرر ويتمشى لأحد تقريره ينبغي أن يظهره، بل أكثر الأشياء مما يدري ويطوى، ولا يحكى، فعلى ذلك درج الأولون، وعبر السلف الصالحون، إبقاء على مراسم الشرع، وصيانة لمعالم الدين عن طعن الطاعنين، وعيرة المارقين الجاحدين، والله الموفق للصواب.

وقدت سمعت أنه سمع من (سنن أبي دواد السجستاني) عن الحاكم أبي الفتح الحاكمي الطوسي - وما عثرت على سماعه، وسمع الأحاديث المتفرقة اتفاقًا مع الفقهاء.

فلما عثرت عليه ما سمعه من كتاب (لمولد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من تأليف أبى بكر أحمد الخوارى، خوار طبران رَحِمَهُ اللهُ، مع ابنيه الشيخين: عبد الجبار، وعبد الحميد، وجماعة من الفقهاء.

ومن ذلك ما قال: أخبرنا الشيخ أبو عبدالله محمد بن أحمد الخواري، أخبرنا أبو بكر بن الحارث الأصبهاني، أخبرنا أبو محمد بن حيان، أخبرنا أبو بكر أحمد بن عمرو ابن أبي عاصم، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا عبد العزيز أبي ثابت، حدثنا الزبير بن موسى، عن أبي الحويرث، قال: سمعت عبد الملك بن مروان سأل قباث بن أشيم الكنانى: أنت أكبر أم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فقال: رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أكبر مني وأنا أسن منه، ولد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام الفيل. وتمام الكتاب في جزأين مسموع له. (انتهى كلام عبد الغافر).

نظم السيوطي في المجددين وذكر الغزالي مجدد المائة الخامسة:

فكان عند المائة الأولى عمر — خليفة العدل بإجماع وقر

والشافعي كان عند الثانية — لما له من العلوم السامية

وابـــن سـريـج ثـالـث الأئـمـة ... والأشـــعـــري عـــدَّه مـــن أمـــه
والـبـاقـلانـي رابـــع أو سـهـل أو ... الأسـفـرايـيـنـي خـلـف قـد حكوا
والخـامـس الحـبـر هـو الـغـزالـي ... وعـــــده مـــا فـيـه مـــن جـدال
والـسـادس الـفـخـر الإمـام الـرازي ... والــرافـــعـــي مـثـلـه يـــوازي
والـسـابـع الـراقـي إلى المـراقـي ... ابـــن دقـيـق الـعـيـد بـاتـفـاق
والـثـامـن الحـبـر هـو البُلقيني ... أو حـافـظ الأنـــام زيـــن الـديـن
والـشـرط في ذلـك أن تمضي المائة ... وهـــو عـلـى حـيـاتـه بـيـن الـفـئـة
يـشـار بـالـعـلـم إلى مقامه ... ويـنـصـر الـسـنـة في كـلامـه
وأن يـكـون جـامـعًـا لـكـل فـن ... وأن يـعـلـم عـلـمـه أهـل الـزمـن
وأن يـكـون في حـديـث قـد روى ... مـن آل بيت المصطفى وقـد قوى
وكـونـه فـــردًا هـو المـشـهـور ... قـد نـطـق الحـديـث والجـمـهـور
وهـــــذه تـاسـعـة المـئـين قـد ... أتـت ولا يُخـلـف مـا الـهـادي وعـد
وقـــد رجــــوت أنــنـي المجـدد ... فـيـهـا فـفـضـل الله لـيـس يجحد
وآخــــر المـئـين فـيـهـا يـأتـي ... عـيـسـى نـبـي الله ذو الآيـــات
يجـدد الـديـن لـهـذي الأمـة ... وفي الـصـلاة بـعـضـنـا قـد أمـه
مـقـرر لـشـرعـنـا، ويحـكـم ... بحـكـمـنـا، إذ في الـسـمـاء يعلم
وبـعـده لم يـبـق مـن مجدد ... ويــرفــع الــقــرآن مـثـل مـا بـدي
وتـكـثـر الأشــرار والإضـاعـة ... مـن رفـعـه إلى قـيـام الـسـاعـة
وأحمـد الله عـلـى مـا قـد علما ... ومـا جـلا مـن الخـفـايـا وأنعما
مـصـلـيـا عـلـى نـبـي المـرحـمـة ... والآل مـع أصـحـابـه المـكـرمـة

:ǼǩłʑǚǩƗ ǫĸǭ â Ɨ Ǽə ĸǽəʒ

قال الحافظ ابن عساكر: سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الإسفراييني يقول: سمعت الشيخ الإمام الأوحد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الشاوي بمكة المشرفة يقول: دخلت المسجد الحرام يومًا فطرأ عليّ حال وأخذني عن نفسي، فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بي، فوقعت على جنبي الأيمن تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة، وكنت أطرد عن نفسي النوم، فأخذتني سنة بين النوم واليقظة، فرأيت النبي في أكمل صورة وأحسن زي من القميص والعمامة، ورأيت الأئمة الشافعي ومالكًا وأبا حنيفة وأحمد رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يعرضون عليه مذاهبهم واحدًا بعد واحد، وهو يقررهم عليها، ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة فأمر النبي بطرده وإهانته، فتقدمت أنا وقلت: يا رسول الله، هذا الكتاب ـ أعني إحياء علوم الدين ـ معتقدي ومعتقد أهل السنة والجماعة، فلو أذنت لي حتى أقرأه عليك فأذن لي فقرأت عليه من «كتاب قواعد العقائد». بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول: الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة، حتى انتهيت إلى قول الغزالي: وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمدًا إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس؛ فرأيت البشاشة في وجهه. ثم التفت وقال: أين الغزالي؟ وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال: ها أنا ذا يا رسول الله، وتقدم وسلم، فرد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلها ويتبرك بها، وما رأيت النبي أشد سرورًا بقراءة أحد عليه مثل ما كان بقراءتي عليه الإحياء، ثم انتبهت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات.

:Ǵǿǿǿơƙəƿ

توفي أبو حامد الغزالي يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة ٥٠٥ هـ، الموافق ١٩ ديسمبر ١١١١م، في مدينة طوس، وسأله قبيل الموت بعض أصحابه: أوص، فقال: عليك بالإخلاص فلم يزل يكررها حتى مات.

:ŋǮƩƸǭǫǩ ŭƩƚƸǭ

- المنقذ من الضلال، تأليف: الغزالي نفسه.
- وفيات الأعيان (٤ / ٢١٦ - ٢١٩).
- شذرات الذهب (٤ / ١٠ - ١٣).
- طبقات السبكي (٤/ ١٠١).
- تبيين كذب المفتري (ص٢٩١ - ٣٠٦).
- المنتظم (٩/ ١٦٨).
- طبقات الحسيبي (ص٦٩).

تمهيد

ù ØūNJǩł Ƥǽƴ Ʈǩǩƛ ù ǽƩūƣǩł Æə

Ǵƛ ǨƷūǩł Ǭ Ǧ ƒƥ

أولًا: عرّفه ابن الصلاح بأنه: (كل حديث لم يجتمع فيه صفات الحديث الصحيح ولا صفات الحديث الحسن).

ثانيًا: حكم العمل به: قبل أن نذكر مذاهب العلماء في العمل بالحديث الضعيف لا بد أن نذكر هذه الحقائق:

١- أجمع العلماء على أنه لا يجوز الاحتجاج بالأحاديث الضعيفة في مسائل العقيدة.

٢- أجمع العلماء على أنه لا يجوز أن تروى الأحاديث الموضوعة لا في الترغيب ولا في الترهيب ولافي الفضائل ولا في غير ذلك إلا على سبيل التنبيه على أنها موضوعة ليحذرها الناس، فالأحاديث الموضوعة تختلف اختلافا كبيرا جدا عن الأحاديث الضعيفة و في روايتها فضلا عن العمل بها.

٣- اختلف العلماء في الأحاديث الضعيفة التي لم تبلغ درجة الوضع هل يجوز أن تروى ويعمل بها أم لا. على قولين:

القول الأول: وهو مذهب جماهير العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم، انه يستحب العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال من المستحبات والمكروهات، ولكن بالشروط الآتية:

١- أن يكون الضعف غير شديد، فيخرج من انفرد من الكذابين والمتهمين بالكذب ومن فحش غلطه.

٢- ألا يُثْبِت حكمًا شرعيًا أو صفة لله تعالى، أي من الأمور التي تتعلق بالعقائد والأحكام.

٣-أن يندرج تحت أصل معمول به كتلاوة القرآن الكريم والدعاء.

٤-ألا يكون باطلًا موضوعًا، فإن علم بطلانه ووضعه لا يجوز الالتفات إليه ولا الاحتجاج به في أي أمر من الأمور.

٥- ألا يُعْتَقَدَ عند العمل به ثبوته، لئلا ينسبَ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لم يقله.

وممن قال بهذا القول: والإمام أحمد -الإمام ابن عبد البر وشيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن حجر العسقلاني والإمام السيوطي والحافظ المنذري والخطيب البغدادي والحافظ العراقي والإمام النووي وابن علان والعلامة اللكنوي والإمام الصنعان -العلامة إبراهيم بن موسى الأبناسي -العلامة طاهر الجزائري الدمشقي -العلامة علي القاري -العلامة حبيب الرحمن الأعظمي -ابن حجر الهيتمي -محمد الأمين الشنقيطي -الشيخ صالح آل الشيخ.

وأكتفي في هذه العجالة بنقل كلام ثلاثة منهم:

أحدهم: شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى حيث قال: قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فصل: قول أحمد بن حنبل: إذا جاء الحلال والحرام شددنا في الأسانيد، وإذا جاء الترغيب والترهيب تساهلنا في الأسانيد، وكذلك ما عليه العلماء من العمل بالحديث الضعيف ليس معناه إثبات الاستحباب بالحديث الذي لا يحتج به، فإن الاستحباب حكم شرعي فلا يثبت إلا بدليل شرعي، ومن أخبر عن الله أنه يحب عملًا من الأعمال من غير دليل شرعي فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، كما لو أثبت الإيجاب والتحريم.... وإنما مرادهم بذلك: أن يكون العمل مما قد ثبت أنه مما يحبه الله أو مما يكرهه بنص أو إجماع،

كتلاوة القرآن والتسبيح والدعاء والصدقة والعتق والإحسان إلى الناس وكراهة الكذب والخيانة ونحو ذلك.

فإذا روي حديث في فضل بعض الأعمال المستحبة وثوابها وكراهة بعض الأعمال وعقابها فمقادير الثواب والعقاب وأنواعه إذا روي فيها حديث لا نعلم أنه موضوع جازت روايته والعمل به، بمعنى أن النفس ترجو ذلك الثواب أو تخاف ذلك العقاب، كرجل يعلم أن التجارة تربح لكن بلغه أنها تربح ربحًا كثيرًا، فهذا إن صدق نفعه وإن كذب لم يضره، ومثال ذلك الترغيب والترهيب بالإسرائيليات والمنامات وكلمات السلف والعلماء ووقائع العلماء ونحو ذلك مما لا يجوز بمجرده إثبات حكم شرعي لا استحباب ولا غيره، ولكن يجوز أن يذكر في الترغيب والترهيب والترجية والتخويف. فإذا تضمنت أحاديث الفضائل الضعيفة تقديرًا وتحديدًا مثل صلاة في وقت معين بقراءة معينة أو على صفة معينة لم يجز ذلك لأن استحباب هذا الوصف المعين لم يثبت بدليل شرعي، بخلاف ما لو روي فيه من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله... كان له كذا وكذا، فإن ذكر الله في السوق مستحب لما فيه من ذكر الله بين الغافلين... فأما تقدير الثواب المروي فيه فلا يضر ثبوته ولا عدم ثبوته.

فالحاصل أن هذا الباب يروى ويعمل به في الترغيب والترهيب لا في الاستحباب، ثم اعتقاد موجبه وهو مقادير الثواب والعقاب يتوقف على الدليل الشر». (انتهى مجموع الفتاوى (١٨/ ٦٥ـ ٦٨).

الثاني: ابن حجر «اشتهر أن أهل العلم يتسامحون في إيراد الأحاديث في فضائل وإن كان فيها ضعف، ما لم تكن موضوعة» (تبيين العجب بما ورد في فضل رجب (٢٣–٢٦).

الثالث: الإمام الصنعاني: حيث يقول: «الأحاديث الواهية جوزوا أي أئمة الحديث التساهل فيه، وروايته من غير بيان لِضعفه إذا كان واردًا في غير الأحكام وذلك كالفضائل والقصص والوعظ وسائر فنون الترغيب والترهيب» (توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (٢/ ٢٣٨).

القول الثاني: إنه لا يعمل به مطلقًا لا في الفضائل ولا في غيرها وذهب إلى هذا القول من العلماء أبن معين والبخاري ومسلم وأبو زرعة الرازي وأبو حاتم الرازي وابن حبان والخطابي وابن حزم وابن العربي والشوكاني والألباني.

وحجة أصحاب هذا القول أن الحديث الضعيف يفيد الظن والظن لا يغني من الحق شيئًا وأن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»، أخرجه البخاري ومسلم كما أن في الأحاديث الصحيحة ما يغني عن الضعيف.

❁❁❁

الحديث الأول

ȼǬǵDzǩł ǮƘNJ ƒǷ ! ÊƱâł ηǾǯǥǿ

عن عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ**، - وفي رواية بالنِّيات - **وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١).

:PǽYȚǩł ţƸ‖

تكلم الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ على هذا الحديث في مواطن من كتبه(٢) وسوف أحاول جمع كلامه وترتيبه من خلال المحاور الآتية:

المحور الأول: بيَّن رَحِمَهُٱللَّهُ أن أهمية الإخلاص تكمن في أمرين وكذا خطورة تركه تكمن في أمرين، وذلك على النحو الآتي:

:ǰǽƸǭǿ Ǽǝ ! ÊƱâł ηǾǯǥǿ

أحدُهُمَا: لِمَا في فِعْلِهِ مِنَ الْفَائِدَةِ، وَهو حُسْنُ القَبُولِ مِنَ اللهِ تَعالى وَفَوْزُ الثوابِ عَلَيْهِ.

والثاني: لما في تَرْكِهِ من عقوبة وخطر فتَكُونُ مَرْدُودًا ذاهبَ الثَّوابِ، كُلاًّ أَوْ بَعْضا، عَلَى مَا رُوِيَ في الحديث المشهورِ عَنِ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّ الله سُبحانَهُ يَقُولُ: «**أنا أغْنى الأَغْنِيَاء عن الشرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا فأشرك فيه غيري، فنصيبي له، فأنا لا أقبل إلا ما كان لي خالصًا**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧) وغيرهما.
(٢) الإحياء (٤/ ٤٠٠) وما بعدها، ومناهج العابدين (٢٧٧-٢٨٥).
(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٢٨٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥).

ƱăŇƷŊơƸ æ łâƱÊ ! þłǩŇāŇŬ əÆ łǩƸæǩD:

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «من خطر الرياء: فضيحتان ومصيبتان:

أما الفضيحتان: فإحداهُما فَضيحَةُ السِّرِّ، وهي اللومُ على رُؤوسِ الملائكة، وذلك لِما رُوي أنَّ الملائكة تصعدُ بعمل العبد مجتهدين، فيقول الله تعالى: «**رُدُّوهُ إلى سِجِّين، فإنه لم يُردني به**» فيفضح.

والثانية: فضيحةُ العلانية، وهي يَومُ القيامة على رُؤوسِ الخلائق.

رُوِيَ عَنِ النَّبِي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ المُرَائِي يوْمَ الْقيَامَةِ يُنَادَى بأرْبَعَةِ أسْمَاءٍ: يَا كَافِرُ، يَا فَاجِرُ، يَا غَادِرُ، يَا خَاسِرُ، ضَلَّ سَعْيُكَ، وَبَطَلَ أَجْرُك، فلا خَلاَقَ لكَ، الْيَوْمَ الْتمس الأجْرَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لهُ يَا مُخَادِع**»(١). وروي أنَّه يُنادي مُنادٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُسمعُ الخَلائِقَ: «**أيْنَ الَّذِينَ كَانوا يَعْبُدُونَ النّاسَ؟ خُذُوا أُجورَكُمْ مِمَّنْ كُنتم عملتُم لهُ، فإني لا أَقْبَلُ عملًا خالطهُ شَيْءٌ**»(٢).

وأما المصيبتان فإحداهما: فواتُ الجنةِ؛ وذلك لما روي في الحديث المرفوع: « بشر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب.

والخبر يحتمِلُ معنيين:

أحدهما: أن هذا البخيل مَنْ يبخلُ بأقبح بخل، وهُوَ قولُ: لا إله إلا الله، محمد رسول الله؛ وهذا المرائي مَنْ يُرائي بأقبحِ رياء، وهو المنافقُ الذي يُرائي بإيمانه وتوحيده وفي هذا القول ترجيح.

والثاني: مَنْ لم ينته عن البُخل والريا، ولم يُراعِ نفسهُ، ففيه خطران:

---

(١) قال العراقي (إحياء ٣/ ٢٩٤): أخرجه ابن أبي الدنيا وزاد: يا مرائي وإسناده ضعيف.

(٢) ابن ماجه (٢/ ١٤٠٦).

أحدهما: أن يلحقه شُؤم ذلك، فيقعُ في الكُفرِ فتفوته الجنة راسًا والعياذ بالله؛

والآخر: سلبُ الإيمان؛ الذي يَستحقُّ به النار. نعوذ بالله مِنْ سُخطه وشديد غضبه).

والمصيبة الثانية: دُخُولُ النَّار، وَذْلِكَ لِما رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَّ أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيامَةِ رَجُلٌ قَدْ جمَعَ الْقُرْآنَ، وَرجلٌ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالى لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمُكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلَّمْتُكَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قُمْتُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **كَذَبْتَ، وتَقُولُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، ويقُولُ اللهُ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلانٌ قَارِئٌ، وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُوسِعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحدٍ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: ماذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وأَتَصدَّقُ، فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلانٌ جوادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. ويُؤتَى بالَّذي قُتِلَ فِي سَبِيلَ اللّه، فَيَقُولُ مَا فَعلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ؛ فَيَقُولُ اللهُ تَعالى: كَذَبْتَ، وتَقُولُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ**». ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ عَلَى رُكْبَتِي، وَقال: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ يُسَعَّرُ بِهِمُ نَارَ جَهَنم**»[1].

: ! Êʊâł ηÆØÆ ƒ ʒKØλ :ÆĐKRǩł ʒÑŢʒǩł

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: فإنْ قلت: فأخبرنا عَنْ حقيقة الإخلاصِ والرياء وحكمهما وتأثيرهما في العمل.

فأعلم أنّ الإخلاص عند عُلمائنا إخلاصانِ: إخلاصُ العمل، وإخلاصُ طلب الأجر:

(١) رواه مسلم (٣/ ١٥١٤)، وأحمد (٢/ ٣٢٢).

فَأَمَّا إخْلاصُ العَمَلِ، فَهُوَ: إرادَةُ التَّقَرُّبِ إلى اللهِ تعالى وَتَعْظِيمِ أمْرِهِ، وَإجَابَةُ دعوته؛ وَالبَاعِثُ عَلَيْهِ هو الاعْتِقَادُ الصَّحِيحُ.

وَضِدُّ هذا الإخلاصِ النِّفَاقُ، وَهوَ التَّقَرُّبُ إلى من دُونَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى. وَقَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُٱللَّهُ: النِّفَاقُ هوَ الاعتقاد الفَاسِدُ الذي هُوَ للْمُنَافِقِ في الله عَزَّوَجَلَّ، ولَيْس هُوَ مِنْ قَبِيلِ الإرادَات لِعِلَّةٍ ذَكَرْنَاهَا في مَوْضِعِهَا.

وأمَّا إخْلاصُ طَلَبِ الأجْرِ؛ فَهُوَ إرادَةُ نَفْعِ الآخِرةِ بِعَمَلِ الْخَيْرِ. وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُٱللَّهُ يَقُولُ: إنَّه إرادَةُ نَفْعِ الآخرة بخير، لَمْ يترَدّ ردًا يَتَعَذَّرُ خَيْرُهُ، بِحَيْثُ تُرْجَى بِهِ تِلْكَ الْمَنْفَعَةُ. وقد شَرحْنَا هذه الشَّرائطَ.

وقال الْجُنَيْدُ: الإخْلاَصُ تَصْفِيةُ الأعْمالِ مِنَ الكُدُورَاتِ.

وقَالَ الْفُضَيْلُ: الإخْلاَصُ.

دَوَامُ الْمُرَاقَبَةِ ونِسْيانُ الْحُظُوظِ كُلِّهَا، وَهذا هُوَ الْبَيَانُ الْكَامِلُ.

وَالأقاويلُ في هذا كَثيرَة، فلا فائدةَ في تَكْثير النَّقْلِ بَعْدُ انْكِشَافِ الْحَقَائِقِ؛ وَقدْ قال سَيِّدُ المرسلين الأوَّلِينَ والآخِرينَ محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذْ سُئِلَ عَنِ الإخْلاصِ فقال: «**تَقولُ رَبِّي اللهُ ثُم تَسْتَقيمُ كَما أُمِرْتَ**»[١]. أيْ لا تَعْبُدْ هَوَاكَ وَنَفْسَكَ، ولا تَعْبُدْ إلا رَبَّكَ، وَتَسْتَقيمُ في عِبادَتِكَ كما أمِرْتَ. وهذه إشارةٌ إلى قطعِ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ عَنْ مجْرَى النَّظَرِ، وَهُوَ الإخْلاصُ حَقًّا.

[ثم شرح رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الإيجاز بشيء من الإطناب في كتاب الإحياء بقوله]:

اعلم أنّ كل شيء يتصوّر أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصًا، ويسمى الفعل المصفى المخلص: إخلاصًا. قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) ونصه: عن سفيان بن ابن الثقفي قال: قلت يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك قال: «قل آمنت بالله ثم استقم».

خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ [النحل:٦٦]، فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضادّه الإشراك، فمن ليس مخلصًا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية.

والشرك، منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص. والإخلاص وضدّه يتواردان على القلب فالإخلاص محله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات. وقد ذكر الحديث حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصًا بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص. ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك.

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب. أو يعتق عبدًا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده، أو ليهرب عن عدوّ له في منزله، أو يتبرم بأهله وولده، أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أيامًا. أو ليغزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها. أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله. أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزًا بين العشيرة، أو ليكون عقاره أو ماله محروسًا بعز العلم عن الأطماع. أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث. أو تكفل بخدمة العلماء الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس،

أو لينال به رفقًا في الدنيا. أو كتب مصحفًا ليجوّد بالمواظبة على الكتابة خطه. أو حج ماشيًا ليخفف عن نفسه الكراء. أو توضأ ليتنظف أو يتبرد. أو اغتسل لتطيب رائحته. أو روي الحديث ليعرف بعلوّ الإسناد أو اعتكف في المسجد ليخف كراء المسكن. أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرّغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها. أو تصدّق على السائل لقطع إبرامه في السؤال عن نفسه. أو يعود مريضًا ليعاد إذا مرض. أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيئًا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حدّ الإخلاص وخرج عن أن يكون خاصًّا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**».

وبالجملة؛ كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب -قل أم كثر- إذا تطرق إلى العمل تكدّر به صفوه وزال به إخلاصه. والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس. فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا. وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله تعالى. وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدّة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور، ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة - كما سبق في النية - وبالجملة؛ فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف، ولكل واحد حكم آخر - كما سنذكره - وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها - قليلها

وكثيرها – حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه. وهذا لا يتصوّر إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضًا، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كفي شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوبًا عنده؛ لأنه ضرورة دينة فلا يكون له هم إلا الله تعالى. فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلًا حتى يريح نفسه ليتقوّى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصًا؛ فالذي يغلب على نفسه: الدنيا والعلوّ والرئاسة – وبالجملة غير الله – فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عبادته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرًا.

فإذن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرّد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص. وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظنّ أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول لأني تأخرت يوما لعذر فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلةٌ من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أنّ نظر الناس إليَّ في الصف الأوّل كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر. وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات

وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر:٤٧-٤٨]، وبقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، وأشد الخلق تعرضًا لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وترى الواعظ يمنُّ على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يُسِّرَ له من نصرة الدين ولو ظهر مِنْ أقرانه مَنْ هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره. ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابًا وأعود عليه في الآخرة من إنفراده. وليت شعري لو اغتم عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بتصدي أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للإمامة أكان غمه محمودًا أو مذمومًا؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذمومًا، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى مَنْ هو أصلح مِنه أعود عليه في الدين من تكلُّفه بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ باستقلال من هو أولى منه بالأمر. فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك؟ وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر مَنْ هو أولى مِنه بالأمر لفرح به، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة الانقياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد. وذلك لا يعرف إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر

عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهـو المستثنى في قوله تعالى: ﴿ **إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ** ﴾ [ص:٨٣]، فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

ƚǩǮƮǓƞ :ƤǩǨƦǩł ƷǩǾƛ ǧǩƷŪàł ǧǩǯǓǩƥ ƟǩŪǩ ăǩłƥ Æǭǩł ƨǩǭƮơ Áǩƒ Êʊâł ! :

فإنْ قُلْتَ: فَمَا مَوْضِعُ الإخْلاَص، وفي أي طاعةٍ يَقَعُ وَيَجِبُ؟

فأعلم أنّ الأعمال عِندَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ ثلاثةُ أقْسَامٍ:

قسم يقع فيه الإخْلاَصَان جميعًا التقرب إلى الله وطلب الأجر: وَهُوَ الْعِبَاداتُ الظَّاهرةُ الأصْليةُ.

وقسم لا يقعُ فيه شيء منهما، وهو الأعْمَالُ الْباطنةُ الأصليةُ.

وقسم يقعُ فيه إخْلاصُ طَلَبِ الأجْرِ دُون إخْلاصِ العَمَلِ، وَهُوَ الْمُباحاتُ المأخوذةُ للعُدَّةِ.

قال شَيْخُنَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنّ كُلَّ عملٍ يحتمِلُ الصَّرْفَ إلى غير الله مِن العبادات الأصلية يقع فيه إخلاص العمل، والعبادات الباطنة أكثرها يقع فيها إخلاص العمل.

وكان شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: إذا أرَادَ مريدٌ من الله تعالى بالعَبَادَات الْباطِنة نَفْعَ الدُّنيا فهو أيضًا رِياءٌ.

قُلْتُ أنَا: ولا يَبْعُدُ إذَنْ أنْ يقع في كثيرٍ مِنَ العبادات الْباطِنةِ الإخلاصانِ، وَكَذلكَ في النَّوَافِلُ، يجبُ فيها الإخلاصانِ جميعًا عِنْدَ الشروع فيها.

وأما الْمُبَاحَاتُ المأخوذةُ للعُدَّةِ، (فإنما) يقعُ فيها إخْلاَصُ طلب الأجر دونَ إخْلاص العَمَلِ، إذْ هي لا تصلحُ أنْ تكونَ بنفسها قُربةً بَلْ هي عُدَّةٌ عَلَى الْقُرْبَةِ.

فإنْ قُلْتَ: أكل عَمَلٍ يَحْتاجُ إلى إخْلاصٍ مُفْرَدٍ؟

فَاعْلمْ أنَّه قد اخْتلف في ذلك، فَقِيلَ: إنَّه يَجِبُ لِكُلِّ عَمَلٍ إخْلاصُ مُفْرَدُ، وَقيلَ: يَجُوزُ تناوُلُ الإخْلاص لِجُمْلةٍ من العبادات، فَالْعَمَلُ ذُو الأرْكان كالصلاة والوُضُوءِ يكفيهما إخْلاصٌ واحدٌ، لأن بَعْضها مُتَعَلِّقٌ بِبَعْضٍ صلاحًا وفسادًا، فصارتْ كشيء واحدٍ.

فإنْ قُلْتَ إنْ أراد بعمله الخير من الله تعالى في الدُّنيا ولا يُريدُ مِنَ النَّاس شيئًا مِنْ مدحةٍ أو سمعةٍ أو منفعةٍ، أيكُنُ ذلك رياءً؟

فأعلم أنّ ذلك محضُ الرِّياء، قال عُلَمَاؤُنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الاعْتبارُ في الرِّيَاء بالْمُرَادِ، لا بالَّذِي يُريدُ منهُ، فإنْ كان مُرادُك مِنْ عمل الخير نفعًا دُنيويًا فإنه رياءٌ، سواءُ أَرَدْتهُ مِنَ الله أوْ مِنَ النَّاس، قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى:٢٠].

وليس الاعتبارُ بلفظة الرِّياء واشتقاقها مِنْ مَعْنَى الرُّؤيةِ، وإنما سُمِّيَتْ هذه الإرادة الْفاسِدَةُ بهذا الاسم لأنَّها أكثرُ ما تقع. وتكونُ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ وَرُؤيتِهِمْ، فَافْهَمْ.

: ! ÊƱÈǩ ƝƷƴ Ğ Ʒǩƚ Ɵǩəøƚþ ƚ ƕƚŃ ƚ ǩƚ ƟǨΣƷY ƷǨØƛ :ŭƛƚƐǩƚ ƷǸƮƷǩƚ

اعلم أن الآفات المشوّشة للإخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال. وأظهر مشوّشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالاً.

فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصًا في صلاته؛ ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك! فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته؛ وهذا هو الرياء الظاهر؛ ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمرّ في صلاته كما كان. فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة! وهذا أغمض من الأوّل وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأوّل، وهو أيضًا عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرًا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أحسن عليه من نفسه؟ فهذا محض التلبيس، بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه؛ وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفًا به.

الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها؛ أن يجرّب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعًا زائدًا على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ، ويصلي في الملأ أيضًا كذلك. فهذا أيضًا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد فرق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق. بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأنّ نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلا والملأ وهيهات! بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا

والملأ جميعًا، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملا والخلا جميعًا، وهذا من المكايد الخفية للشيطان.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى؛ أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان على أن يقول له: اخشع لأجلهم، فإنه قد عرف أنه قد تفطن لذلك فيقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أنّ ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإنّ خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحاجة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببًا فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء[1]. كما ورد في الخبر.

ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإنّ هذه السنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطنًا لها لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بها شوبًا يخرج عن حدّ الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٢) وقال: شرطهما ولم يخرجاه وأخرجه أبو نعيم في الحلية.

بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن الأمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرّك الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضوعين إذا كان أحسن من الآخر، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطلٌ لحقيقة الإخلاص؛ لعمري الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة. فمنها ما يغلب، ومنها ما يقل لكن يسهل دركه. ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير. وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرًا. ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، فإنّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدنيا المموّه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغرّ الغبي. فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدّ وأعظم.

ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالًا، والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضًا فلا فائدة في التفصيل.

:ǴǍ ƙƗǸŘǩƗ ăƘǼŢǬƷƗƿ ƘǸǂ ǮǩƗ ǨǮǘǩƗ Ǭ Ǧ Ƨ : 5 ǭƘǙǩƗ ǮǸŢǮǩƗ

اعلم أنّ العمل إذا لم يكن خالصًا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس قد اختلف الناس في أنّ ذلك هل يقتضي ثوابًا أم يقتضي عقابًا أم لا يقتضي شيئًا أصلًا فلا يكون له ولا عليه؟ أما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعًا وهو سبب المقت والعقاب. وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب،

وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له[١] وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه. والذي ينقدح لما فيه – والعلم عند الله – أن ينظر إلى قدر قوّة الباعث. فإن كان الباعث الديني مساويًا للباعث النفسي تقاومًا وتساقطًا وصار العمل له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب. نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرّد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرّب.

وإن كان قصد التقرّب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوّة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى: ﴿ **فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ** ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، ولقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا** ﴾ [النساء:٤٠]، فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالبًا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوبًا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد.

وكشف الغطاء عن هذا أنّ الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكد صفاتها. فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوّته العمل على وفقه. وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها. فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء قوّى تلك الصفة، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرّب

---

(١) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال: وليس تخلو الأخبار عن تعارض رواه أبو داود من حديث أبي هريرة: أن رجلًا قال يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضًا من عرض الدنيا فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**لا أجر له....**» الحديث، وللنسائي من حديث أمامة بإسناد حسن: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال: «**لا شيء له**»، فأعادها –ثلاث مرات– يقول: «**لا شيء له**»، ثم قال: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه**»، وللترمذي وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة: الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال: «**له أجران أجر السر وأجر العلانية**»، وقد تقدم في ذم الجاه والرياء. [تخريجات العراقي على الأحياء ٤/ ٤٠ وما بعدها].

فقد قوّى أيضًا تلك الصفة، وأحدهما مهلك والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما. فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوّته، فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما، وإن كان أحدهما غالبًا لم يخل الغالب عن أثر، فكما لا يضيع مثقال ذرّة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرّة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثيره في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله وإبعاده، فإذا جاء ما يقرّبه شبرًا مع ما يبعده شبرًا فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه، وإن كان الفعل مما يقرّبه شبرين والآخر يبعده شبرًا واحدًا فضل له لا محالة شبر، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتبع السيئة الحسنة تمحها**»[1]، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه، فإذا اجتمعا جميعًا فلابدّ وأن يتدافعا بالضرورة. ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجًا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس، وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة. ولكن الصواب أن يقال: مهما كان الحج هو المحرّك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ما. وعندي: أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها، ويبعد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم. بل العدل أن يقال: إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب. نعم لا يساوي ثوابه من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلًا؛ فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة.

فإن قلت: فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب، وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاووس وغيره من التابعين:

---

(١) أخرجه الترمذي وأبو نعيم في الحلية والمنذري في الترغيب وقال صحيح أو حسن أو ما يقاربهما.

أن رجلًا سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمن يصطنع المعروف - أو قال يتصدّق - فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(١). وقد قصد الأجر والحمد جميعًا. وروى معاذ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**أدنى الرياء شرك**»(٢)، وقال أبو هريرة: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له؟**»(٣).

وروى عن عبادة: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **يقول: أنا أغنى الأغنياء عن الشركة من عمل لي عملًا فأشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي**» وروى أبو موسى: أن أعرابيًّا أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه فأيهم في سبيل الله؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٤).

فنقول: هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله: «**ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»، وكان ذلك هو الأغلب على همه. وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها، وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي، وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن

---

(١) حديث طاوس وعدة من التابعين: أن رجلًا سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمن يصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيحب أن يحمد ويؤجر فنزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف:١١٠]، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلًا.

(٢) حديث معاذ: «أدنى الرياء شرك» أخرجه الطبراني والحاكم.

(٣) حديث أبي هريرة: «يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له»، تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة: «من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»، وفي رواية مالك في الموطأ: «فهو له كله»، وهو عند ابن ماجه بإسناد حسن.

(٤) حديث أبي موسى: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» متفق عليه.

له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب، ثم إن الإنسان عند الشركة أبدًا في خطر فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالًا، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، أي لا يرجي اللقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط، ويجوز أن يقال أيضًا: منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص في الغزو. وبعيد أن يقال: من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرّد الغزو - وإن لم يكن غنيمة - وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداهما غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء - لإعلاء كلمة الله وللغنيمة - لا ثواب له على غزوه البتة، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فإن هذا حرج في الدين ومدخل لليأس على المسلمين، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور، فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب، فأما أن يكون في إحباطه فلا. نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظنّ أن الباعث الأقوى هو قصد التقرّب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي، وذلك مما يخفى غاية الخفاء. فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط، فلذلك ينبغي أن يكون أبدًا بعد كمال الاجتهاد مترددًا بين الرد والقبول خائفًا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها.

وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة. ولذلك قال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا أعتدّ بما ظهر من عملي. وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله، ليته لا لي ولا عليّ.

ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص. ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعًا وقد حكي أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويحمق في أعماله فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يومًا - يريد إخلاص الحركات - فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها، فقال أبو سعيد: لا تفعل إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل؟ وقد قال الفضيل: ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

❁❁❁

الحديث الثاني

ηꝏꝏλÑơ ǫγꝏꝏǅǩł

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغفَّل، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ أنا و أَبِي عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ أَبِي: سَمِعْتُ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**» قَالَ: نَعَمْ. رواه الحاكم (٦١٣) وقال: صحيح الإسناد، ورواه ابن حبان في صحيحه (٦١٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورواه الحاكم من رواية عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا بلفظ: «**ما علم الله من عبدٍ نَدامةً عَلى ذنْبٍ إلَّا غفَرَ له قَبْلَ أنْ يستغفرَ منه**» وقال: صحيح الإسناد.

ƤæƔƮǩł ţƸ‖[1]:

أولًا: شروط التوبة النصوح:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: فإنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى التَّوبةِ النَّصُوحِ وما حَدُّها؟ وما يَنْبَغي للْعَبْدِ أنْ يفعلهُ حَتَّى يَخْرجَ مِنَ الذُنُوبِ كُلها فأقُولُ:

أمَّا التَّوْبَةُ فإنها سعي مِنْ مَساعي القلْبِ، وهي عِنْدَ التَّحْصيل في قَوْلِ الْعُلَماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تَنْزيهُ القلْبِ عَنِ الذَّنْب. قال شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ في حدِّ التَّوبَةِ: إنَّهُ تَرْكَ اختيار ذَنْب سَبقَ مِثْلُهُ عَنْهُ، منزلةً لا صُورةً، تَعْظيمًا لله تعالى وحذرًا مِنْ سَخَطِهِ؛ ولها إذًا أَرْبعُ شرائط:

إحْداها: تَرْكُ اختيار الذَّنْب، وهو أنْ يُوطِّن قلبهُ ويُجرِّد عزْمهُ على أن لا يعودُ إلى الذَّنْب البتة؛ فأما إنْ ترك الذَّنْبَ وفي نَفْسه أنَّه رُبَّما يعُودَ إليه، أوْ لا يَعزمُ على ذلك، بلْ يتردَّدُ، فإنَّهُ رُبما يقعُ لهُ العَوْدُ، فإنَّهُ مُمتنعٌ عن الذّنْب غيْرُ تائبٍ عَنْهُ.

---

(١) شرح الحديث مأخوذ من كتاب منهاج العابدين (٧٢-٧٧).

والثانية: أنْ يتُوب عنْ ذنْب سبق عنهُ مثلُهُ، إذْ لوْ لَمْ يسبقْ عنه مثلُهُ لكان مُتَّقيًا غير تائب، ألا ترى أنَّهُ يصِحُّ القولُ بأنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مُتَّقيًا عن الكفر، ولا يصحُّ القولُ بأنّهُ كانَ تائبًا عَنِ الْكُفْرِ، إذْ لَمْ يسبقْ منهُ كُفرٌ بحالٍ، وأنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب كان تائبًا عَنِ الْكُفْرِ لِمَا سبق عنْهُ ذلك.

والثالثة: أنَّ الذي سبق، يكُونُ مثل ما يترك اختيارهُ في المنزِلَةِ والدرجة، لا في الصورة؛ ألا ترى أنَّ الشيْخَ الْهَرم الفاني، الذي سبق منْهُ الزِّنا وقطْعُ الطريق، إذْ هُو لا يقْدرُ الآن على فِعْل ذلك، فلا يقْدرُ على ترك اختياره، فلا يَصِحُّ وصفُهُ بأنَّهُ تارك لهُ، ممتنع عنه، وهو عاجزٌ عَنْهُ، غير متمكن، لكنَّه يَقْدِرُ على (فعل) مَا هُوَ مِثْلُ الزِّنا وقطع الطريق، في الْمَنْزلة والدَّرجة (كالكذب) والْقَذْف والغيبة والنَّميمة، إذْ جميعُ ذلك معاصٍ وإنْ كان الإثْم في حق الآدمي، في كل واحدة بقدرها.

ولكن جميعُ هذه المعاصي الْفرْعيَّة، كُلِّها بمنْزلةٍ واحدةٍ وَهيَ دُون مَنْزلَةِ الْبدْعةِ، ومنْزِلَةُ الْبدْعة دُون (مَنْزِلةِ) الكُفْرِ فلذلك صَحَّ مِنْهُ التَّوْبةُ عن الزِّنا وقطْعِ الطَّرِيقِ وسائر ما مضى مِنَ الذُّنُوبِ التي هُوَ عَجِزٌ عَنْ أمثالها اليَوْمَ في الصُورةِ.

والرابعة: أنْ يكون تركُ اختياره ذلك، تَعْظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَحَذَرًا مِنْ سَخَطِهِ وَأليمِ عِقَابه، مُجَرَّدًا لا لرغْبَةً دُنيويةٍ، أو رهبة مِن الناس، أوْ طلب ثناءٍ أو صيتٍ، أو جاه أو ضعْفٍ في النَّفس أو فقر أوْ هوانٍ أوْ غير ذلك. فهذه شرائط التوْبَةِ وأرْكانُها، فإذا حصَّلْت واستكملت، فهي توبة حقيقية صادقة.

ثانيًا: الندم هو أهم شرط من شرائط التوبة وهو معنى الحديث: قال رَحِمَهُ اللَّهُ فإنْ قيلَ: أَليسَ قَدْ قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**النَّدَمُ توْبَةٌ**» وَلَمْ يَذْكُرْ مِمَّا ذَكَرْتُمْ مِنْ شَرائِطَهَا شَيْئًا؟ يُقالُ لَهُ:

اعْلَمْ أولًا: أَنَّ النَّدَمَ غَيْرُ مَقْدورٍ لِلْعَبْدِ، ألا ترى أنهُ تقعُ النّدامةُ عنْ أمورٍ في قلبِهِ، وَهُوَ يُريدُ أنْ لا يكون ذلك، والتوبَةُ مقْدُورَةٌ لِلْعَبْدِ مأمُورٌ بها؟ ثُمَّ إنّا قَدْ علمنا أَنَّهُ لَوْ نَدِمَ على الذُّنُوب لما ذَهبَ بذلِكَ جاهُهُ عند النَّاس أوْ مالُهُ في النفقة فيها، فإنّ ذلك لا يكُونُ تَوْبَةً بلا ريْب، فعلمت بذلك أنّ في الخبر معنى لمْ تفهمهُ مِنْ ظَاهِرِهِ، وَهُوَ أنّ النّدمَ لِتعْظيم الله سُبحَانهُ وَخَوْفِ عِقَابِهِ، ممَّا يبعثُ على التّوْبةِ النّصوحِ، فإن ذلك مِنْ صفاتِ التائبين وحالهمْ، فإنّهُ إذا ذكر الشروط الثّلاثة التي هي مُقَدّماتُ التوبةِ يندمَ.

فحملَتْهُ النَّدامةُ على ترك اختيار الذَّنبِ، وتَبْقى نَدامتُهُ في قلْبِهِ في المُستَقْبلِ تحْمِلُهُ على الابتهال والتَّضرُّعِ. فلما كان ذلك مِنَ أسباب التَّوبةِ، وصفات التّائب، سماهُ باسْمِ التّوْبَةِ، فافهم ذلك مُوفَّقًا إنْ شاء الله تعالى بفضلِهِ].

ثالثًا: كيف يخرج العبد من الذنوب على اختلاف أنواعها:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما الخُرُوجُ عن الذّنُوب والتخلصُ منها، فاعلم أنَّ الذَّنْب في الجملة ثلاثة أقسامٍ:

أحدُها: تركُ واجبات الله تعالى عليك، من صلاةٍ أو صيامٍ أو زكاةٍ أو كفارةٍ أو غيرها، فتقضي ما أمكنك منها.

والثاني: ذُنُوبُ بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كشُرب الخمرِ وضَربِ المزامير وأكل الرِّبَا ونحو ذلك، فتندمُ على ذلك، وتوطن قلبك على ترك العود إلى مثلها أبدًا.

والثالث: ذُنُوبُ بينك وبين العباد، فهذا أشكلُ وأصعَبُ، وهي أقسامٌ، قدْ تكونُ في المالِ أو في النَّفس أو في العِرضِ، أو في الحُرْمَةِ، أو في الدِّينِ.

فما كان في المال فيجبُ أنْ ترُدهُ عليه إنْ أمكنك، فإن عجزت عن ذلك، لعدم وفقر فتستحِلَّ منه، وإنْ عجزت عَنْ ذلك لغَيبةِ الرجلِ أو موته، وأمكن التّصدُّق عَنْهُ فافعَلْ،

فإن لم يُمكنْ، فعليك بتكثير حسناتك والرجوع إلى الله تعالى بالتضرع والابتهال إليه أنْ يُرضيهُ عنك يوم القيامةِ.

وأما ما كان في النفس، فتمكنُهُ مِن القصاصِ أو أولياءَهُ، حتى يَقْتَصَّ مِنْكَ أو تُجعل في حلٍ، فإنْ عجزتَ، فالرجُوعُ إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ والابتهال إليه أنْ يُرضيهُ عنك يوم القيامة.

وأما العرضُ فإن اغتبتهُ أو بهتهُ أو شتمتهُ، فحقُّكَ أن تكذب نفْسك بيْن يدي مَنْ فعلت ذلك عندهُ، وأن تستحل مِنْ صاحبه إنْ أمكنك، هذا إنْ لَمْ تخش زيادة غيظٍ وهيجِ فتنة في إظهار ذلك وتجديده، فإنْ خشيتَ ذلك فالرجوعُ إلى الله تعالى لُيرضيهُ عنك والاستغفار الكثير لصاحبه.

وأما الحرمةُ بأن خنته في أهله أو ولده أو نحوه، فلا وجه للاستحلال والإظهار، لأنه يُولِّد فتنة وغيظًا، بل تتضرع إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ليرضيهُ عنك، ويجعل له خيرًا كثيرًا في مُقابلته، فإنْ أَمنتَ الفتنة والهيجِ، وهو نادر، فتستحل منه.

وأما في الدين بأن كفرتهُ أو بدعتهُ أو ضللتهُ، فهو أصعبُ الأمور فتحتاج إلى تكذيب نفسك عند مَنْ قُلت له ذلك، وأنْ تستحل مِنْ صاحبك إن أمكنك، وإلا فالابتهالُ إلى الله تعالى جدًّا، والتندم على ذلك ليرضيهُ عنك.

وجملة الأمر فما أمكنك مِنْ إرضاء الخصوم عملت، وما لم يُمكنك رجعت إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالتضرعِ والصدق، ليُرضيهُ عنكَ، فيكونُ ذلك في مشيئة الله تعالى يوم القيامة، والرجاءُ منهُ بفضله العظيم وإحسانه.

❀❀❀

الحديث الثالث

ýШūǩł ηλŇqλ Żł ţƸə

عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبين ما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**» رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

Pǽy⁄Ţǩł ţƸ‖ [1]:

لما كانت مباحث التوبة كثيرة وكلها مهمة أتينا بشرح هذا الحديث بعد شرح حديث: «**الندم توبة**» تكميلًا لتلك المباحث التي لابد لكل مسلم من العلم بها والعمل بها لأن التوبة مطلوبة لجميع مقامات الإيمان بل هي أول الأمر وآخره ورمته.

:ƘĦŰqÆĒǾÆ ƭ ƿ ηλŇqǩł ǫŇĦŰǞǭ :ğƿäł ʒŇŢƷǩł

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة:علم، وحال، وفعل. فالعلم الأوّل، والحال الثاني، والفعل الثالث. والأوّل موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجابًا اقتضاه إطراد سنَّة الله في الملك والملكوت.

أما العلم: فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابًا بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندمًا، فإذا غلب هذا

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤) وما بعدها.

الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدًا إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال.

أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسًا، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر. وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلًا للجبر.

فالعلم هو الأوّل وهو مطلع هذه الخيرات وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبًا عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرًا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدّمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر.

وبهذا الاعتبار قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الندم توبة**»(١) إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه؛ فيكون الندم محفوفًا بطرفيه أعنى ثمرته ومثمره.

وبهذا الاعتبار قيل في حدّ التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا؛ فإن هذا يعرض لمجرّد الألم ولذلك قيل: هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب.

---

(١) حديث: «الندم توبة» أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح على شرط الشيخين.

وباعتبار معنى الترك قيل في حدّ التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء.

وقال سهل ابن عبد الله التستري: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة، والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر؛ وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجرّدة.

:ƷǸĀǩƗ ǺǪǕ ȠɯΣƗƿ ǨǶǅǥƿ ǨǶǪǊəƿ ȠƛǸǭǩƗ ƙǸΣƿ ǯǨǾƛ :ǼǅǨǶǩƗ ƷǸȚǮǩƗ
:ȠƛǸǭǩƗ ƙǸΣƿ ǯǨǾƛ

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدرت على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيًا عن قائد يقوده في كل خطوة. فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطوه، وإما بصير يهدى إلى أوّل الطريق ثم يهتدى بنفسه، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام، فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوة فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصًا من كتاب الله أو سنَّة رسوله، وربما يعوزه ذلك فيتحير؛ فسير هذا وإن طال عمره وعظم جدّه مختصر وخطاه قاصرة. ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، وهو لشدّة نور باطنه يجتزىء بأدنى بيان، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار؛ فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء، وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أوّلًا بنور البصيرة إلى التوبة ما هي، ثم إلى الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن

معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبًا معنى.

وقول القائل صار واجبا بالإيجاب، حديث محض فإن مالا غرض لنا آجلًا وعاجلًا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به، أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه؟ فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد، وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محاله محول بينه وبين ما يشتهى محترق بنار الفراق ونار الجحيم. وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعًا وعلم أنه لا مقرّب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله طلبًا للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته، وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبًا مبعدًا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة.

ذكر الآيات والأخبار الدالة على وجوب التوبة: منها قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]، وغيرها من الآيات.

وأما الأخبار فهي كثيرة:

ومنه قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إلى الله في اليوم مئة مرة»**(١).

ومنها قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»**(٢).

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»**(٣).

:ƷǸĂǩƚ ÁǪŪ ȠƜΣƚƿ ȠƛǸǭǩƚ ƷǸ ǥ ƷƘǾƛ

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور المتقصى عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه، فإنّ هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل، بل هي من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثًا على عمل فلا يقع التقصي عن عهدته ما لم يصر باعثًا عليه؛ فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثًا لتركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**(٤)، وما أراد به نفى الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فإنّ ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي، وإنما أراد به نفى الإيمان لكون الزنا مبعدًا عن الله تعالى موجبًا للمقت، كما إذا قال الطبيب: هذا سم فلا تتناوله، فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبًا

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه مسلم والطبراني.

(٤) متفق عليه.

وغير مصدّق به، بل المراد أنه غير مصدّق بقوله إنه سم مهلك؛ فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلًا، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابًا واحدًا بل هو نيف وسبعون بابًا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ومثاله قول القائل: ليس الإنسان موجودًا واحدًا بل هو نيف وسبعون موجودًا أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظافر نقي البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها، وهذا مثال مطابق، فالإيمان كالإنسان وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقد الروح، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوع العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح، وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدّها وتقوّيها؛ فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدّمة قدوم ملك الموت ووروده؛ فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة لا ما يسقى بالطاعات على توالى الأيام والساعات حتى رسخ وثبت. وقول العاصي للمطيع إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر: أنا شجرة وأنت شجرة، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف، فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار:

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفَرَسٌ تحتك أم حمارُ

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة، وإنما تقطَّعت نياط العارفين خوفًا من دواعي الموت ومقدّماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون؛ فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالبًا لا يقع فجأة، فيقال له الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت، وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار؛ فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها، إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة، فكذلك المعاصي، فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيًا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية، فمتناول سموم الدين وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم، وفى فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذى تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عُشْر عُشَيرْ مدّته، إذ ليس لمدّته آخر البتة؛ فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملًا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين، ويدخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:٨-١٠]، ولا يغرّنك لفظ الإيمان، فنقول: المراد بالآية الكافر، إذ بيَّن لك أن الإيمان بضع وسبعون بابًا وأن الزاني لا يزنى حين يزنى

وهو مؤمن، فالمحجوب عن الإيمان الذى هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذى هو أصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل؛ فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد: وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعًا يستدعى وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع، ووجود الفرع بالأصل، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثه على العمل فعدمها خير من وجودها، فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها، ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر، كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم.

G ĂDzǽ Êə ğŧǸ ƒ äŧþ ! ƘU ǁ äŧ Ǽə ϙƘŪ ηλǸϘǩŧ ƙǸΣþ ǯƨ ǯƘØλ :ƤǩƘƦǩŧ ʒǸʅǯǩŧ
:ηϘɰǩŧ ɏ ƒ ƨ ǴDzŪ

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، فعمم الخطاب. ونور البصيرة أيضًا يرشد إليه، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان، ولا يتصوّر ذلك إلا من عاقل، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان. إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين. وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على

المكان ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة بحسب مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئًا فشيئًا على التدريج، فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢]، وإن كمل العقل وقوى كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات، ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان، إلى طريق الله تعالى، وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريًّا في حق كل إنسان نبيًّا كان أو غبيًّا فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد قيل:

فلا تحسبنّ هندا لها الغدر وحدها ... سجية نفس كل غانيةٍ هندُ

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدّل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها، فإذن كل مَنَّ بَلغَ كافرًا جاهلًا فعليه التوبة من جهله وكفره، فإذا بلغ مسلمًا تبعًا لأبويه غافلًا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام، فإنه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئًا ما لم يسلم بنفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق والانفكاك والاسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه، وكل هذا رجوع وتوبة، فدل على أنّ التوبة فرض عين في حق كل شخص، ولا يتصوّر أن يستغنى عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم، فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلًا.

وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أنّ كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب؟ فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضدّه والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يتصوّر الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بدّ منه، ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة**»(١) الحديث، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال: ﴿**لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ [الفتح:٢]. وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره؟.

:ηlØşǩŧ ƐĂŧǸUǩŧƥ 5 ΣŧǸĦǩŧ ǰǭ ηƛǸǬǩŧ ğǸ ƒ ƓƛŧǸΣƥ ğƙ Ğ ǁƑ :ŭƛŧƐǩŧ ʒǸƮǮǩŧ

فإن قلت: لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص، وأنّ الكمال في الخلو عنه، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال، وأنّ الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع، والرجوع توبة، ولكن هذه فضائل لا فرائض، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع: فما المراد بقولك: التوبة واجبة في كل حال؟

الجواب: اعلم أنه قد سبق أنّ الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلًا، وليس معنى التوبة تركها فقط، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى، وكل شهوة اتبعها

(١) قال العراقي (الإحياء ٤/ ١١): أخرجه مسلم بلفظ: «إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم والليلة مئة مرة» وكذا عند البخاري وأبي داود.

الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمه إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار رينًا كما يصير بخار النفس في وجهه المرآة عند تراكمه خبثًا كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، فإذا تراكم الرين صار طبعًا فيطبع على قلبه، كالصدأ على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الصدأ، ولا يكفى في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب، كما لا يكفى في ظهور الصور في المرآة قطع الأوساخ المسوّدة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها**»[1]، فإذن لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات؛ هذا في قلب حصل أوّلًا صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة؛ فأما التصقيل الأوّل ففيه يطول الصقل؛ إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة؛ فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلًا، وكل ذلك يرجع إلى التوبة، فأما قولك: إن هذا لا يسمى واجبًا بل هو فضل وطلب كمال، فاعلم أن الواجب له معنيان:

أحدهما: ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية، ثم يؤدى ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية، فإنه مهما

(١) سبق تخريجه.

فسدت المعايش لم يتفرّغ أحد للتقوى، بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار.

والواجب الثاني: هو الذي لا بدّ منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصدّيقين، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبه في الوصول إليه كما يقال: الطهارة واجبة في الصلاة للتطوّع أي لمن يريدها، فإنه لا يتوصل إليه إلا بها. فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوّع فالطهارة ليست واجبه عليه لأجلها، كما يقال العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان، يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانًا كاملًا ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا، فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل، فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة، وأصل النجاة كأصل الحياة، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تنتهى الحياة يجرى مجرى الأعضاء والآلات التي بها تتهيأ الحياة وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل، وعليه كان حرصهم، وحواليه كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية.

ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال: لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقًا أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله؟ وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشدّ، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من

شقاوة الأبد، وأي جواهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانًا مبينًا، وإن صرفتها إلى معصية فقد هلكت هلاكًا فاحشًا فإن كنت لا تبكى على هذه المعصية فذلك لجهلك، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة، فإنّ نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته، وقد رفع الناس عن التدارك.

:ĀϘUǩłƥ yШūǩł ǰØλƥ ǴλЗƥ yШūǩł ǰØλ Ƙǭ ƘǸǲƵ -č

اعلم أنّ الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد.

فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به.

وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير، فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف.

وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركًا فالعفو فيه أرجى وأقرب، وقد جاء في الخبر الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر، وديوان لا يغفر، وديوان لا يترك: فالديوان الذي يغفر: ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى، وأما الديوان الذي لا يغفر: فالشرك بالله تعالى. وأما الديوان الذي لا يترك. فمظالم العباد(١).

أي لا بدْ وأن يطالب بها حتى يعفى عنها.

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم وصححه وفيه صدقه بن موسى ضعَّفه ابن معين، وله شاهد عند الطبراني.

:Ɛhƙǚǅžƥ Ɛhƙɯ g Ǻǩƒ Ǭƾ ǢǲơƙŇǈƶǩƚ -Ď

اعلم أنّ الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها، فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة، وهذا ضعيف إذ قال تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا**﴾ [النساء:٣١]، وقال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ**﴾ [النجم:٣٢]، وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر**»(١)، وفي لفظ آخر: «**كفارات لما بينهن إلا الكبائر**»، وقد قال ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص: «**الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس**»(٢)، واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك.

والتحقيق في تعداد الكبائر أن يقال:

والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها، وإلى ما يعلم إنها معدودة في الصغائر، وإلى ما يشك فيه، فلا يُدرى حكمه، فالطمع في معرفة حدّ حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لم يمكن فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله ﷺ بأن يقول: إني أردت بالكبائر عشرًا أو خمسًا ويفصلها فإن لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ: «**ثلاث من الكبائر**»(٣)، وفي بعضها: «**سبع من الكبائر**»(٤)، ثم ورد: «أن السَّبتَّين بالسَّبَّة الواحدة من الكبائر، وهو خارج عن السبع والثلاث: علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر، فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع؟ وربما قصد الشرع إبهامه

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) يشير إلى حديث: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الشرك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور»، متفق عليه.

(٤) يشير إلى حديث: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات» متفق عليه.

ليكون العباد منه على وجل، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ الناس في طلبها نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق. وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب، ونعرف أيضًا أكبر الكبائر فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته. وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعًا أن مقصد الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، أي ليكونوا عبيد لي. ولا يكون العبد عبدًا ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بدّ أن يعرف نفسه وربه، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا.

والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال، فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه ما يسدّ باب حياة النفوس ويليه باب ما يسدّ المعايش التي بها حياة الناس، فهذه ثلاث مراتب، فحفظ المعرفة على القلوب، والحياة على الأبدان، والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يتصوّر أن تختلف فيها الملل، فلا يجوز أنّ الله تعالى يبعث نبيًّا يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله؛ أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال.

فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب:

الأولى: ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر، إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل، والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة، وقربة بقدر معرفته، وبعده بقدر جهله، ويتلو الجهل الذي يسمى كفرًا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته، فإن هذا أيضًا عين الجهل، فمن عرف الله لم يتصوّر أن يكون آمنًا ولا

أن يكون آيسًا، ويتلو هذه الرتبة: البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشدّ من بعض، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه، ومراتب ذلك لا تنحصر وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن، وإلى ما يعلم أنه لا يدخل؛ وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع.

المرتبة الثانية: النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر، لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود، إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض، ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود.

وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوّش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها، بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحًا في أصل شرع قصد به الإصلاح، وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرّك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى التقاتل وينبغي أن يكون أشدّ من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته.

المرتبة الثالثة: الأموال فإنها معايش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما، بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس، إلا

أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها، نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر، وذلك بأربع طرق:

أحدها: الخفية، وهى السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالبًا كيف يتدارك.

الثاني: أكل مال اليتيم، وهذا أيضًا من الخفية وأعنى به في حق الولي والقيم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف، وبخلاف الخيانة في الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه.

الثالث: تفويتها بشهادة الزور.

الرابع: أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلًا، وبعضها أشدّ من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس. وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها.

وأما أكل الربا فليس إلا أكل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله، وإذا لم يجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغيره رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع، وإن عظم الشرع الزنا بالزجر عنه فقد عظم أيضًا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة، والمصير إلى أنّ أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر، وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظنّ إلى انه غير داخل تحت الكبائر، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريًّا في الدين.

:ŋƛǸǭǩƗ ǫƗþY Æə YǨƜūǩƗ ǫǨʂ āȩ ǯǨØƛ : 5 ǭǨUǩƗ ǯǸȚǯǩƗ

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات:

الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبه النبوّة، فهذه هي الاستقامة على التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة: التوبة النصوح. واسم هذه النفس الساكنة: النفس المطمئنة، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافًا**»[1]. فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم.

وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات. فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه مُلِيَ بمجاهدتها وردها، ثم تتفاوت درجات النزاع أيضًا، بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع. وكذلك يختلفون من حيث طول العمر، فمن مختطف يموت قريبًا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة؛ ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته. وحال هذا أعلى وأفضل إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة.

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها، إلا انه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجارى أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم

(١) أخرجه الترمذى وحسنه.

عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرّضه لها.

وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد، وهذه أيضًا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهى أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينه الآدمي قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعية أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد. وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ** ﴾ [النجم:٣٢]، فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ** ﴾ [آل عمران:١٣٥]، فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه. وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فيما رواه عنه علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**خياركم كل مفتن تواب**»(١)، أي يذنب الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين. ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارّة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار، وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتورة عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة. وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه. بل الفقيه في الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»(٢)،

(١) صححه السيوطي في الجامع الصغير رقم: (٣٩٩٦).

(٢) رواه الترمذي والحاكم وصحح إسناده، وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث علي سعدة عن قتادة.

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [القصص:٥٤].

فما وصفهم بعدم السيئة أصلًا.

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمرّ على الاستقامة مدّة، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو اقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها، هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتبنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى في قهرها، لكنه تسوّل نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويومًا بعد يوم. فهذه النفس هي التي تسمى: النفس المسوّلة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة:١٠٢]، فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجوّ فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يُختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين.

وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل، لأنه مهما تعذر على المتفقة مثلًا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين. فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه

النفس، فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدّم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقُّيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرًا بطول التزكية والتطهير، هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب.

ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾ [الشمس:٧-١٠]، فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقدًا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان. قال ﷺ: «**إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»[١]، فإذن الخوف من الخاتمة قبل التوبة. وكلُّ نَفَسٍ فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلًا به، فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أنّ يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصرِّين، وهذه النفس: هي النفس الأمارة بالسوء، الفرارة من الخير؛ ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره في مشيئة الله، فإن ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها؛ وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفيٍّ لا تطلع عليه، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خرابًا ليجد كنزا فيتفق أن يجده، وأن يجلس في البيت ليجعله الله عالمًا بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم.

---

(١) متفق عليه دون قوله: «سبعين سنة»، ولمسلم: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة»... الحديث، ولأحمد: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة».

فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرّد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة، وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له، فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم.

وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعًا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزًا يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعدّ عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين– وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله – فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصِّرٌ عن الطاعة مصرٌ على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعدّ عند أرباب القلوب من المعتوهين. والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول: إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلى ومعصيتي ليست تضره، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول: ما هذا الهوس؟ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب. وهكذا قدّره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله، ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأنّ سنته لا تبديل لها فيهما جميعًا، وأنه قد أخبر إذ قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩]، فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا؟ وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم، وأنّ ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير

جهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدّة الاجتهاد في غالب الأمر في الـدنيا؟ وينسى قولـه تعـالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات:٢٢]، فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهـل وصاحب هـذا جدير بأن يكون داخلًا تحت قولـه تعـالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ [السجدة:١٢]، أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرور إلى سوء المنقلب والمآب.

:ηǩǨƮǭ ȅ ηǩǸǗǕǭ ǼǶə ǨǶĂƿƩ ǁ ƠǖƷ ƪ ƣƽƗ ƗƵƑ ηƛǸƣǩƗ ƷƎ ƷǨǾƛ Ǽə : Ƨ ƳǨƾǩƗ ƷǸƮƷǩƗ

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى، ومستعدّ لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى، وعلموا أن القلب خلق سليمًا في الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول، كما أنّ كل ثوب نظيف فهو مقبول فإنما عليك التزكية والتطهير.

وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له، وهو المسمى فلاحًا في قوله: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٩]،ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أنّ القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثراً متضادًا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل، ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم، وأنّ بين النور والظلمة تضادًا ضروريًّا لا يتصور الجمع بينهما، فكأنه لم يتلق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى به قلبه، إذ بقلبه يعرف غير قلبه، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه، فمن يتوهم أنّ التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أنّ الشمس تطلع والظلام لا يزول، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه، فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعًا ورينًا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب، نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلًا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به، فهذا حال امتناع أصل التوبة، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية، فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به، وقد قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورى:٢٥]، وقال تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ [غافر:٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأحاديث: قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**لله أفرح بتوبة أحدكم..**» الحديث، والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة. وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **يبسط يده**

بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[(١)]، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل، فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم**»[(٢)].

ويروى أن الله عَزَّوَجَلَّ لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: «**وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح**»[(٣)].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واتبع السيئة الحسنة تمحها**»، والأخبار في هذا لا تحصى.

وأما الآثار: فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا**﴾ [الإسراء:٢٥]، في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

وقال الفضيل: قال الله تعالى: بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصدّيقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم.

وقال طلق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: من ذكر خطيئة ألمَّ بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب.

---

(١) رواه مسلم وهو حديث الباب.

(٢) أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن ولفظه: «لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم»، من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد.

وقال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادمًا حتى يدخل الجنة فيقول إبليس ليتني لم أوقعه في الذنب.

وقال حبيب بن ثابت: تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول: أما إني قد كنت مشفقًا منه؛: فيغفر له.

ويروى أن رجلًا سأل ابن مسعود عن ذنب ألمَّ به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان؛ فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكًا موكلًا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس.

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم: تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالًا، ولقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام.

وقال عبد الله بن سلام: لا أحدّثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنبًا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين.

قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: اجلسوا إلى التوّابين فإنهم أرق أفئدة.

وقال بعضهم: أنا أعلم متى يغفر الله لي. قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب عليَّ.

وقال آخر: أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة، أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة.

ويروى أنه كان في بنى إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال: إلهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني فسمع قائلًا يقول ولا يرى شخصًا أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك.

وقال ذو النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن لله عبادًا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندمًا وحزنًا فجُنُّوا من غير جنون وتبلَّدوا من غير عِيٍّ ولا بكم، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولَّهت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم، وخاضوا في بحر الحياة، وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى؛ حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة، وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة؛ حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة، فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة.

:ĜλĦÑΣþ ğ‖ Ğ ‖F

فإن قلت: أفتقول ما قالته المعتزلة من أنّ قبول التوبة واجب على الله؟ فأقول: لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله: إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ، وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش، وأنه إذا منع الماء مدّة وجب العطش، وأنه إذا دام العطش وجب الموت، وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى، بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية، والحسنة ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلًا للعطش والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة، فلا واجب على الله تعالى، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة.

ĠλłǸΣƿ ƐƱƋ ğǨ Ğ ǁƑ:

فإن قلت: فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته، والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه؟ فأقول شكه في القبول كشكه في وجود شرائط الصحة، فإنّ للتوبة أركانًا وشروطًا دقيقة كما سيأتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للإسهال فإنه هل يسهل وذلك لشكه في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته، فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى.

ǨǶƻǭ ŋλǸǭǩł ł ΣǸơ ǼǭǩłǨǸǲƶǩł ǫǨşāǫ Ɛ ǥ Ƶ :ŭλǨşǩł ʒǸƮǮǩł:

اعلم أنّ للإنسان أوصافًا وأخلاقًا كثيرة وقد شرحناها في الإحياء[1] ولكن تنحصر مسارات الذنوب في أربع صفات: صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية وصفات، سبعية. وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة، فاقتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثرًا من الآثار كما يقتضي السكر والخل والزعفران في السكنجبين آثارًا مختلفة.

فأما ما يقتضي النزوع إلى الصفات الربوبية: فمثل الكبر والفخر وحب المدح والثناء والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدْوها ذنوبًا وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات.

الثانية: هي الصفة الشيطانية: التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال.

---

(١) الإحياء المجلد الرابع.

الثالثة الصفة البهيمية: ومنها يتشعب الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزنا واللوط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة الصفة السبعية: ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال، ويتفرع عنها جمل من الذنوب.

وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة فالصفة البهيمية هي التي تغلب أوّلًا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيًا ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهى الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق.

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها على العين والسمع، وبعضها على اللسان، وبعضها على البطن والفرج، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح[١].

❁ ❁ ❁

(١) هذا ما تيسر جمعه من كلام الغزالي في مباحث التوبة وبقي الشيء الكثير مما له علاقة بالتوبة ومن أراد المزيد عليه الرجوع إلى الإحياء الجزء الرابع.

الحديث الرابع

Ákǩūơ Ȏ ł ÁǗ Ǩǥ Ńqǩł ǨŃǰ

عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: قال رسول اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»؛ رواه الترمذي وقال حديث حسن.

Pǽy Ţǩł ţ Ɛ‖[1]:

أولًا: الحديثُ يفيدُ وجوبَ التوكَّلِ على الله في طلبِ الرِّزقِ:

قال الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ: وهذا فرضٌ لازم للعبد التوكل في موضع الرزق، وهو المقصود مِنْ هذا الفضلِ، فموضعُ التوكُّل إذنْ هُو الرزق وهوَ الرزق المضمون فيما قال العُلماءُ بالله، وإنما يتضحُ لك هذا ببيان أقسام الرزق.

فاعلم أن الرزقُ أربعة أقسامٍ: مضمونٌ، ومقسومٌ، ومملوكُ وموعود.

فالمضمونُ هُو الغذاءُ وما به قوام البنية دون سائر الأسباب، فالضمانُ مِنَ الله تعالى لِهذا النَّوْع، والتوكُلُ يجب بإزائهِ بدليل العقلِ والشرع، لأن الله تعالى كلفنا خِدْمتهُ وطاعتهُ بأبداننا، فضمن ما يسدُّ خلل البنية لنقومُ بها كلَّفنا.

وأما الرزق المقسومُ: فهُو ما قسمهُ الله سبحانه وكتبهُ في اللوح المحفوظ، ما يأكلُهُ ويشربُهُ ويلبسهُ كلُّ واحد بمقدار ووقت مُؤقت، لا يزيدُ ولا ينقصُ، ولا يتقدَّمُ ولا يتأخرُ عما كُتب بعينهِ.

---

(١) شرح الحديث مأخوذ من كتاب (منهاج العابدين) (ص٢٠٠) وما بعدها.

وأمَّا المملُوكُ: فما يملكهُ كُلُّ واحدٍ مِنْ أموال الدُّنْيا على حسب ما قدَّر الله تعالى وقسم لهُ أن يملكــهُ وهُــو مِن رزْقِ الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة:٢٥٤]. أي مِمَّا ملكناكم.

وأما الموعُودُ: فهُو ما وعد الله المتقين من عباده بشرط التقوى حلالًا مِنْ غير كدّ، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

فهذه أقسامُ الرِّزْق، والتوكلُ إنما يجبُ بإزاء المضمونِ منها، فاعلمْ ذلك.

ثانيًا: مفهوم التوكل وحقيقته وعلاقته بالرزق:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنْ قُلتَ: فأخبرنا ما حقيقة التوكل وحكمهُ وما يلزم العبد فيه من أمر الرزق؟.

فاعلم أنهُ يتبين لك هذا في أربعةِ فصول: بيانِ لفظة التوكُلِ وموضعه، وحده، وحِصْنهِ.

فأما اللفظة: فإنما هي تَوَكلٌ تفعُلٌ من الوكالة، فالمتوكل على أحدٍ هُو الذي يتخذهُ بمنزلة الوكيل القائم بأمره، الضامِنِ لإصلاحه، الكافي لهُ مِنْ غير تكلُّفٍ واهتمام، فهذه جُملته.

وأما الموضعُ فأعلم أنَّ التوكُّل اسم مُطلقٌ في ثلاثة مواضعَ:

أحدُها: في موضعِ القسمَة، وهي الثقة بالله تعالى، بأنه لا يفوتك ما قُسمَ لك فإنَّ حُكمهُ لا يتبدل، وهذا واجبٌ بالسمع.

والثاني: في موضع النُّصرة، وهو الاعتمادُ والْوثاقةُ بنصر الله عَزَّوَجَلَّ لك إذا نصرتُه وجاهدت، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِن

تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ [محمد:٧]، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧]، وهذا واجبٌ بالوعدِ.

والثالث: في موضع الرزق والحاجةِ، بأنَّ الله تعالى متكفل بما يُقيمُ بنيتك لخدمته، وتتمكن به مِنْ عبادته، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣].

وقال الصادقُ الأمينُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**».

وأما حدُّ التَّوكُّلِ: فقد قال بعضُ شُيوخنا: إنهُ اتكالُ القلب إلى الله بالانقطاع إليه واليأس عما دونهُ. وقال بعضهمُ: حفظ القلب إلى الله بموضعِ المصلحة، بترك تعليقه على شيءٍ دُونهُ.

قال الشيخ أبو عُمَرَ رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: التوكلُ تركُ التعليقُ، والتعليقُ ذكرُ قوام بنيتك بشيءٍ دُونَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

قال شيخي الإمامُ رَحِمَهُٱللَّهُ: التوَكُلُ والتعليقُ ذكران، فالتوكلُ هو ذكرُ قوام بنيتك مِنْ قبل الله تعالى، والتعليقُ ذكرُ قوامها عمنْ دُون الله تعالى.

والأقاويلُ عندي ترجعُ إلى أصلٍ واحدٍ، وهُو أنْ توطن نفسك على أنَّ قوام بنيتك وسدَّ خلتِكَ وكفايتك إنما هُو مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ لا من احدٍ دُون الله، ولا بحطام من الدنيا، ولا بسبب من الأسباب، ثُمَّ الله تعالى إنْ شاء سَبَّبَ له مخلوقًا أو حُطامًا، وإنْ شاء كفاه بقدرته دُون الأسباب والوسائط، وإذا ذكرت ذلك بقلبك وتوطنت عليه فانقطع القلبُ عن المخلوقين والأسباب بمرةٍ إلى الله سبحانه وحدهُ، فقد حصل التوكُّل حقهُ، فهذا حدُّهُ.

---

(١) أراد به محمد بن إبراهيم الزجاجي وهو أحد الصالحين جاور بمكة سنين كثيرة ومات بها، صحب الجنيد والثوري والخواص ورويما، توفي سنة (٣٤٨) هـ.

ثالثًا: هل يجب طلب الرزق وعلاقة الأسباب بالرزق المضمون:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن قيلَ: فهل يلزم العبد الرزق بحالٍ؟

فأعلم أنّ الرزق المضمُونَ الذي هو الغذاء والقوامُ لا يمكننا طلبهُ إذ هو شيءٌ من فعل الله سبحانه بالعبد، كالحياة والموت، لا يقدر العبدُ على تحصيله ولا دفعه.

وأما المقسوم مِنَ الأسباب فلا يلزم العبدَ طلبُهُ، إذْ لا حاجة للعبد إلى ذلك، وإنما حاجتهُ إلى المضمون، وهُو مِنَ الله تعالى، وفي ضمان الله.

وأما قولُهُ تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠]، فالمراد به العلمُ والثوابُ، وقيلَ: هو رُخصةٌ، إذ هو أمر واردٌ بعدَ الحظر، فيكونُ بمعنى الإباحةِ، لا بمعنى الإيجاب والإلزام.

فإنْ قِيل: لكنْ لهذا الرزق المضمون أسباب، فهل يلزمنا طلبُ الأسبابِ؟

قيل له: لا يلزمك ذلك، إذ لا حاجة للعبد إليه، إذ الله سبحانه يفعلُ بسبب وبغير سبب، فمن أين يلزمنا طلبُ السبب؟ ثُم إنَّ الله تعالى ضمن لك ضمانًا مُطلقًا مِنْ غَير شرط الطلب والكسب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]. ثُم كيف يصحُّ أنْ يأمُرَ العبد بطلب ما لا يعرفُ مكانَه فيطلبهُ إذ لا يعرف أيَّ سبب منها رِزْقُهُ الذي يتناولهُ لا غيرُ، والذي يصيرُ سبب غذائه وتربيته لا غير، فالواحد منا يعرف ذلك السبب بعينه ومِنْ أين يحصُل لهُ فلا يصحُّ تكليفهُ، فتأمل راشدًا، فإنه بينٌ.

ثُم حسبُكَ أن الأنبياء، صلوات الله عليهم، والأولياء المُتوكلينَ، لم يطلبوا رزقًا في الأكثر والأعم، وتجردُوا للعبادة، وبالإجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله تعالى، ولا عاصين له تعالى في ذلك، فتبين لك أنَّ طلب الرِّزق وأسبابه ليس بأمر لازم للعبد.

رابعًا: علاقة زيادة الرزق بالطلب وعدمه:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن قلت: هل يزيدُ الرزقُ بالطلب وهل ينقصُ بترك الطلب؟

فكلا، فإنه مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، مُقدر ومُؤقت، ولا تبديل لحكم الله، ولا تغيير لقسمتهِ وكتابتهِ.

هذا هو الصحيح عند عُلمائنا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، خلاف ما ذهب إليه بعض أصحاب حاتمٍ وشقيقٍ،

قالوا: إنّ الرزق لا يزيدُ ولا ينقصُ بفعل العبد، لكن المالُ يزيدُ وينقصُ وهذا فاسدٌ، لأن الدليلَ في الموضعين واحد، وهو الكتابة والقسمة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد:٢٣]، ولو كان الطلبُ يزيدُ والتركُ ينقصُ، لكان لِلأسى والفرح موضعٌ إذ هُو قصر وتواني، حتى فاته، وجدَّ وشمر حتى حصلهُ، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للسائل: «**هاكَ لَوْ لَمْ تأتِهَا لأتَتْكَ**»(١).

خامسًا: إشكالٌ وجوابهُ: حَولَ ما هو مكتوبٌ في اللوّحِ المحفوظِ مِن طلبِ الثوابِ وطلبِ الرزقِ:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنْ قيل: فالثوابُ والعقابُ أيضًا مكتوبُ في اللوح المحفوظِ، ثُمَّ يلزمنا طلبهُ ويزيدُ بالطلبِ وينقصُ بتركه.

فاعلمْ: أن طلب الثوابِ إنَّما وجب لأن الله تعالى أمر به أمرًا حتمًا وأوعدَ على تركه ولم يضمنِ الثوابَ على غير فعلٍ منَّا، فزيادةُ الثّواب والعقاب بفعل الْعبدِ، فالفرق بينهما في نُكْتَةٍ وهي ما قالهُ بعضُ عُلمائنا: إنَّ المكتوبَ في اللوح المحفوظ قسمانِ:

---

(١) قال العراقي في: «خرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هزيل بن شراحيل، ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح».

قسمٌ هو مكتوبٌ مطلقًا مِنْ غير شرطٍ وتعليقٍ بفعلِ العبد، وهوَ الأرزاق والآجالُ، ألا ترى كيفَ ذكرهُما الله مطلقًا غير مشروطٍ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩]. وقال صاحبُ الشرعِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَرْبعةٌ قَدْ فُرغَ مِنهُنَّ: الْخلقُ، والخُلُقُ، والرِّزْقُ، والأجلُ»(١).

وقسمٌ مكتوبٌ بشرطٍ مُعلق، مشرُوط بفعلِ العبد. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة:٦٥]، وهذا بيّن فاعلمه.

سادسًا: شبهات حول الآيات والأحاديث والآثار المتعلقة بالرزق والجواب عنْها:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنْ قُلتَ: أليس الله تعالى يقُولُ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

فاعلم أنَّ فيه قوْليْنِ:

أحدُهُما: أنهُ زادُ الآخرةِ، ولذلك قال: خيرُ الزاد التقوى، ولم يقُل حُطامُ الدُّنيا وأسبابها.

والثاني: أنهُ قومٌ لا يأخُذون زادًا في طريق الحجِّ لأنفُسهم اتكالًا على النَّاس، ويسألُونَ ويُلحُون ويؤذون الناس، فأُمروا بالزاد أمر تنبيه، على أنّ أخذ الزاد مِنْ مالك خيرٌ مِنْ أخذ مال الناس والإتكال عليهم، وكذلك تقولُ.

فإنْ قُلت: فالمتوكلُ هلْ يحملُ الزاد في الأسفارِ؟

---

(١) أورده السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ١٧٢) حديث رقم (٥٨٩٨) بلفظ: «فرغ إلى ابن آدم من أربع: الخَلق والخُلُق والرزق والأجل»، ونسبه إلى الطبراني في معجمه الأوسط عن ابن مسعود ورمز لصحته.

فاعلم: أنهُ رُبما يحملُ الزاد ولا يُعلقُ القلب به بأنه لا محالة رِزقهُ، وفيه قوامهُ، إنما يعلقُ القلب بالله تعالى ويتوكلُ عليه ويقولُ: إنّ الرِّزق مقسومٌ مفروغٌ منهُ والله تعالى إنْ شاء أقام بنيتي بهذا أو بغيره، ورُبما يحملُ بنية أُخرى، بأن يُعين مسلمًا أو نحو ذلك، وليس الشأنُ في أخذ الزّاد وتركه، إنّما الشأنُ في القلب، لا تُعلِّق قلبك إلا بوعد الله تعالى وحُسن كفايته وضمانه، فكم من حامل للزاد وقلبهُ مع الله تعالى دُون الزاد، وكم مِنْ تاركٍ وقلبهُ مع الزاد دون الله تعالى، فالشأنُ إذن في القلب، فافهم هذه الأصُولَ تُكف المؤنة إن شاء الله تعالى.

فإنْ قيلَ: فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحملُ الزاد، وكذلك أصحابهُ والسلفُ الصالحُ.

يقالُ لهُ: لا جرم أنَّ ذلك مباح غير حرام إنما الحرامُ تعليقُ القلبِ بالزاد، وتركُ التوكُّل على الله سبحانُه فافهم ذلك.

ثُمَّ ما ظنك برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيثُ قال الله تعالى لهُ: ﴿ **وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان:٥٨]، أعصاهُ في ذلك وعلق قلبهُ بطعام أو شراب أو درهمٍ أو دينار؟ كلا وحاشا أنْ يكُون ذلك، بل كان قلبهُ مع الله تعالى، وتوكُّلُهُ على الله تعالى، فإنه الذي لمْ يلتفتْ إلى الدُّنْيا بأسرها ولم يُمدَّ يدهُ إلى مفاتيح خزائن الأرض كُلها وإنَّما كان أخذُ الزاد منهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومِنَ السلف الصالح لِنيات الخيرِ لا لمِيْلِ قُلُوبهم عن الله تعالى إلى الزَّاد، والمعتبر القصد على ما أعلمْناكَ فانتبه مِنْ رقْدَتِكَ.

سابعًا: كيف ينجو العبد من هم الرزق؟

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثم إنّ أعضلها وأعظمها(١) أمر هذا الرزق وتدبيرهُ، فإنَّهُ البليةُ الكبرى لِعامة الخلق، أتعبت نفوسهم، وشغلت قُلُوبُهُم، وأكثرت هُمومهم، وضيعت أعمارهم، وأعظمت تبعاتهم وأوزارهم، وعدلت بهم عنِ الله تعالى وخدمته إلى خدمة الدُّنيا وخدمة

(١) أي أصعب العقبات التي تحول بين العبد وبين إصلاح آخرته والوصول إلى الجنة هو هم الرزق.

المخلُوقينَ، فعاشوا في الدُّنيا في ظُلمةٍ وغفلةٍ وتعبٍ ونصبٍ، ومهانةٍ وذُلٍ، وقدمُوا الآخرة مفاليس، بين أيديهمُ الحسابُ والعذابُ، إن لم يرحم الله تعالى بفضله؛ فانظر كم من آية أَنزلَ الله تعالى في ذلك، وكمْ ذكر مِنْ وعده وضمانه وقسمهِ على ذلك. ولم تَزَلِ الأنبياءُ والعُلماءُ يعظُون الناسَ ويبينون لهم الطريق ويُصنفُونَ لهم الكُتُبَ ويضربُونَ لَهُمُ الأمثال ويُخوفُونهم بالله تعالى، وهم مع ذلك لا يهتدُون ولا يتقون ولا يطمئنونَ، بل هم في غمرةٍ مِنْ ذلك لا يزالونَ يخافُونَ أَنْ يفُوتهُمْ غداءٌ أو عشاءٌ.

فتأمل أيها الرَّجُل إذا حبس اللهُ عنك رغيفًا أو درهمًا فتعلم يقينًا أَنَّهُ ما تُريدُ، ويقدرُ على إيصاله إليك، وله الجُودُ والفضْلُ، ويعلم حالك فلا يخفى عليه شيءٌ، فلا عُـدْم ولا عجز ولا خفاء، تعالى عَنْ ذلك وتقدَّس، فإنهُ أغنى الأغنياءِ وأقدرُ القادرينَ، وأعلمُ العُلماء، وأجودُ الأجودينَ؛ فتعلم إذنْ بالحقيقة أنهُ لم يمنعك إلاّ لصلاحٍ واختيار لك، كيف وهُـو الـذِي يقول: ﴿**خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ [البقرة:٢٩]. كيف وهو الذي جاد عليك بمعرفته، وهي التي تتلاشى في جنبها الدُّنيا بأسرها.

وفي الخبر المشهور: إنَّ الله سبحانه يقولُ: «إني لأذودُ أوليَائي عَنْ نَعِيم الدُّنيا كما يذودُ الرَّاعي الشَّفيقُ إبله عن مبارك العِرَّةِ»[(١)]، وفي الحديث الآخر: «إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا التي كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه»[(٢)].

وإذا ابتلاك بشدة فاعلم يقينًا أَنَّهُ غنيٌّ عَنِ ابتلائك وامتحانك، عالمٌ بحالك، بصيرٌ بضعفكَ، وهُو رؤُفٌ رحيمٌ؛ أما تسمعُ قولهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**للهُ أرحُم بعبده المُؤمن مِنَ الوالدة الشفيقة بولدها**»[(٣)].

---

(١) قال العراقي في سراج الطالبين: وهذا الخبر أورده أبو نعيم في الحلية ومكي ابن أبي طالب في قوت القلوب طويلًا عن وهب بن منبه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الزهد.

(٣) أخرجه أحمد والحاكم وصححه والترمذي وحسنه.

فإذا علمت هذا علمْتَ أَنَّهُ لم ينزل بِك هذا المكروه إلا لصلاح لك جهلتهُ أنت وهُو عالم بذلك؛ ولهذا تراه يُكثرُ ابتلاءَ أنبيائه وأصفيائه، الذين هم أعزُ عبادِهِ حتى يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أحب اللهُ قومًا ابتلاهُم**»، ويقُولُ: «**أشدُ الناس بلاءٍ الأنبياءُ ثُمَّ الشهداءُ ثُمَّ الأمثلُ فالأمثلُ**»، وإذا رأيت الله يحبسُ عنك الدُّنيا، أو يكثرُ عليك الشدائد والبلوى، فاعلم أنك عنده عزيزٌ، وأنك عندهُ بمكانٍ عليّ، وأنَّهُ يسلُكُ بك طريقَ أوليائهِ، فإنه يراك ولا يحتاجُ إلى ذلك. أما تسمع قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

بل أعرف مِنَّتَهُ عليك فيما يحفظُ عليك مِنْ صلاحكَ، ويكثرُ مِنْ أجرك وثوابكَ، ويُنزلُك منازل الأبرار والأعزة عندهُ فكم ترى مِنْ عواقبَ حميدةٍ، ومواهبَ كريمةٍ، واللهُ وليُّ التوفيقِ بمنِّه وفضلِهِ.

❁❁❁

الحديث الخامس

ƊƘ ă Ū̄ ŭ5ƿȿƿ ƸǾƱ ƸШdžǩł

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ سعدِ بن مالكٍ بن سنان الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ: رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ**»(١). متفق عليه.

PǽyƮǩł ţƸ‖ (٢):

للغزالي مع هذا الحديث وقفات عديدة.

:ƸШdžǩł ηǢǾǢ ƒ ǯƘǾƛ :ǺǩƿäƗ ηǞȧǸǩł

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن قلتَ فما حقيقة الصبر وحكمه؟

فاعلم أنَّ الصبرَ مِنْ طريق اللغة الحبْسُ، قال الله تعالى: ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم**﴾ [الكهف:٢٨]، أي احبس نفسكَ معهم، وإنما يوصفُ اللهُ تعالى بالصبر على معنى حبسه العذاب عن المجرمين فلا يُعاجلُهم به ثُمَّ المعنى الذي هُو مِنْ مساعي القلب سُمي صبرًا لأنهُ حبسُ النفس عن الجزع، والجزعُ فيما قالهُ العلماءُ ذكرُ اضطرابك في الشدةِ وقيلَ بل إرادةُ الخروج عن الشدة بالحكم والصبرُ تركهُ، وحصنُ الصبر ذكرُ مقدار الشدة ووقتها، وأنها لا تزيد ولا تنقص لا تتقدَّمُ ولا تتأخر، ولا فائدة في الجزع، بل فيه الضررُ والخطرُ. وحصنُ هذا الحِصنِ ذكرت حُسنِ عِوَضِ الله تعالى عليه، وكريمِ الذُّخرِ في ذلك لديه؛ فهذه هذه وبالله التوفيق.

---

(١) مناسبة الحدبث قال أبو سعيد الخدري: أنَّ ناسًا سألوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطاهُمْ، ثم سألوا فأعطاهم حتى نَفِدَ ما عنده، فقال لهم حينَ أنفق كلَّ شي بيَدِهِ: «ما يكن عندي مِن خيرٍ فلنْ أدَّخِر عنكم، ومَنْ يستعففْ يُعُفه اللهُ ومَنْ يستغنِ يُغنْه الله، ومن يتصَّبر يصبره الله، و ما أعطى أحد...».

(٢) شرح الحديث من منهاج العابدين (٢٢٠-٢٢٤) والإحياء.

:ĐĶǾ ‖ ǫ ĶHĐzǾШơ ƐШdžǩł Ǻǩƒ ǰǭƐƷǩł η Σ ĸ ƒ :ηǾĐĶŖǩł ηǞāǸǩł

أحدُها: أنهُ لا عبادة إلا في نفسِها مشقةٌ، ولذلك ورد كل هذا الترغيب فيه، ووعد الثوابُ عليه، إذ لا يتأتى فعلُ العبادة إلا بقمعِ الهوى وقهر النفس، إذْ هي زاجرة عن الخير والرشد؛ ومخالفةُ الهوى وقهر النفسِ مِنْ أَشدِّ الأمور على الإنسان.

وثانيها: أن العبد إذا فعل الخير مع المشقة، لزمهُ الاحتياط لهُ حتى لا يفسد عليه، والإبقاءُ على العمل أشدُّ مِنَ العملِ.

وثالثها: أن الدار دارُ محنةٍ؛ فمنْ كان فيها لابُدَّ لهُ مِنَ الابتلاءِ بشدائدها ومصائبها، وذلك أقسامٌ: المُصيبةُ في الأهل والقربات والإخوان والأصحابِ بالموتِ والفقد والفراق؛ وفي النفس بأنواع الأمراضِ والأوجاعِ، وفي العرض بقتال الناس إياهُ والطمع فيه والازدراء به والغيبة له والكذب عليهِ؛ وفي المالِ بالذهابِ والزوال. ولكلِّ واحدةٍ مِنْ هذه المصائب لدغةٌ وحُرْقةٌ مِنْ نوع آخر، فيحتاج إلى الصبر عليها كُلها، وإلا فيمنعهُ الجزعُ والتلهُفُ مِنَ التفرُّغ للعِبادَةِ.

ورابعها: أنَّ طالب الآخرة أشدُّ ابتلاءً وأكثر محنة أبداً، ومن كان إلى الله أقربُ فالمصائبُ له في الدنيا أكثرُ، والبلاء عليه أشدُّ. أما تسمعُ قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ ثُمَّ الشهداء ثُمَّ الأمثلُ فالأمثلُ**»(١).

وللاستدلال على تلك الأربع من كتاب الله تعالى يقول الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولقدْ أعلمنا الله تعالى بالْتِقاءِ المحنِ والمصائبِ وابتلائنا بها، وحقق ذلك وأكده فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران:١٨٦].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١٤٩) كتاب الطب ولفظه: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأول فالأول»، رواه أحمد والحاكم والترمذي وغيرهم وليس في روايتهم لفظ: «ثم الشهداء»، بل «ثم الصالحون» عند بعضهم.

ثُمَّ قال سبحانه: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، فكأنه يقول: وطنوا أنفسكم على أنه لا بُدَّ لكُم مِنْ أنواع البلايا، فإنْ تصبروا فأنتُم الرجالُ وعزائمُكُمْ عزائمُ الرجال؛ فإذنْ مَنْ عزم على عبادة الله تعالى يجبُ أولًا أنْ يعزم على الصبر الطويل، ويوطنَ نفسهُ على احتمال المشاقِّ العظيمة المتوالية إلى الموت، وإلا فقد قصد الأمر بغير آلته وأتاهُ مِنْ غير وجههِ.

ğǸÆá :ƝƩ ǂ Ǖ Æǵƿ ƝƩƱøƚƿ ƘǾǅyǩƚ Æǝ ǴǪƜƘǊǝƿ ƩǕdžƚ yƜƚǸǝ ǯƘǾƛ :ƞƦǩƘƦǩƚ ƞǞāǸǩƚ

:ƘƜǅƘǾƛ Æǝ رَحِمَهُ ٱللَّهُ Æǩƚƺǔǩƚ

من ذلك النجاةُ والنجاحُ: بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، معناهُ: ومَنْ يتق الله بالصبرِ يجعل لهُ مخرجًا مِنَ الشدائدِ.

ومنها الظفرُ على الأعداء: قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

ومنها الظفر بالمراد: قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقيلَ: كتب يوسف في جواب يعقوب عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ إنّ آباءَكَ صبروا فظفروا، فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

وقيل في هذا المعنى [البسيط]:

لاتَيْأسَنَّ وإنْ طالتْ مُطالبةٌ ... إذا استعنتَ بصَبْر أنْ ترى فرجا

أخْلِقْ بذي الصَّبرِ أنْ يحْظَى بحاجَتِهِ ... وَمُدْمِنُ القَرْعِ للأبوابِ أنْ يلجَا

ومنها التقدم على النّاسِ والإمامة: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾ [السجدة:٢٤].

ومنها الثناءُ مِنَ الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص:٤٤].

ومنها البشارة والصلاة والرحمة: قـال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]، إلى قولــه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ [البقرة:١٥٧].

ومنها المحبة مِنَ اللهِ تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦].

ومنها الدرجات العلى في الجنة: قـال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان:٧٥].

ومنها الكرامة العظيمةُ قال الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد:٢٤].

ومنها ثوابٌ بلا غَاية ولا نهايةٍ، خارجًا عَنْ الخَلْقِ وأعْدَادِهِمْ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر:١٠].

:ǴǮ Ǧ ƒ ʒƙɰqǕƙƛp Ƹʂ ǖƙɫp Ƹʂ Øƙɫ ʒƙɰqǕƙƛ Ƹɰdžƙɫ ǫƙʂ ǡȣ :ŋǖƛɫƸƙɫ ŋǞǡŇƙɫ

وينقسم الصبر أيضًا باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرًا، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر. وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧]، ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره، فإنّ الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر. ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين. فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين. ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا فالرضا أعلى من الصبر، ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير**»(١).

(١) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس.

وقال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاثة مقامات:

أولها: ترك الشهوة وهذه درجة التائبين.

وثانيها: الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين.

وثالثها: المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين.

واعلم أنّ الصبر أيضًا ينقسم باعتبار حكمه: إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم. فالصبر عن المحظورات فرض. وعلى المكاره نفل. والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكنًا وكمن يقصد حريمة بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهاره الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم. والصبر المكروه هو الصبر على أذىً يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر؛ فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أنّ يخيل إليك أنّ جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة.

:ǳŁǸĦǽƿ yǕǖǩł ǴǕƮǽ Ƙǭ ǺǫǕ ƐǕǆǩł ƙǸƩƿ ǯƘǾƛ :η ʂǭƘƲǩł ηǞāǸǩł

ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا؛ وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق. وقال سهل الصبر على العافية أشدّ من الصبر على البلاء ولما فُتحت أبواب الدنيا على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قالوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ** ﴾ [المنافقون:٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ**

﴿ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن:١٤]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الولد مبخلة مجبنة محزنة**»(١). ولما نظر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى ولده الحسن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال: «صدق الله ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن:١٥]، إني لما رأيت ابني يتعثَّر لم أملك نفسي أن أخذته»(٢)، ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار.

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق وفي بدنه ببذل المعونة للخلق وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر – كما سيأتي – وإنما كان الصبر على السراء أشدّ لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر، والصبر على الحجامة والقصد اذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك؛ والجائع عند غيبة الطعام اقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء.

:ŭǕ ă ƙłƿ ǹŃĦƙł Āəłŉǽ è ƙǭ ǺǫŨ Ƹǖdžƙł ƙŃΣƿ :η ƽ Yƙ ʂƙł ηÃāŃƙł

وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب. أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان:

---

(١) رواه أحمد، قال المنذري: أحد رواة إسناد أحمد ثقات، وقال السيوطي: إسناده صحيح وحسنه الدمياطي في المتجر الرابح.

(٢) أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا: الحسن والحسين، وقال الترمذي: حسن غريب.

الضرب الأول: الطاعة: والعبد يحتاج إلى الصبر عليها، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤]، ولكن فرعون وجد له مجالًا وقبولًا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه، وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل مَنْ هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعًا من إظهاره فإن استشاطته غضبه وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستعباده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء.

فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقًا. ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة. ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة. ومنها ما يكره بسببهما جميعًا كالحج والجهاد. فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

الأولى: قبل الطاعة: وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء. وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس. وقد نبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى**»(١)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، ولهذا قدَّم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [هود:١١].

الحالة الثانية: حالة العمل: كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن

(١) حديث: «إنما الأعمال بالنيات» متفق عليه.

دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضًا من شدائد الصبر، ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [العنكبوت:٥٨-٥٩]، أي صبروا إلى تمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل: إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط اثره كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [محمد:٣٣].

وكما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المنِّ والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعًا وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠]، فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل وإيتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم. وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

الضرب الثاني: المعاصي: فما أحوج العبد إلى الصبر عنها وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل:٩٠]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه**»(١)، والمعاصي مقتضى باعث الهوى.

وأشد أنواع الصبر: الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة، فاذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها، ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء

(١) حديث: «المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه»، أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول والنسائي في الكبرى بالشطر الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيد الله بإسنادين جيدين.

والثناء على النفس تعريضًا وتصريحًا. وأنواع المزح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم، فان ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس.

فللنفس فيه شهوتان:

إحداهما: نفي الغيرة: والأخرى إثبات نفسه. وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه، وهي ضدّ ما أمر به من العبودية. ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادًا في المحاورات يعسر الصبر عنها، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأُنس بها، فترى الإنسان يلبس حريرًا مثلًا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد من النهي الأكيد عن الغيبة في الكتاب والسنة؛ ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة.

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها.

وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلًا إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبح وهمومه هم واحد، والا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه.

القسم الثاني: ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه، كما لو أوذي بفعل أو قول وجُني عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبًا وتارة يكون فضيلة. قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كنا نعدّ إيمان الرجل إيمانًا إذا لم يصبر على الأذى. وقال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢]، وقسم رسول الله ﷺ مرة مالًا، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر رسول الله فاحمرّت وجنتاه ثم قال: «**يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»(١)، وقال تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ﴾ [الحجر:٩٧-٩٨] الآيـة، وقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]، أي تصبروا عن المكافاة. ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغـيره فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

وقال ﷺ: «**صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك**»(٢).

ورأيت في الإنجيل: قال عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحوّل إليه الخدّ الأيسر ومَنْ أخذ رداءك فأعطه إزارك ومَن سخرك لتسير معه ميلًا فسر معه ميلين» وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى. فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتصارع فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعًا.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره: كالمصائب: مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء. وبالجملة سائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الصبر في القران على ثلاثة أوجه؛ صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة» وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم. وأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصدّيقين فانّ ذلك شديد على النفس. ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أسألك من اليقين ما تهوّن عليَّ به مصائب الدنيا**»(١)، فهذا صبر مستنده حسن اليقين.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه وصبر عوضته منهما الجنة**»(٢).

ومما جاء في فضل الصبر على البلاء عند السلف:

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ في خطبته: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوّضه منها الصبر إلا كان ما عوّضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، وسئل فضيل عن الصبر فقال: هو الرضا بقضاء الله، قيل وكيف ذلك؟ قال الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

وقيل حبس الشبلي رَحِمَهُ اللَّهُ في المارستان فدخل عليه جماعة فقال: من أنتم؟

قالوا: أحباؤك جئناك زائرين فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال: لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي. وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

ويقال: إنّ امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل: لها أما تجدين الوجع؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. وقال داود لسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه البخاري.

«يُستدَلُّ على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات».

وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك»[١]، ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يومًا وفي كمه صرة فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كمه فقال: «بارك الله له فيها لعله أحوج إليها مني».

وروى عن بعضهم أنه قال: مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له أسقيك ماء؟ فقال جرّني قليلًا إلى العدوّ واجعل الماء في الترس فاني صائم فان عشت إلى الليل شربته. فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى.

وأخيرًا: مما قيل في الصبر من شعر حسن جميل:

ولقدْ أحسن القائلُ: [مجزوء البسيط]:

الصبْرُ مِفْتاحُ ما يُرْجى — وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُونْ
اصْبرْ وإنْ طَالتِ الليالي — فَرُبَّما أمْكَنَ الْحَرُونْ
وَرُبَّما نِيلَ باصْطِبارٍ — مَا قِيل هَيْهَاتَ لا يَكُونْ

والقائل: الطويل:

صَبرتُ وكان الصبرُ منِّي سجيةٌ — وحسبكَ أنَّ اللهَ أثنى على الصَّبرِ
إذا كَانَ بابُ الذلِّ من جانب الغِنى — سموتُ إلى العلياءِ من جانب الفَقْرِ
سأصْبرُ حتى يحكُمَ اللهُ بيننَا — فإما إلى يُسر وإمَّا إلى عُسْرِ

فعليك باغتنام هذه الخصلة الشريفةِ وبذل المجهُودِ فيها تكُنْ مِنْ الفائزين، واللهُ تعالى وليُّ التوفيق.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المعاصي والكفارات، قال العراقي: لم أجده مرفوعًا.

الحديث السادس

ĜǪħķŇǰəƿ ǆɏƒłŇəƿ ğÊƮǩł āɛƸǩł ł ǪĂ

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طلبُ الحلالِ فريضةُ على كُلِّ مسلمٍ بعد الفريضة**»[١].

‖Ƹţ ǩłƮɏǽP[٢]:

أولًا: أهمية طلب الحلال في الشرع الحنيف وأثره في القلب:

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا**﴾ [المؤمنون:٥١]، والحرام خبيث وليس بطيب، فقد قرن الله عَزَّوَجَلَّ أكل الطيبات بالعبادات وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا[٣]، وصُمتُمْ حتى تكونوا كالأوتاد، لم يقبل الله ذلك منكم إلا بورع حاجز»، وقال: العبادة مع أكل الحرام كبنيان على السِّرْقين أي الزبد

اعلم أن طليبَ المطعم له خاصية عظيمة في تصفية القلب وتنويره وتأكد استعداده لقبول أنوار المعرفة، وفيه سر لا يحتمل هذا الكتاب ذكره.

ثانيًا: لا بد للمسلم من معرفة درجات الورع وهي أربعة:

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: ولكن ينبغي أن تفهم أن درجات الورع أربعة:

الدرجة الأولى: هي التي يجب الفِسْق باقتحامها: وتزول العدالة بزوالها، وهي التي يحرّمها فتوى الفقهاء.

---

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي بسند ضعيف، قال الهيثمي: حسن.

(٢) الأربعين في أصول الدين (٧٥) وما بعدها.

(٣) **الحنايا**: الأقواس.

الثانية: ورع الصالحين: وهو الحذر عما يتطرق إليه احتمال التحريم، وإذا أفتى المفتي بحلِّة بناءً على الظاهر، وهو الذي قال فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دع ما يَريبُك إلى ما لا يريبك**».

الثالثة: ورع المتقين: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يبلغُ العبدُ درجة أن يكون من المتقين حتى يدرك ما لا بأسَ به حذرًا مما به بأس**»(١)، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام»، ومن هذا الأصل كان بعضُهم إذا استحق مئة درهمٍ اقتصر على تسعة وتسعين، ويترك الواحدَ حاجزًا بينه وبين النار لخوف الزيادة.

وكان بعضهم يأخذ ما يأخذ بنقُصان حبةٍ، ويعطي ما يعطي بزيادة حبةٍ. ولذلك أخذ عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه أنفه حذرًا من ريح المسك لبيت المال كان يوزن بين يديه، وقال: «هل يُنتفَعُ إلا بريحه؟».

ومن ذلك أن يتورع من الزينة وأكل الشهوات، خيفة من أن تغلبَ النفسُ فتدْعوه إلى الشهوات المحظورة.

ومن ذلك، ترك النظر إلى تجمُّل أهل الدنيا، فإنه يحرك دواعي الرغبة في الدنيا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ [طه:١٣١]، ولذلك قال عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا، فإن بريقَ أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم». ولذلك قال السلف: «من رقَّ ثوبه رق دينه».

فالحلال الطلق الطيب كل حلال انفكَّ عن مثل هذه المخالفة، ولم يحذر فيها آفة.

الرابعة: ورعُ الصدّيقين: وهو الحذر عن كل ما لا يراد بتناوله القوة على طاعة الله تعالى، أو كان قد يتطرق إلى بعض أسبابها معصية.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

فمن ذلك ما حكي أن ذا النون المصري كان محبوسًا جائعًا، فبعثت إليه امرأة صالحة من طيّب مالها طعامًا على يد السجان، فلم يأكل منه واعتذر بأنه جاءني على طبقِ ظالم أي يدِ السجّان.

ومن ذلك أن بشْرًا الحافي كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها السلاطين. وأطفأ بعضهم سِراجًا أشعله غلامه من بيتِ ظالمٍ.

وهذه رتبة أقوام وفَوْا بقوله تعـالى: ﴿**قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام:٩١]، فعدّوا كل ما لم يكن لله تعالى حرامًا. وليس هذا من عُشِّك وعشِّ ناصحك، فادرج واجتهد أن تفيَ بورع العُدول الذي يفتي به الفقهاء.

ثالثًا: أثر الحرام والشبهة في إظلام القلب:

اعلم على الجملة أن المحذور من الحرام إظلام القلب، والمطلوب من الحلال تنويره، وذلك بتشعب من اعتقادك لا مِنْ نفس المعتَقَد. فمن وطئ امرأةً على ظن أنها أجنبية فإذا هي منكوحته حصل إظلامُ القلب، ولو وطئ أجنبية على ظن أنها زوجته لم يحصل إظلام القلب.

وكذلك في النجاسات والطهارات، فالمؤثر في تنوير القلب همّكَ واعتقادك. فما أُمرتَ بأن تصليَ وثوبك طاهر، بل أن تصليَ وأنت تعتقد أنه طاهر.

فاستشعار الطهارة مؤثِّر في إشراق القلب. وإن لم يكن على وَفْق الحال.

ولذلك تقول: إن من صلى ثم ذكر أنه كان معه نجاسة. فليس عليه الإعادة على الأصح، لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلع نعليه في أثناء صلاته لما أخبره جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن عليهما

قذرًا واستمر فيها. ولذلك يشدد الأمر على المُوسْوسَ، فإنه ما لم يطمئن قلبه باعتقاده الطهارة، فيجب عليه الاستقصاء والمعاداة.

وأولئك قوم شددوا على أنفسهِم فشدد الله عليهم، فهلكوا باستقصائهم؛ كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**هلَكَ المتنطعون**» فكذلك في الحلال، أنت مُتعَبّدٌ بما يطمئن إليه قلبُكَ، لا بما يفتي به المفتي، فاستتفْتِ قلبك.

رابعًا: ما حكم الأكل من أطعمة الناس في الولائم وغيرها:

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الناس في هذا الباب ستة أقسام:

أحدها: أن يكون مجهولًا، فكُلْ من ماله والحذر ليس بواجب. بل هو محض الورع.

الثاني: أن تعرفه بالصلاح فكلْ منه ولا تتورع، فالورعُ فيه وسوسة.فإذا أدى إلى الأذى والإيحاش فهو معصية وحرام، لما فيه من الإيذاء، ولما فيه من سوء الظن بالرجل الصالح.

الثالث: أن تعرفه بالظلم والربا حتى علمتَ أن كلَّ مالِهِ أو أكثرهُ حرام كالسلاطين الظلمة وغيرهم، فمالُهُم حرام.

الرابع: أن تعرف أن أكثر أمواله حلال، ولكن لا يخلو من حرام، كرجل له تجارة وميراث، وهو مع هذا في عمل السلطان، فلك الأخذ بالأغلب، لكن الترك من أجل الورع مهم.

الخامس: أن يكون مجهولًا عندك، ولكن ترى عليه علامة الظلم، كالقباء والقلنسوة وهيئة الظلمة، فهذه علامة ظاهرة توجب الحذر، فلا تأكل من ماله إلا بعد التفتيش.

السادس: أن ترى عليه علامة الفسق لا علامة الظلم، كطول الشارب، وانقسام شعر الرأس قَزعًا(١)، ورأيته يشتم غيره، أو ينظر إلى امرأة. فإن علمت له مالاً موروثا أو

(١) **قزعًا:** جمع قزعة وهي الخَصْلة من الشعر، أي يحلق جزءًا ويُبقي جزءًا.

تجارة لم يحرم ماله بذلك، وإن كان أمره مجهولًا عندك فهذا فيه خطر، لأن علامة الفسق أضعف دلالة من علامة الظلم، ولكن الأظهر عندي أنه لا يحرم ماله لأنه طاهر اليد والإسلام يدل على الملك دلالة أظهر من دلالة هذه العلامات على التحريم. وليست هذه الدلالة أقوى من دلالة النصرانية والمجوسية على نجاسة الماء، ولم يلتفت إليهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خامسًا: إرشادات هامة في قضية التعامل مع من تشك في أموالهم:

ولكن ههنا دقيقة يغفل عنها أهل الورع، وهي أنه حيث يكون الترك من الورع أو من حزازة في النفس، فلا يجوز الترك والسؤال بحيث يؤذي. فالمجهول إذا قَدَّم إليك طعامًا، فإن سألته من أين؟ استوحش وتأذّى والإيذاء حرام. وسوء الظن حرام. وإن سألت غيره بحيث يدري زاد الإيذاء وإن سألت بحيث لا يدري فقد تجسست وأسأت الظن، وبعض الظن إثم، تساهلت بالغيبة والتهمة، وكل ذلك حرام، وترك الورع ليس بحرام، فليس لك إلا التلطف بالترك، فإن لم يكن إلا بإيذاء، فعليك أن تأكل. فإن طيبة قلب المسلم وصيانته عن الإيذاء أهم من الورع، فإياك أن تكون من القرّاء المغرورين الذين لا يدركون دقائق الورع.

واعلم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكل من صدقة بريرة ولم يسأل عن المتصدق. وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُحمل إليه الهدايا فيقبل ولا يسأل. نعم سأل في أول قدومه إلى المدينة عما حُمِل إليه هل هو صدقة أو هدية؟ لأن ذلك ليس فيه إيذاء، ولأن قرينة الحال كانت تقتضى الإمكان في الصدقة والهدية على وتيرة واحدة.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل ولم ينقل السؤال إلا نادرًا في محل الريبة.

فإن قلت: فإن وقع طعام حرام في سوق فهل يُشترى من ذلك السوق؟ فأقول: إن تحققت أن الحرام هو الأكثر فلا تشتر إلا بعد التفتيش، وإن علمت أن الحرام كثير وليس بالأكثر فلك الشراء، والتفتيش من الورع.

ولقد كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين- يشترون في أسفارهم من الأسواق، مع علمهم بأن فيها أهل الربا والغصب وأهل الغلول في الغنيمة، وكانوا لا يتركون المعاملة معهم.

❁ ❁ ❁

الحديث السابع

Ƴ ǥ zǚǩƗ ǨǚǋƏ

عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أُنبِّئكمْ بخير أعمالِكُمْ وأزكاها عند مليلِكمِ، وأرفعِها في درجاتِكُم، وخير من إنفاق الذَّهبِ والفضَّةِ، وخير لكم مِن أَنْ تَلَقَوْا عدوَّكم فتضربوا أعناقَهُم ويضربُوا أعَناقكم؟**» قالوا: بلى قال: «**ذكر الله تعالى**»[١].

Ƴ ţ‖ ƮǩƗ Pǽy[٢]:

أولًا: فضل الذكر في الكتاب والسنة والآثار:

(أ) فضل الذكر في القرآن:

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴾ [البقرة:١٥٢]، قال ثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إني أعلم متى يذكرني ربي عَزَّوَجَلَّ، ففزعوا منه وقالوا: كيف تعلم ذلك؟ فقال: إذا ذكرته ذكرني. وقال تعالى: ﴿ **ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب:٤١]، وقال تعالى: ﴿ **فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ** ﴾ [البقرة:١٩٨]، وقال تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا** ﴾ [البقرة:٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ** ﴾ [آل عمران:١٩١]، وقال تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ** ﴾ [النساء:١٠٣]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أي بالليل والنهار في البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية.

---

(١) رواه الترمذي والحاكم وقال: إسناده صحيح.

(٢) شرح الحديث من الإحياء (١/ ٣٥٠)، وما بعدها والأربعين في أصول الدين (٦٦-٦٨).

وقال تعالى في ذم المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: له وجهان: أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه، والآخر أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه. إلى غير ذلك من الآيات.

(ب) فضل الذكر في الأحاديث النبوية:

وأما الأخبار:

فقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذاكر الله في الغافلين كالشجرة في وسط الهشيم**»(١).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارين**».

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه بي**»(٢)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله** عَزَّوَجَلَّ»، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع، ثم تضرب به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع**»(٣).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**»(٤).

---

(١) «ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم» أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف، وقال: «في وسط الشجر» الحديث.

(٢) حديث: «يقول الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه» أخرجه البيهقي وابن حبان من حديث أبي هريرة والحاكم من حديث أبي الدرداء وقال: صحيح الإسناد.

(٣) حديث: «ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله» قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع - ثلاث مرات» أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، والطبراني من حديث معاذ بإسناد حسن.

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

وسُئِل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ الأعمال أفضل؟

فقال: «**أن تموت ولسانك رطب بذكر الله** عَزَّوَجَلَّ»[(١)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمس وأصبح ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسي وليس عليك خطيئة**»[(٢)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لذكر الله** عَزَّوَجَلَّ **بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سحًا**»[(٣)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقول الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه، وإذا تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا وإذا تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعا وإذا مشى إليَّ هرولت إليه**»[(٤)]، يعني بالهرولة سرعة الإجابة.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبعة يظلهم الله** عَزَّوَجَلَّ **في ظله يوم لا ظل إلا ظله -من جملتهم- رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه من خشية الله**»[(٥)].

(جـ) فضل الذكر في الآثار وأقوال العلماء:

وأما الآثار: فقد قال الفضيل: «بلغنا أن الله عَزَّوَجَلَّ قال: عبدي، اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما».

---

(١) حديث: سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى» أخرجه ابن حبان والطبراني في الدعاء والبيهقي في الشعب من حديث معاذ.

(٢) أخرجه أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس: «من أصبح وأمسى ولسانه رطب من ذكر الله يمسي ويصبح وليس عليه خطيئة» وفيه من لا يعرف.

(٣) حديث: «لذكر الله بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سحا»، رويناه من حديث أنس بسند ضعيف في الأصل وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبد البر في التمهيد.

(٤) حديث: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي...» الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله – من جملتهم – رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»، متفق عليه من حديث أبي هريرة أيضًا.

وقال بعض العلماء: «إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه».

وقال الحسن: «الذكر ذكران: ذكر الله عَزَّوَجَلَّ بين نفسك وبين الله عَزَّوَجَلَّ ما أحسنه وأعظم أجره وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرم الله عَزَّوَجَلَّ».

ويروى: «إن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكر الله عَزَّوَجَلَّ».

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها» والله تعالى أعلم.

ثانيًا: بيان السر في كون الذكر أفضل العبادات مع كونه أخفها:

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قلت: فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها؟ فاعلم أنَّ الذكَر المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى. وفي الأخبار ما يدل عليه أيضًا[1] وحضور القلب في لحظة بالذكر والذهول عن الله عَزَّوَجَلَّ مع الاشتغال بالدنيا أيضًا قليل الجدوى بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية.

وللذكر أول وآخر؛ فأوله يوجب الأنس والحب لله وآخره يوجب الأنس والحب ويصدر عنه والمطلوب ذلك الأنس والحب. فإن المريد في بداية أمره قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عَزَّوَجَلَّ. فإن وفق للمداومة أنس به وانغرس

---

(١) حديث الدال على أن الذكر والقلب لاه قليل الجدوى أخرجه الترمذي وقال حديث حسن والحاكم وقال: حديث صحيح الإسناد من حديث أبي هريرة ولفظه: «واعلموا أن الله لا يقبل الدعاء من قلب لاه».

في قلبه حب المذكور. ولا ينبغي أن يتعجب من هذا فإن من المشاهد في العادات أن تذكر غائبا غير مشاهد بين يدي شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر، ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكلف أولا صار مضطرًّا إلى كثرة الذكر آخرا بحيث لا يصبر عنه. فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره ومن أكثر من ذكر شيء - وإن كان تكلفا - أحبه. فكذلك أول الذكر متكلف إلى أن يثمر الأنس بالمذكور والحب له، ثم يمتنع الصبر عنه آخرا فيصير الموجب موجبا والثمر مثمرا. وهذا معنى قول بعضهم. كابدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة. ولا يصدر التنعُّم إلا من الأنس والحب. ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعا. فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أولًا ويكابد أكله ويواظب عليه فيصير موافقًا لطبعه حتى لا يصبر عنه فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف.

هي النفس ما عودتها تتعود

أي ما كلفتها أولًا يصير لها طبعا آخرًا.

ثم إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع عن غير ذكر الله وما سوى الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يفارقه عند الموت فلا يبقى معه في القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبقى إلا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ. فإن كان قد أنس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه إذ ضرورات الحاجات في الحياة الدنيا تصد عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يبقى بعد الموت عائق؛ فكأنه خُلِّيَ بينه وبين محبوبه فعظمت غبطته وتخلَّص من السجن الذي كان ممنوعا فيه عما به أنسه. ولذلك قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه**»[(١)]، أراد به كل ما يتعلق بالدنيا فإن ذلك يفنى في حقه بالموت فـ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا**

(١) حديث: «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه».

فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، وإنما تفنى الدنيا بالموت في حـقه إلى أن تفنى في نفسها عند بلوغ الكتاب أجـــله. وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل في جوار الله عَزَّوَجَلَّ ويترقى من الذكر إلى اللقاء. وذلك بعد أن يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور، ولا ينكر بقاء ذكر الله عَزَّوَجَلَّ معه بعد الموت فيقول إنه أعدم فكيف يبقى معه ذكر الله عَزَّوَجَلَّ؟ فإنه لم يعدم عدما يمنع الذكر بل عدما من الدنيا وعالم الملك والشهادة لا من عالم الملكوت.

وإلى ما ذكرناه الإشارة بقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة**»(١).

وبقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر**»(٢)، وبقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لقتلى بدر من المشركين: «يا فلان ويا فلان»، وقد سماهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا**»(٣)، فسمع عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا؟ فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لكلامي منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا**». والحديث في الصحيح. هذا قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في المشركين فأما المؤمنون والشهداء فقد قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وذكره السيوطي وذكره السيوطي في الجامع الصغير وحسنه برقم (١٥٩٨).

قلت: فيه عبيد الله بن الوليد الوصافي ضعيف.

(٢) حديث: «أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر» أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود «أنه سئل عن هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الآية، قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر فلم يسم فيه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ» وفي رواية الترمذي: «أما إنا سألنا عن ذلك فأخبرنا»، وذكر صاحب مسند الفردوس أن ابن منيع صرح برفعه في مسنده.

(٣) حديث: «ندائه لقتلى بدر من المشركين يا فلان يا فلان وقد سماهم إني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟» أخرجه مسلم من حديث أنس.

«أرواحهم في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش»[(١)]، وهذه الحالة وما أشير بهذه الألفاظ إليه لا ينافي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

ثالثًا: بين فضل الذكر وفضل الشهادة في سبيل الله تعالى:

وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠] الآية، ولأجل شرف ذكر الله عَزَّوَجَلَّ عظمت رتبة الشهادة، لأن المطلوب الخاتمة ونعني بالخاتمة وداع الدنيا والقدوم على الله والقلب مستغرق بالله عَزَّوَجَلَّ منقطع العلائق عن غيره. فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقا بالله عَزَّوَجَلَّ فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا في صف القتال. فإنه قطع الطمع عن مهجته وأهله وماله وولده بل من الدنيا كلها فإنه يريدها لحياته، وقد هوّن على قلبه حياته في حب الله عَزَّوَجَلَّ وطلب مرضاته فلا تجرد لله أعظم من ذلك، ولذلك عظم أمر الشهادة وورد فيه من الفضائل ما لا يحصى. فمن ذلك أنه لما استشهد عبد الله بن عمرو الأنصاري يوم أُحُد قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لجابر: **«ألا أبشرك يا جابر!»** قال: بلى بشرك الله بالخير. قال: **«إن الله** عَزَّوَجَلَّ **أحيا أباك فأقعده بين يديه وليس بينه وبينه ستر؛ فقال تعالى: تمنّ عليَّ يا عبدي ما شئت أعطيكه، فقال: يا رب أن تردني إلى الدنيا حتى أقتل فيك وفي نبيك مرة أخرى فقال** عَزَّوَجَلَّ: **سبق القضاء مني بأنهم إليها لا يرجعون»**[(٢)]، ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة، فإنه لولم يقتل وبقي مدّة ربما عادت شهوات الدنيا إليه وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر

---

(١) أخرجه ابن ماجه والنسائي والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) حديث: «ألا أبشرك يا جابر»؛ قال: بلى بشرك الله بالخير. قال: «إن الله أحيا أباك وأقعده بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى تمن عليّ... الحديث» أخرجه الترمذي وقال حسن، وابن ماجه، والحاكم وصحح إسناده من حديث جابر.

الله عَزَّوَجَلَّ. ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة. فإن القلب وإن ألزم ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فهو متقلب لا يخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تعتريه. فإذا تمثل في آخر الحال في قلبه أمر من الدنيا واستولى عليه وارتحل عن الدنيا والحالة هذه فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه فيحن بعد الموت إليه ويتمنى الرجوع إلى الدنيا. وذلك لقلة حظه في الآخرة إذ يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه. فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة إذا لم يكن قصد الشهيد نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك، كما ورد به الخبر(١)؛ بل حب الله عَزَّوَجَلَّ وإعلاء كلمته فهذه الحالة هي التي عبر عنها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]، ومثل هذا الشخص هو البائع للدنيا بالآخرة. وحالة الشهيد توافق معنى قولك «لا إله إلا الله»، فإنه لا مقصود له سوى الله عَزَّوَجَلَّ وكل مقصود معبود وكل معبود إله فهذا الشهيد قائل بلسان حاله «لا إله إلا الله» إذ لا مقصود له سواه. ومن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره في مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ ولا يؤمن في حقه الخطر. ولذلك فضل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قول «لا إله إلا الله على سائر الأذكار»(٢)، وذكر ذلك مطلقًا في مواضع الترغيب. ثم ذكر في بعض المواضع الترغيب. ثم ذكر في بعض المواضع الصدق والإخلاص، فقال مرة: «**من قال لا إله إلا الله مخلصًا**»، ومعنى الإخلاص مساعدة الحال للمقال. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا في الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالًا ومقالًا ظاهرًا وباطنًا حتى نودع الدنيا غير متلفتين إليها بل متبرمين منها ومحبين للقاء الله، فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.

---

(١) حديث: «الرجل يقاتل لنيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك»، متفق عليه من حديث أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: الرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**».

(٢) حديث: «تفضيل لا إله إلا الله على سائر الأذكار» أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث جابر.

رابعًا: للذكر أربعة مراتب[(١)]:

اعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الذكرَ أفضلُ، ولكنْ له أيضًا قشورٌ ثلاثة، بعضها أقربُ إلى اللبِّ من بعض، وله لبٌّ وراء القشور الثلاثة. وإنما فضلُ القشور لكونها طريقًا إليه.

فالقشر الأعلى منه، ذكر اللسان فقط.

والثاني: ذكر القلب إذا كان القلب يحتاج إلى مراقبة حتى يحضر مع الذكر، ولو ترك وطبعه لاسترسل في أودية الأفكار.

والثالث: أن يستمكن الذكرُ من القلب ويستوليَ عليه، بحيث يحتاجُ إلى تكليف في صرفهِ إلى غيره. كما احتيج في الثاني إلى تكليف في قراره معه ودوامِهِ عليه.

والرابع: وهو اللُّبابُ – أن يستمكن المذكورُ من القلب، وينمحيَ الذكر ويخفى، وهو اللُّباب المطلوب. وذلك بأن لا يلتفت إلى الذكر ولا إلى القلب. بل يستغرق المذكورُ جملتهَ، ومهما ظهر له في أثناء التفات إلى الذكر، فذلك حجاب شاغل، وهذه الحالة التي يعبر عنها العارفون بالفناء، وذلك بأن يفنى عن نفسه حتى لا يحس بشيء من ظواهِرِ جوارحه، ولا من الأشياء الخارجة عنه، ولا من العوارض الباطنة فيه. بل يغيب عن جميع ذلك ويغيب عنه جميع ذلك، ذاهبًا إلى ربه أولًا، ثم ذاهبًا فيه آخرًا.

وإن خطر له في أثناء ذلك أنه فني عن نفسه بالكلية فذلك شوب[(٢)] وكدورة. بل الكمال في أن يفنى عن نفسه، ويفنى عن الفناءِ أيضًا، فإن الفناءَ عن الفناءِ غايةُ الفناءِ.

وهذا قد يظنه الفقيه الرسمي، أنه طامات[(٣)] غير معقولة، وليس كذلك، بل هذه الحالة لهم – بالإضافة إلى محبوبهم – كحالتك في أكثر الأحوال بالإضافة إلى محبوبك من

(١) الأربعين في أصول الدين (٦٦).

(٢) **الشوب**: ما اختلط بغيره من الأشياء ان ما زال في نفسه شوائب وكدور. والغيرة.

(٣) **طامات**: جمع طامة، وهي الداهية، أو جمع طمة وهي الضلال والغيرة.

جاه أو مال أو معشوق، فإنك قد تصيرُ مُستغرقًا لشدةِ الغضبِ بالفكر في عدوك، ولشدة التفكرِ في معشوقكَ، حتى لا يكونَ فيك مُتَّسعَ لشيءٍ أصلًا، فتُخاطَبُ فلا تَفْهَم، ويَجْتازُ بين يديك غيرُكَ فلا تراهُ وعيناكَ مفتوحتان، ويُتكلَّم عندكَ فلا تَسمعْ وما بأُذنيْك صَمَمٌ، وأنت في هذا الاستغراق غافل عن كل شيء وعن الاستغراق أيضًا. فإن الملتفت إلى الاستغراق مُعرض عن المستغَرق فيه.

❁❁❁

الحديث الثامن

Ƴ Ğ ǈǮǩƚ ǰŪ ÆĦǇǈǩƚƿ Ùƿ Ƴūǯǩǩƛ Ƴǫàƚ

عن أبي بكرٍ الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ قوم يُعمَلُ فيهم بالمعاصي ثُمَّ يقدِرونَ على أنْ يغيرِّوا ثُمَّ لا يُغيّروا ألا يُوشكُ أنْ يَعمَّهُمُ الله مِنْه بعقابٍ**»(١).

Ʋ Ƴ ǩƚ ǈǩƚ ǯƽ(٢):

يشتمل الحديث على عدة قضايا هامة وهي:

أولًا: في الحديث إشارة إلى وجوب الأمر والنهي:

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: كلُّ مَنْ شاهدَ منكرًا ولم ينكِرْهُ وسكتَ عنه، فهو شريكٌ فيه. فالمستمعُ شريكُ المغتابِ، ويجري هذا في جميع المعاصي، حتى في مجالسة من يلبس الديباج، ويتختم بالذهب، ويجلس على الحرير. والجلوس في دار أوفي حَمّامٍ على حيطانها صور أو فيها أوان من ذهب أو فضة، أو الجلوس في مسجد يسيء الناس الصلاة فيه، فلا يتُمُّون الركوعَ والسجودَ، أو الجلوس في مجلس وَعظٍ يجري فيه ذكر البدعة، أو في مجلس مناظرة ومجادلة يجري فيها الإيذاء والإيحاش بالسَّفه والشتم.

وبالجملة، من خالط الناس كثُرتْ معاصيه، وإن كان تقيًا في نفسه، إلا أن يترك المداهنة ولا تأخذه في الله لومة لائم، ويشتغل بالحسبة(٣).

---

(١) رواه أصحابُ السنن بروايات متعددة وقال الترمذي: في إحداها حديث حسن صحيح.

(٢) الأربعين في أصول الدين (٩٥– ١٩٨)

(٣) الحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثانيًا: متى يسقطُ النهيُ عن المنكرِ عمَّن شاهَده: قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإنما يسقط عنه الوجوب بأمرين:

أحدهما: أن يعلمَ أنه إن أنكر لم يُلتفت إليه ولم يُترك المنكر ونُظر إليه بعين الاستهزاء، وهذا هو الغالب في منكرات ترتكبها الفقهاء، ومَنْ يزعم أنه من أهل الدين فههنا يجوز السكوت، ولكن يستحب الزجر باللسان، إظهارًا لشعار الدين، مهما لم يقدر على غير الزجر باللسان، ويجب أن يفارق ذلك الموضع، فليس يجوز مشاهدة المعصية بالاختيار، فمن جلس في مجلس الشرب فهو فاسق وإن لم يشرب، ومن جالس مغتابًا أو لابسَ حريرٍ أو آكل ربًا أو حرام فهو فاسق فليقم من موضعه.

والثاني: أن يعلم أنه يقدر على المنع من المنكر بأن يرى زجاجة فيها خمر فيرميها فتكسر، أو يسلب آلة الملاهي من يده ويضربها على الأرض، ولكن يعلم أنه يُضرب أو يُصاب بمكروه فههنا تُستحبُّ الحسبة لقوله تعالى: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧]، ولا يجب إلا أن المكروه الذي يصيبه له درجات كثيرة يطول النظر فيها، (ذكرناها في كتاب الأمر بالمعروف من الإحياء).

وعلى الجملة: فلا يسقط الوجوبُ إلا بمكروه في بدنه بالضرب، أو في مالهِ بالاستهلاك، أو في جاههِ بالاستخفاف به بوجه يقدح في مروءته.

فأمَّا الخوْفُ مِن استيحاش المنكَرِ عليه وخوف تعرضه له باللسان وعداوته له، أو توهم سعيه في المستقبل بما يسوؤه أو يحول بينه وبين زيادة خير يتوقعها، فكلّ ذلك موهُومات وأمور ضعيفة لا يسقط الوجوب بها.

ثالثًا: خلقان ضروريان لمن يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [المستحب]:

قال الغزالي في بيانهما:

الخلق الأول: الرفق واللطف: والبداية بالوعظ على سبيل اللين لا على سبيل العنفِ، والترفع والإدلال بدالّة الصلاح، فإن ذلك يؤكد داعية المعصية ويحملُ العاصي على المناكرة وعلى الإيذاء.

ثم إذا آذاه ولم يكن حسن الخلق غضبَ لنفسه، وتركَ الإنكار لله تعالى، واشتغل بشفاء غليله منه، فيصير عاصيًا، بل ينبغي أن يكون كارهًا للحِسبة، يودّ لو ترك العاصي المعصيةَ بقول غيره، فإنه إذا أحب أن يكون هو المتعرض، كان لما في نفسه من دلالة الاحتساب وعزته.

ووعظ المأمونَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ واعظٌ بعنف فقال: «يا رجل ارفق فقد بعث الله تعالى من هو خير منك إلى من هو شرّ مني فأمره بالرفق فقال الله تعالى: ﴿ **فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** ﴾ [طه:٤٤]. وروى أبو أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن غلامًا شابًا أتى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: أتأذن لي بالزنا؟ فصاحَ الناسُ به. فقال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أقرُوه أقرُّوه أُدنُ مني**» فدنا منه. فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أتحبُّه لأمِّك؟**» فقال: لا، وجعلني الله فداك، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**كذلك الناسُ لا يُحبُّونه لأمهاتهم**»، ثم قال: «**أتحبّه لابنتِك؟**» قال: لا، قال: «**كذلك الناسُ لا يُحبُّونه لبنَاتهمِ**»، حتى ذكر له الأخت والعمةَ والخالةَ، ويقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**كذلك الناسُ لا يُحبُّونه**»، ثم وضع يده على صدره وقال: «**اللهمَّ طهِّرْ قَلْبَهُ واغفِرْ ذَنْبَهُ وحَصِّنْ فَرْجَهُ**»[(١)]. فلم يكن بعد ذلك شيء أبغض إليه من الزنا.

---

(١) رواه أحمد بإسناد جيد ورجاله رجال الصحيح.

وقال بعضهم للفُضَيل: إن سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان، فقال: ما أخذ منهم إلاّ دون حقه، ثم خلا به وعاتبه بالرفق، فقال سفيان: «يا أبا علي، إن لم نكن من الصالحين فإنا نحب الصالحين».

الخلق الثاني: أن يكن المحتسب قد بدأ بنفسه فهذبها: وترك ما ينهى عنه أولًا، قال الحسن البصري: «إذا كنتَ تأمرُ بالمعروف فكن من آخذ الناس به وإلا هلكتَ». فهذا هو الأوْلى حتى ينفعَ كلامهُ وإلا استهزئ به، وليس هذا شرط لازم، بل يجوزُ الاحتساب للعاصي أيضًا.

وقال الحسن البصري: «يريد أن يظفر الشيطان منكم بهذه الخصلة، وهو أن لا تأمروا بالمعروف حتى تأتوا به كله»؛ يعني أنَّ هذا يؤدي إلى حسم باب الحِسْبَة. فَمَنْ ذا الذي يُعصم عن المعاصي؟

❁❁❁

الحديث التاسع

ǴǗƩ ƷƳ ŅǫŪƿ ĀǬǦǩƗ ǰƇĖƈ ǨŅŊǗ

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ مِن أكمل المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا وألطفُهم بأهلِهِ**»، رواه الترمذي والحاكم وقال صحيح على شرطهما، وقال الترمذي حديث حسن ولا نعرف لأبي قلابة سماعًا من عائشة[١].

Pǽy Ɫǩƚ ţƐ‖[٢]:

أولًا: بيان فضيلة حسن الخلق من الأحاديث النبوية وآثار العلماء:

حُسن الخلق في الأحاديث النبوية:

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيًّا عليه ومظهرًا نعمته لديه: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم:٤]، وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلقه القرآن[٣]، وسأل رجل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حُسن الخلق فتلا قوله تعالى: ﴿ **خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ** ﴾ [الأعراف:١٩٩]، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك**»[٤]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[٥]،

---

(١) قال محقق ميزان العمل سليمان بن سليم البواب: الحديث رواه أبو يعلى والحاكم في الكنى وأحمد والدارمي وأبو داود وغيرهم، والباب غيره من ذلك ما رواه الترمذي والنسائي واللفظ له والحاكم ثم ساق الحديث أعلاه ثم ذكر رواية أخرى: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا اكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» يراجع للمزيد كتاب الترغيب والترهيب للمنذري.

(٢) ميزان العمل (ص٣٨) وما بعدها، والإحياء (٣/ ٦٢) وما بعدها.

(٣) حديث عائشة كان خلقه القرآن تقدم وهو عند مسلم.

(٤) حديث: «تأويل قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ الآية هو أن تصل من قطعك» الحديث أخرجه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان.

(٥) حديث: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة وتقدم في آداب الصحبة.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق**»(١)، وجاء رجل إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: «**حسن الخلق**» فأتاه من قبل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: «**حسن الخلق**». ثم أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين؟ فقال: «**حسن الخلق**»، ثم أتاه من ورائه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فالتفت إليه وقال: «**أما تفقه؟ هو أن لا تغضب**»(٢).

وقيل: يا رسول الله ما الشؤم؟ قال: «**سوء الخلق**»(٣)، وقال رجل لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: أوصني فقال: «**اتق الله حيثما كنت**»، قال: زدني قال: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها**»، قال: زدني قال: «**خالق الناس بخلق حسن**»(٤)، وسُئِل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «**خلق حسن**»، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما حسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار**»(٥)، وقال الفضيل قيل لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال: «**لا خير فيها هي من أهل النار**»(٦)، وقيل: يا رسول الله أيُّ المؤمنين أفضل إيمانًا؟ قال: «**أحسنهم خلقًا**»(٧)، وقال

---

(١) حديث: «**أثقل ما يوضع في الميزان خُلق حسن**» أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء.

(٢) حديث: جاء رجل إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين يديه فقال: ما الدين؟ قال: «**حسن الخلق**» الحديث أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلًا.

(٣) حديث: ما الشؤم؟ قال: «**سوء الخلق**» أخرجه أحمد من حديث عائشة: «**الشؤم سوء الخلق**» ولأبي داود من حديث رافع بن مكيث: «سوء الخلق شؤم» وكلاهما لا يصح.

(٤) حديث: قال رجل: أوصني، قال: «**اتق الله حيثما كنت..**» الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وقال: حسن صحيح.

(٥) حديث: «ما حسن الله خلق امرئ وخلقه فتطعمه النار».

(٦) رواه أحمد والبزار وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث: قيل: يا رسول الله، أيُّ المؤمنين أفضلهم إيمانًا؟ قال: «**أحسنهم خلقًا**» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح بلفظ: «أكمل المؤمنين» والطبراني من حديث أبي أمامة: «**أفضلكم إيمانًا أحسنكم خلقًا**».

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق**»[١]، وعن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك**»[٢].

وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن الناس وجهًا وأحسنهم خلقًا[٣]، وعن أبي مسعود البدري قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعائه: «**اللهم حسنت خلقي فحسن خلقي**»[٤]، وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كرم المؤمن دينه، وحسبه حسن خلقه، ومروءته عقله**»[٥]، وعن أسامة بن شريك قال: شهدت الأعاريب يسألون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: ما خير ما أعطى العبد؟ قال: «**خلق حسن**»[٦]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**»[٧]، وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) حديث: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق**» أخرجه البزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات.

(٢) حديث: «**إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك**»، أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب وفيه ضعف.

(٣) حديث البراء: «كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن الناس وجهًا وأحسنهم خلقًا» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند حسن.

(٤) حديث أبي مسعود البدري: «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي»، أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي مسعود البدري وإنما هو ابن مسعود أي عبد الله، هكذا رواه ابن حبان في صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة.

(٥) حديث أبي هريرة: «**كرم المرء دينه ومروءته عقله وحسن خلقه**» أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم والبيهقي. قلت: فيه مسلم بن خالد الزنجي وقد تكلم فيه. قال البيهقي: وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفًا على عمر وقال: إسناد صحيح.

(٦) حديث أسامة بن شريك: شهدت الأعاريب يسألون رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما خير ما أعطى العبد؟ قال: «**خلق الحسن**» أخرجه ابن ماجه.

(٧) حديث: «**إن أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**» أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة: «**إن أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقًا**» وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر: «**إن أقربكم مني مجلسًا أحاسنكم أخلاقًا**».

«ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله. تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حلم يكف به السفيه أو خلق يعيش به بين الناس»(١)، وكان من دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في افتتاح الصلاة: «**اللهم أهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»(٢)، وعن أنس قال: قالت أم حبيبة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما هي تكون؟ قال: «**لأحسنهما خلقًا كان عندها في الدنيا، يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة**»(٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته**»(٤)، وفي رواية: «**درجة الظمآن في الهواجر**»، وقال عبد الرحمن بن سمرة: كنا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**إني رأيت البارحة عجبًا، رأيت رجلًا من أمتي جاثيًا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى**»(٥)، وقال أنس: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة**»(٦)، وروي: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استأذن على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) حديث ابن عباس: «**ثلاث من لم يكن فيه أو واحدة منهم فلا يعتد بشيء من عمله...**» الحديث أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف، ورواه الطبراني في الكبير وفي مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة.

(٢) أخرجه مسلم من حديث علي.

(٣) حديث أنس: قالت أم حبيبة: يا رسول الله، أرأيت المرأة يكون لها زوجان الحديث. أخرجه البزار والطبراني في الكبير والخرايطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف.

(٤) حديث: «**إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه..**» الحديث أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالرواية الأولى ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيهما ابن لهيعة.

(٥) حديث عبد الرحمن بن سمرة: «**إني رأيت البارحة عجبًا...**» الحديث أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف.

(٦) حديث: «**إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة..**» الحديث أخرجه الطبراني والخرايطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب مكارم الأخلاق، وأبو الشيخ في كتاب طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد.

وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تبادرن الحجاب، فدخل عمر ورسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضحك فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: مم تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ فقال: «**عجبت لهؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب**» فقال عمر: أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسول الله، ثم أقبل عليهن عمر فقال: يا عدوّات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قلن: نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجك**»(١).

:3Køøþ ø Ɨ

وقال ابن لقمان الحكيم لأبيه: يا أبت أي الخصال من الإنسان خير؟ قال الدين، قال: فإذا كانت اثنتين؟ قال: الدين والمال. قال: فإذا كانت ثلاثًا؟ قال: الدين والمال والحياء، قال: فإذا كانت أربعًا؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق، قال: فإذا كانت خمسا؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء، قال: فإذا كانت ستا قال يا بني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقى ولله ولي ومن الشيطان بري، وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه. وقال أنس بن مالك: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد. وقال يحيى بن معاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. وقال وهب ابن منبه: مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعاد طينا. وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني عابد سيي الخلق وصحب ابن المبارك رجلا سيي الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال: بكيته

(١) حديث: «إن عمر استأذن على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه..» الحديث. متفق عليه.

رحمة له فارقته وخلقه معه لم يفارقه وقال الجنيد: أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان. وقال الكناني: التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف. وقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال. وقال يحيى بن معاذ: سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات. وسئل ابن عباس: ما الكرم؟ فقال: هو ما بيّن الله في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣]، قيل: فما الحسب؟ قال: أحسنكم خلقا أفضلكم حسبًا. وقال لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق. وقال عطاء: ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فأقرب الخلق إلى الله عَزَّ وَجَلَّ السالكون آثاره بحسن الخلق.

ثانيًا: بيان حقيقة حسن الخلق:

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعلم أنَّ الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو، ولم يتعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته ومن ذلك:

قول الحسن: حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى.

وقول الواسطي: هو ألا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى.

وقال الواسطي مرة: هو إرضاء الخلق في السراء والضراء.

وقال شاه الكرماني: هو كف الأذى واحتمال المؤن.

وقال سهل التستري: أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه.

وغير ذلك كثير وسيأتي بيان حقيقته في شرح الحديث الخامس عشر إن شاء الله تعالى عند قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

ثالثًا: ما هي القوى التي تحتاج إلى تهذيب وبها تكتمل الأخلاق:

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومجامعُ القوى التي لا بدَّ مِن تهذيبها ثلاث: قوة التفكير، وقوة الشهوة، وقوة الغضب.

قوة الفكر: مهما هُذِّبَت قوة الفكر وأُصلِحَتْ كما ينبغي، حصلت بها الحكمة التي أخبر الله عنها حيث قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وثمرتها أن يتيسرَ له الفرقُ بين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الصدق والكذب في المقال، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، ولا يلتبس عليه شيء من ذلك، مع أنه الأمر الملتبس على أكثر الخلق، ويعين على إصلاح هذه القوة وتهذيبها ما أودعناه «معيار العلم».

والقوةُ الثانية: هِيَ الشهوةُ وبإصلاحها تحصل العفّةُ حتى تنزجرَ النفسُ عنِ الفواحشِ، وتنقادُ للمواساة والإيثار المحمود بقدر الطاقة.

والثالثة الحميّة الغضبية: وبقهرها وإصلاحها يحصل الحلم، وهو كظم الغيظ، وكف النفس عن التشفي، وتحصل الشجاعة، وهي كفّ النفس عن الخوف والحرص المذموميين في كتاب الله تعالى.

ومهما أصلحت القوى الثلاث وضبطت على الوجه الذي ينبغـي، وإلى الحد الذي ينبغي وجعلت القوتان منقادتين للثالثة، التي هي الفكرية العقلية، فقد حصلت العدالة. وبمثل هذا العدلِ قامتِ السماواتُ والأرضُ، وهي جِماعُ مكارمِ الشريعةِ، وطهارةُ النفسِ وحسنُ الخلقِ المحمودِ.

[ثم ضرب الغزالي مثالًا لهذه القوى المتنازعة في النفس] فقال:

مثل العقل مثل فارس متصيد، وشهوته كفرسه، وغضبه ككلبه، فمتى كان الفارس حاذقًا وفرسه مروَّضًا، وكلبه مؤدبًا معلَّمًا صار حريًا بالنُّجح، ومتى كان هو في نفسه أحمق

وكان الفرس جموحًا؛ والكلب عقورًا، فلا فرسه ينبعث تحته منقادًا ولا كلبه بسترسل باشارته مطيعًا، فهو خليق بأن يعطب فضلًا عن أن ينال ما طلب.

رابعًا: مراتب النفس في مجاهدة الهوى وتهذيب الأخلاق:

اعلم أن للإنسان في مجاهدة الهوى ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يغلبه الهوى، فيملكه ولا يستطيع له خلافًا، وهو حال أكثر الخلق، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان:٤٣]. إذ لا معنى للإله إلا المعبود، والمعبود هو المتبوع إشارته. فمن كان تردده في جميع أطواره خلف أغراضه البدنية وأوطاره، فقد اتخذ إلهه هواه.

الثانية: أن يكون الحرب بينهم سجالًا، تارة لها اليد وتارة عليها اليد. فهذا الرجل من المجاهدين. فإن اخترمته المنية في هذه الحالة، فهو من الشهداء، وهذه الرتبة العلياء لجميع المؤمنين، سوى الأنبياء.

الثالثة: أن يغلب هواه فيصير مستوليًا عليه لا يقهره بحال من الأحوال. وهذا هو الملك الكبير، والنعيم الحاضر، والحرية التامة، والخلاص عن الرق. ولذلك قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**ما من أحد إلا وله شيطان، ولي شيطان. وإن الله قد أعانني على شيطاني، حتى ملكته**»(١). وقال في حق عمر: «**ما سلك عمر فجًّا، إلا سلك الشيطان فجًّا غيره**»(٢).

الفرق بين إشارة العقل وإشارة الهوى:

اعلم أن ههنا منزلة قدم، فكم من إنسان يظن أنه نال هذه الرتبة، وهو في الحقيقة شيطانٌ مريدٌ، فإنَّه يتَّبعُ أغراضَه، ولكن يتعلَّلُ لأغراضه أنها من الدين، وأن طلبه لها

---

(١) الحديث جاء بلفظ: «**ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة**» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي ولكن الله أعانني عليه فأسلم**»، رواه البخاري وأحمد عن ابن مسعود وقوله: «فأسلم» روي بالرفع على أنه مضارع...... للمتكلم وروي بالفتح على أنه يحمل معنى فاستسلم.

(٢) متفق عليه ولفظه: «**.... يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما تعبك الشيطان سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك**».

لأجل الدين، حتى رأيت جماعة اشتغلوا بالوعظ والتدريس، والقضاء والخطابة، وأنواع الرياسة، وهم فيه متبعون للهوى. ويزعمون أن باعثهم الدين ومحركهم طلب الثواب، ومنافستهم عليها من جهة الشرع، وهي نهاية الحمق والغرور. وإنما يعرف حقيقة ذلك بأمر، وهو أن الوعظ المقبول، إن كان يعظ لله، لا لطلب القبول وقصده دعوة الخلق إلى الله، فعلامته أنه لو جلس على مكانه واعظ أحسن منه سيرة وأغزر منه علمًا، وأطيب منه لهجة، وتضاعف قبول الناس به بالنسبة إلى قبوله، فرح به وشكر الله على إسقاط هذا الفرض عنه بغيره، وبمن هو أقوم به منه. كمن تعين عليه جهاد كافر، وقتله، لارتداده، فنزلت بالكافر صاعقة أحرقته، وكفى مؤنته، والجهاد معه، فرح به وشكر الله تعالى. وهذه الحالة لا يصادفها من نفسه إلا الأولياء، وتكون إحدى آثارها الاحتراز بأقصى الإمكان كل ساعة.

فإن قلت فإذا كنا لا نأمن مثل التلبيس والخداع، بتزوير الشيطان والتدلي بحبل الغرور، كما حكي عن هؤلاء، فبم تميز بين إشارة العقل وإشارة الهوى؟ فاعلم أن هذا مطلب عويص، ولا خلاص منه إلا بالعلوم الحقيقية، ولا مغني فيه مثل ما أودعناه «معيار العلم»، إذ به ينكشف التلبيس عن الحق. ولكن القدر الذي ينبغي أن يفزع إليه عند التحيُّر أنْ يُعلَم أن العقل في أكثر الأمر يشير بالأصلح للعواقب، وإن كان فيه كلفة ومشقة في الحال، والهوى يشير بالاستراحة وترك التكلف؛ فمهما عرض لك أمران لم تدر أيهما أصوب، فعليك بما تكرهه لا بما تهواه؛ فأكثر الخُلُق في الكراهة. قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(١). وقال تعالى: ﴿**فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا**﴾ [النساء:١٩]. وقال تعالى: ﴿**وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ**﴾ [البقرة:٢١٦]. فكلما يشير عليك بالدعة

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

والرفاهية، وحظر التكلف وإيثار الراحة في الحال، فاتهم فيه نفسك، فإن حبك الشيء يعمي ويصم. وبالجملة فما يشير إليه العقل بقوته أفزع إلى العبادة والاستخارة فيه حتى ينشرح الصدر ويعضده الاستشارة، إذا استشير فيه أهله. وأكثر ما يلبس به الهوى معاذير مزخرفة. والعقل يرشد بحجج حقيقية.

والعاشق لشخص قبيح، أو المتناول لطعام بشع شغف به لعادتــه، لو روجع لزخرف فيه معاذير مموّهة، يشهد عليه العقل بأنَّه متصنِّع متكلف.

وبالجملة إدراك هذه الحقيقة لا يكون إلا بنور إلهيٍّ، وتأييد سماويٍ؛ فليكن الفزع إلى الله في مظان الحيرة. فقد قال بعض العلماء: إذا مال العقل إلى مؤلم في الحال، نافع في العاقبة، ومال الهوى نحو نقيضه الملذ في الحال، الوخيم في العقبى، وتنازعا وتحاكما إلى القوة المدبّرة المفكرة، سارع نورُ الله تعالى إلى نصرة العقل، وبادر وسواس الشيطان وأولياؤه إلى نصرة الهوى؛ وقام صف القتال بينهما. فإن كانت القوة المفكِّرة من حزب الشيطان وأوليائه، ذهلت عن نور الحق، وعميت عن نفع الآجل، واغترت بلذة العاجل، وجنحت إليه، وقهر أولياء الله. وإن كانت من حزب الله وأوليائه، اهتدت بنوره، واستهانت بالعاجلة، وطلبت الآجلة. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. وشبه الله العقل المهتدي بنور الله بشجرة طيبة، والهوى بشجرة خبيثة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٢٤]. فعند قيام الصفّ والتحام القتال بين هذين الجندين اللذين أحدهما من أعداء الله، والآخر من أولياء الله، لا سبيل إلا الفزع إلى الله تعالى والاستعاذة من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٠-٢٠١].

خامسًا: بيان ما يجب تحصيله من الأخلاق الفاضلة وكيفية الوصول إليها:

إذا عُرف أنَّ السعادة تُنال بتزكية النفس وتكميلها، وأن تكميلها باكتساب الفضائل كلها، فلا بد من أنْ يعرف الفضائل جملةً وتفصيلًا.

فأما الفضائل بجملتها، فتنحصر في معنيين:

أحدهما: جودة الذهن والتمييز.

والآخر: حسن الخلق.

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة. وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة، وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضًا. وهذا الاعتدال يحصل على وجهين:

أحدهما: بجود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالمًا بغير تعليم ومؤدبًا بغير تأديب، كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب فرب صبي خُلِقَ صادق اللهجة سخيًا جريًا، وربما يُخلَقُ بخلافه، فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق، وربما يحصل بالتعلم.

والوجه الثاني: اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب. فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفًا مجاهدًا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعًا له ويتيسر عليه فيصير به جوادًا، وكذا

من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقًا له وطبعًا فيتيسر عليه.

وجميع الأخلاق المحمودة شرعًا تحصل بهذا الطريق، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذًا فالسخي هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة.

و المتواضع هو الذي يستلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس، ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(١)، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به. نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير، ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ**﴾ [البقرة:٤٥]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير**»(٢)، ثم لا يكن في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر، وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل، ولذلك لما سئل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن السعادة فقال: «**طول العمر في طاعة الله تعالى**»(٣)، ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة.

---

(١) رواه النسائي في الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وغيرهما.

(٢) اللفظ الوارد: «واعلم أن النصر مع الصبر» عند الترمذي وحسنه وما ذكره الغزالي أخرجه الطبراني.

(٣) حديث: سئل عن السعادة فقال: «طول العمر في عبادة الله»، رواه القضاعي في مسند الشهاب، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف، وللترمذي من حديث أبي بكرة وصححه: أيُّ الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله».

وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ، وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات. وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عَزَّوَجَلَّ، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى، وذلك بأن يكون موزونا بميزان الشرع والعقل، ثم يكون بعد ذلك فرحًا به مستلذًّا له، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين. ومصير العبادات لذيذة فإن العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك؛ فإنا قد نرى الملوك والمنعمين في أحزان دائمة، ونرى المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلسا ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة. وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائمًا على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها في جو السماء، بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط، وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته في الصبر على ذلك حتى يرى ذلك فخرا لنفسه ويقطع الواحد منهم إربًا إربًا على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصر على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحًا بما يعتقده كمالًا وشجاعة ورجولية، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره.

فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف.

فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة؛ فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه، وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عَزَّوَجَلَّ ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها، فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معينًا له على حب الله تعالى وعلى دينه، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض.

فإذن قد عرفت بهذا قطعًا أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعا انتهاء، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح - أعني النفس والبدن - فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب، والأمر فيه دور، ويعرف ذلك بمثال: وهو أن من أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية - حتى يصير كاتبا بالطبع - فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن، فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفًا، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعا كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفًا، فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسنًا، ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع.

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس. وكذلك من أراد أن يصير سخيًّا عفيف النفس حليمًا متواضعًا فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفًا حتى يصير ذلك طبعًا له، فلا علاج له إلا ذلك، وكما أن طالب فقه النفس لا ييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم. وهو معنى قولنا إن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها، ثم تتداعى قليلًا قليلًا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأسًا فيفوتها فضيلة الفقه. وكذلك صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة.

وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئًا فشيئًا على التدريج - مثل نمو البدن وارتفاع القامة - فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال، ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد، فلكل واحد منها تأثير فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي، فله ثواب لا محالة فإن الثواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية. وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوما فيوما إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه. فكذا من يستهين صغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة، إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيدًا بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها. وهو المعني بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ [يس:٩] الآية. ولذلك قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الإيمان ليبدو في القلب

نكتة بيضاء، كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض، فإذا استكمل العبد الإيمان ابيضّ القلب كله. وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق أسودّ القلب كله.

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعًا. فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاثة حتى صار ذا فضيلة طبعًا واعتيادًا وتعلمًا فهو في غاية الفضيلة، ومن كان رذلًا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عَزَّوَجَلَّ، وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات، ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:٣٣].

❁ ❁ ❁

الحديث العاشر

Ɨ NJǚơ è

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أوصني؟ قال: «**لا تَغضبْ**» فردد مرارًا قال «**لا تغضبْ**» رواه البخاري والترمذي.

:(1) Pǽy Ʈǩƚ ƫƐ‖

يمكننا شرح الحديث من خلال النقاط الآتية:

:Ǵơƴ ƒ Ƹs ƍ ƝʒƥƐ ƚjƥ Ɨ NJǚǩƚ ƝʒǸ ǎ Ʊ ǯƙǾƛ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: كيف لا تَعظُم آفةُ الغضبِ وهو يحمل في الظاهر على الضرب والشتم وإطالة اللسان، وفي الباطن، على الحقد والحسد وإظهار السوء والشماتة والعزم على إفشاء السرّ وهتك الستر، والفرح بمصيبة المغضوب عليه والغم بمسرتّه. وكل واحدة من هذه الخبائث مهلك.

واعلم أنَّ الغضبَ شعلةَ نارٍ اقتُبسَتْ من نارِ الله الموقدة، التي تَطَّلع على الأفئدة، ومن غلب عليه فقد نزع إلى عرق الشيطان فإنه مخلوق من النار.

وكسْرُ شدَّة الغضب من المهمات في الدين. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس الشديدُ بالصُّرعَة، إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضب**»(2)، وقال رجل: يا رسول الله، أيُّ شيء أشد؟ قال: «**غضبُ الله**»، قال: فما ينقذني من غضبِ الله؟ قال: «**أن لا تغضب**»(3).

---

(١) الأربعين في أصول الدين (١٢٩-١٣١)، وميزان العمل (٩٦-٩٨).

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه أحمد وابن عبد البر وصححه ابن حبان.

: Ɨ NJŭǩƗ ǫʗ ƽ ā̇ℓ

اعلم أن الغضب ينقسم إلى محمود ومكروه ومحظور.

المحمود فهو في موضعين:

أحدهما: المسمى غيرة: وهو أن يقصد حريم الرجل ويتعرض لمحارمه. فالغضب له ولدفعه محمود، وقلة الاكتراث به خنوثة وركاكة، ولذلك قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إن سعدًا لغيور، وإن الله أغير منه**»(١)، ولقد وضع الله الغيرة في الرجال، لفظ الأنساب. فإن النفوس لو تسامحت بالتزاحم على النساء لاختلطت الأنساب.

ولذلك قيل: كل أمة وضعت الغيرة في رجالها، وضعت الصيانة في نسائها.

الثاني: الغضب عند مشاهدة المنكرات والفواحش: غيرة على الدين، وطلبًا للانتقام، ولذلك مُدِح الصحابة بكونهم أشداء على الكفار رحماء بينهم. فالمراد به الحدة لحمية الدين. ولذلك قال تعالى: ﴿**وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ**﴾ [النور:٢].

ومع هذه فالسلطان إذا غضب عند جناية جانٍ، فينبغي أن يحبسه ولا يبادر إلى عقوبته حتى يجدد النظر فيه، فإن الغضب غول العقل، فربما يحمله على مجاوزة حد الواجب في الانتقام.

الغضب المكروه:

فغضبه عند فوات حظوظه المباحة نيلها، كغضبه على خادمه وعبده عند كسر آنيته، أو توانيه في خدمته، بجكم تغافل يمكن الاحتراز عنه. فهذا لا ينتهي إلى حد المذموم، ولكن العفو والتجاوز أولى وأحب.

---

(١) رواه الشيخان عن المغيرة بلفظ: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني، ولأجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»... الخ.

ولذلك قيل لواحد حكيم: لِمَ تصفح عن عبدك وهو يقصر في خدمتك، فيفسد باحتمالك. فقال: «لأن يفسد عبدي في صلاح نفسي خير من أن تفسد نفسي في صلاح عبدي»، فإن احتمال ذلك إصلاح للنفس والانتقام إصلاح للعبد.

وأما المذموم:

هو الاستشاطة الصادرة عن الفخر والتكبر والمباهاة والمنافسة والحقد والحسد، وعن أمور واهيـة تتعلق بالحظوظ البدنية، من غير أن يكون في الانتقام مصلحة في المستقبل دينًا ودنيا، وهو الغالب على أكثر الخلق، وهو انقياد للخُلُق الذي يضاد الحِلْم والتحلُّم. فإنَّ الحِلْمَ عبارة عن إمساك النفس عن هيجان الغضب، والتَحلُّم عن إمساكها عن قضاء الوطر منه، إذا هاج، والكمال في الحلم، ولكن التحلم صبر على المكروه، وفيه أيضًا خير كثير. فهذه مراتب أفعال الغضب.

والناس في الغضب يختلفون، فبعضهم كالحلفاء، سريع التوقد، سريع الخمود، وبعضهم كالقطا بطيء الخمود، وبعضهم بطيء التوقد سريع الخمود، وهو الأحمد، ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة.

: ł NJŭkł ƙǨǛƺƹƿ

أما من جهة المزاج، فالحرارة واليبوسة، يدل عليهما تعريف الغضب، فإن الغضب معناه غليان دم القلب، فإن كان على مَنْ فوقك في القدرة على الانتقام، تولَّد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى القلب، وكان حزنًا، ولأجله يصفر الوجه.

وإن كان على مَنْ دونك تولد منه ثوران دم القلب، لا انقباضه، فيكون منه الغضب الحقيقي وطلب الانتقام.

وإن كان على نظيرك في القدرة على الانتقام، تولد منه تردد الدم بين انقباض وانبساط، ويختلف به لون الوجه فيحمر ويصفر ويضطرب. وبالجملة قوة الغضب محلها القلب، ومعناه حركة الدم وغليانه.

وأما ما وراء المزاج، فالاعتياد، فإن من يعاشر جماعة يباهون بالغضب والطباع السبعية انطبع ذلك فيه. وإن من خالط أهل الهدوء والوقار أثرت العادة أيضًا فيه.

وأما سبب المخرج له من القوة إلى الفعل في الحال، فهو العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والضيم وطلب ما فيه التنافس والتحاسد وشهوة الانتقام، وكل ذلك مذموم.

وحق من اعتراه الغضب أن يتفكر فيما قاله بعض الحكماء لبعض السلاطين وقد سأله حيلة في دفع الغضب، فقال: «ينبغي أن تذكر أنه يجب أن تطيع لا أن تطاع فقط، وأن تخدم لا أن تُخدم فقط، وأن تَحتمل لا أن تُحتَمل فقط، وأن تعلم أن الله يراك دائمًا، فإذا فعلت ذلك لم تغضب».

: ł NJŭǩł ƧÊŪ̄

لتعالج غضبك عليك بالتزام صفتين:

إحداهما: كسره بالرياضة: ولست أعني بكسره إماطته فإنه لا يزول أصله ولا ينبغي أن يزول، بل إن زال وجب تحصيله، لأنه آلة القتال مع الكفار، والمنع من المنكرات، والتكثير من الخيرات، وهو ككلب الصائد، إنما رياضته في تأديبه حتى ينقاد للعقل والشرع فيهيج بإشارة العقل والشرع، ويسكن بإشارتهماولا يخالفهما، كما ينقاد الكلب للصياد. وهذا ممكن بالمجاهدة، وهو اعتياد الحلم والاحتمال مع التعرض للمُغضِبات.

الثانية: ضبط الغضب عند الهيجان بالكظم: ويعين عليه علم وعمل.

أما العلم: فهو أن يعلمَ أنه لا سبب لغضبه إلا أنه أنكر أن يجري الشيء على مراد الله لا على مراده، وهذا غاية الجهل. والآخر أن يعلم أن غضب الله عليه أعظم من غضبه، وأن فضل الله أكبر، وكم عصاه وخالف أمره؛ فلِمَ يغضب عليه إن خالفه غيره، فليس أمره عليه ألزم على عبده وأهله ورفقته من الله عليه.

وأما العمل: فهو أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إذ يعلم أن ذلك من الشيطان، فإن لم يسكن، جلس إن كان قائمًا، ويضطجع إن كان قاعدًا، كذلك ورد الخبر(١)، فاختلاف الحال(٢) يؤثر في التسكين. وإن لم يسكن فيتوضأ. قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خُلقَ من النار، وإنما تُطفأُ النارُ بالماءِ فإذا غضبَ أحدُكُم فليتوَضَّأ**»(٣)، وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**ألا إن الغضب جمرةٌ في قلب ابن آدم، ألا ترونَ إلى حمرةِ عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن وجد من ذلك شيئًا فليضرب خدّه بالأرض**»(٤). هذه إشارة إلى تمكين أعز الأعضاء من أذلّ المواضع لينكسر الكبر، فإنه السبب الأعظم في الغضب ليعلم أنه ذليل فلا يليق به الكبر.

❁❁❁

---

(١) من ذلك ما رواه أبو داود عن أبي ذر مرفوعًا: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**» والحديث حسنه ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح (٤/ ٤٧)، والسيوطي في الجامع الصغير حكم بصجته رقم (٧٦٩).

(٢) أي من قيام إلى قعود إلى جلوس إلى اضطباع.

(٣) أخرجه أبو داود وأحمد والطبراني في الكبير.

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح.

الحديث الحادي عشر

ăÊƱăł ǫƷǨ Ğ ǭ ǬǯơăOƦŰƛ ƘǮǷ

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» رواه مالك في الموطأ بلاغًا [قال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح، منها ما رواه أحمد والخرائطي بسند صحيح بلفظ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»].

ƤǽƴƮǨł ţƐ‖[1]:

للغزالي في شرح هذا الحديث كلام طويل يمكن اختصاره في المحاور الآتية:

ĀǬǛǨłþ ĀǬǛǨł :ǫǸǶĀǭ :ğþăł ƷǸƮƷǨł:

قال الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ: الخُلُق والخَلْق عبارتان مستعملتان معًا، يقال: فلان حسن الخَلْق و الخُلُق - أي حسن الباطن والظاهر - فيراد بالخَلْق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مُدَركٌ بالبصر ومن روح ونفس مُدرَك بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرًا من الجسد المدرك بالبصر ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ**﴾ [ص:٧١-٧٢]. فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين. والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد.

فالخُلُقُ عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سميت تلك الهيئة خُلُقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة

---

(١) الإحياء (٣/ ٥٧) وما بعدها.

سميت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا. وإنما قلنا إنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم.

فههنا أربعة أمور؛ أحدها: فعل الجميل والقبيح. والثاني: القدرة عليهما والثالث: المعرفة بهما والرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين؛ إما الحسن وإما القبيح.

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوّة؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدّين واحد. وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعًا على وجه واحد. بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأنْ يصدر منها الإمساك أو البذل. فالخلق إذًا عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة.

وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقًا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر؛ فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق. فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو: قوة العلم،وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث.

أما قوة العلم: فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح

في الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة، وهي التي قال الله فيها: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

وأما قوة الغضب: فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حدّ ما تقتضيه الحكمة؛ وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع.

وأما قوة العدل: فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع؛ وبيان ذلك كالآتي:

فالعقل مثاله: مثال الناصح المشير. وقوة العدل هي القدرة، ومثالها مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل؛ والغضب هو الذي تنفذُ فيه الإشارة ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أنْ يؤدَّبَ حتى يكون استرساله وتوقُّفُه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس. والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروّضا مؤدّبًا وتارة يكون جموحًا؛ فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقًا. ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض.

وحسن القوّة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة. وحسن قوة الشهوّة واعتدالها يعبر عنه بالعفة فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهوّرًا، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبنًا وخورًا. وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرهًا وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودًا.

والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان، والعدل إذا فات فليس له طرفًا زيادة ونقصان بل له ضدّ واحد ومقابل وهو الجور.

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثًا ويسمى تفريطها بلهًا والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة.

:ΚΗϘΌǮ Ğ ϥλ ŬƩ ǂ ǩƗ ƊΚΣ ÆϥǩƗ ä Ê Ʊ ä Ɨ ϴΚΗϘ̄ϙ ǯΚǾλ :ÆƊΚƦǩƗ ʒǸƮǮǩƗ

أمهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل.

ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية.

ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها. ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها.

ونعني بالعفة تأدّب قوّة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها.

إذ من اعتدال قوة العقل: يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس. ومن إفراطها: يصدر المكر والخداع والدهاء. ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون؛ وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمرًا في شيء دون شيء. والفرق بين الحمق الجنون: أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض، وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أنْ يُختار فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسدًا.

وأما خلق الشجاعة: فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة. وأما إفراطها وهو التهوّر. فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب. وأما تفريطها

فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب.

وأما خلق العفة: فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع. وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط: فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك.

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة: وهي الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. والباقي فروعها.

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكًا مطاعًا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال.

ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد. فينبغي أنْ يُبعد، كما أن الأوّل قريب من الملك المقرّب فينبغي أن يقتدي به ويتقرّب إليه فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال.

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ**﴾ [الحجرات:١٥]، فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو

قوّة اليقين وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة. والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوّة الغضب على شرط العقل وحدّ الاعتدال. فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، إشارة إلى أن للشدّة موضعًا وللرحمة موضعًا، فليس الكمال في الشدّة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال. فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه.

Nyǵǩ ǫ Ǯǩł Ǡǽ Ƹ ǎ ƛ ƸǾǾǚǭǫǩ ǬǶǖǶǨǚǍƿ Ƨ ǨǅǩŁ ǟÊƱ ǧǸǚ ǯǨǾƛ :ƤǩǨǨǩŁ ǯǸƮǮǩŁ

:ŋǚǾǎǩł ǟÊƱǟł ǩǨşǭ ǥ ł ǺǫǕ ƝƸƛǨǨǮǩłƿ

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخيلته، - أي باطنه - فزعم أن الأخلاق لا يتصوّر تغييرها فإن الطباع لا تتغير.

واستدل فيه بأمرين:

أحدهما: أن الخُلُق هو صورة الباطن كما أن الخَلْق هو صورة الظاهر. فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلًا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرًا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى.

والثاني: أنهم قالوا حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب. وقد جرّبنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة. فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده.

فنقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا معاذ، أحسن خلقك للناس**»(١)، ولبطل قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**حسنوا أخلاقكم**»(٢)، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس والكلب، من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق.

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلًا وخارجًا وسائر أجزاء الحيوانات. وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلى ما وجد وجودًا ناقصًا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه. وشرطه قد يرتبط باختيار العبد، فإنَّ النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربة إليها ولا تصير تفاحًا أصلًا ولا بإضافة التربة، فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلًا ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه. وقد أُمِرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى.

نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول.

ولاختلافها سببان:

أحدهما: قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدّة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمرًا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة، فإنها

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٠٢) والمنذري في الترغيب (٥٠٦).

(٢) قال العراقي: أخرجه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ السابق منقطع ورجاله ثقات (الإحياء ٣/ ٦١).

أقدم وجودًا إذ الصبي في مبدإ الفطرة تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز.

والسبب الثاني: أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنًا ومرضيًا والناس فيه على أربع مراتب:

الأولى: وهو الإنسان المغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقي كما فطر عليه خاليًا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضًا باتباع اللذات، فهذا سريع القبول للعلاج جدًا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان.

والثانية: أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعوّد العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادًا لشهواته وإعراضًا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه؛ إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أوّلًا من كثرة الاعتياد للفساد، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح، ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم.

والثالثة: أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور، وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

والرابعة: أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب. وفي مثله قيل: ومن العناء رياضة الهرم، ومن التعذيب تهذيب الذيب.

والأول: من هؤلاء جاهل فقط.

والثاني: جاهـل وضـال.

والثالث: جاهـل وضـال وفاسـق.

والرابع: جاهـل وضال وفاسق وشرير.

وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به: وهو قولهم إن الآدمي ما دام حيًا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية، لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك.

ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال.

وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهوّر وعن الجبن جميعًا. وبالجملة أن يكون في نفسه قويًا ومع قوته منقادا للعقل. ولذلك قال الله تعالى: ﴿**أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح:٢٩]، ووصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد. وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لم ينفكوا عن ذلك، إذ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر**»(١)، وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمرّ وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقًّا فكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يخرجه غضبه عن الحق(٢).

---

(١) حديث: «**إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر**» أخرجه مسلم من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة: «**إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر**».

(٢) حديث: «أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقًّا، فكان =

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران:١٣٤]، ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حدّ الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن، وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش. وبالرياضة تعود إلى حدّ الاعتدال فدل أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها.

والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعًا وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير. وقد أثنى الله تعالى عليه: فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان:٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]، وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود. قال الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]، وقال في الغضب: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾.

وهذا له سر وتحقيق، وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم: قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء:٨٩]، والبخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضًا من عوارض الدنيا، وشرط القلب أن يكون سليمًا منهما أي لا يكون ملتفتًا إلى المال ولا يكون حريصا على إنفاقه ولا على إمساكه، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك

=الغضب لا يخرجه عن الحق»، أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال: لأن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهما من حديث أبي سعيد الخدري: وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه. ولهما من حديث عائشة: «وما انتقم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله»، ولمسلم: «ما ينال منه شيء قط فينتقم من صاحبه...» الحديث.

فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعًا. وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين، وأبعد عن الطرفين وهو الوسط فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير. والشجاعة بين الجبن التهوّر. والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأسًا ويذم إمساك المال رأسًا ولا يرخص له في شيء منه؛ لأنه لو رخص له في أدنى شيء اتخذ ذلك عذرًا في استبقاء بخله وغضبه وظن أنه القدر المرخص فيه؛ فإذا قصد الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر سورته بحيث يعود إلى الاعتدال، فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر المقصود. فلا يكشف هذا السر للمريد فإنه موضع غرور الحمقى إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق.

❁❁❁

الحديث الثاني عشر

ꝄΣ ÊČĈĩ ǾÓĂÓ g p ǯǁ ǎ Ø ǂ ǩǂ 2 pǁ5p

عَن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**في القلب لُمَّتان: لُمَّةٌ مِن الملَكَ: إيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحقِّ، فمَنْ وَجَدَ ذلك فَلْيَعلَمْ أنَّه مِن اللهِ سُبحانه وليحمدِ اللهَ، ولَمَّةٌ من العدوِّ: إيعادٌ بالشرِّ وتكذيبٌ بالحقِّ ونهيٌ عن الخَير، فَمَنْ وَجَدَ ذلك فليستعِذْ بالله مِن الشيطانِ الرجيم**» ثم تلا قوله تعالى: ﴿**ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٦٨]، الحديث أخرجه الترمذي وحسَّنه والنسائي في الكبرى(١).

:(٢) PǽγҀǩǂ ţƐǁ

:ǰǾǫǯǫǩǂ ǰǾǁǥ ǰǭ Ⱨǡ ǸǫǕǽ ѐ :ѐǷǫ

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: أعلم أن القلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحًا متساويًا ليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدته، لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم؛ ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من

(١) نقلًا عن تخريجات العراق على الإحياء (٣/ ٣٠).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٠) وما بعدها.

صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة.

ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما منكم من أحد إلا وله شيطان**» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير**»(١)، وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحدّ الذي ينبغي فشهوته لا تدعو إلى الشر فالشيطان المتدرّع بها لا يأمر إلا بالخير.

ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس. ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم.

والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن، ويكون اجتياز الثاني اختلاسًا. وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآخرة. ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى. ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة.

قال جابر بن عبيدة العدوي: شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال: إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه. يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢]، فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان. وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية:٢٣]، وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله. ولذلك قال عمرو ابن العاص للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال: «**ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوّذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثًا**» قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني[1].

ÙƐūǾǩ ƘǵƷƴdžǭ ŋəƐūǭƥ ƻ ƥƘƽƥ ǰǭ ǯƘȿǁÈǩ Ɛă Uǽ Ƙǭ ǺǫŪ ÙǸāǸǩł ŊƷƥƐǉ :ƘǻǁƘƥ

:ƘƗūǭ ǨǭƘūǪǩł ŋǾǞǾ ƺ

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

ما يُعلَم قطعًا أنه داع إلى الشر فلا يخفى كونه وسوسة.

ما يعلَم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهامًا.

ما يتردد فيه فلا يدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان؟ فإن من مكايد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير.

والتمييز في ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون، فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصوّر الشر بصورة الخير. كما يقول للعالم بطريق الوعظ: أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النار؟ أما لك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة؟ فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم؟ وهو لا يزال يقرّر ذلك في نفسه ويستجرّه بلطيف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس، ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له: إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم

---

(١) أخرجه مسلم، العراق من الإحياء (٣/ ٣٣).

ولم يهتدوا إلى الحق. ولا يزال يقرّر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك؛ فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول، فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم**»(١)، و«**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»(٢)، ولذلك روى أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: قل لا إله إلا الله. فقال: كلمة حق ولا أقولها بقولك. لأن له أيضًا تحت الخير تلبيسات، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تتناهى وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة.

فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ليعلم أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ** ﴾ [الأعراف:٢٠١]، أي رجعوا إلى نور العلم: ﴿ **فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ** ﴾ أي ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يَرضُ نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر. وفي مثلهم قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ** ﴾ [الزمر:٤٧]، قيل هي أعمال ظنوها حسنات فإذا هي سيئات.

---

(١) أخرجه النسائي بإسناد جيد، العراق من الإحياء (٣/ ٣٣).
(٢) متفق عليه.

وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكايد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه.

ǳƩǾƥƎơ ηǾǞǾ ǥ ƿ ʓƙăǾǂǩł ƟłƵ ǰǕ ƤƮɯǩƙƛ ǧƙǘƣǁ èł ǫƴǕ ǺƣǕ ǴǾɯǲƣǩł :ƙƦǩƙƥ

: Ǥ ƣʓǩł ƟłƵ Ǽə ƤƮɯǩł Ǥ ǩƶ ǥ ƿ ʓƙʂƞâł ǺƣǕ

لقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار - آنف الذكر - معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر، مَن ينظر أي يبحث في ذات الشيطان أنه جسم لطيف أو ليس بجسم؛ وإن كان جسماً فكيف يدخل بدن الإنسان ما هو جسم؟ فهذا الآن غير محتاج إليه في علم المعاملة. بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في ثيابه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فمصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد عُلِمَتْ ودل ذلك على أنه عن سبب لا محالة، وعُلِمَ أنّ الداعي إلى الشر المحذور في المستقبل عدوٌّ فقد عرف العدوّ لا محالة، فينبغي أن يشتغل بمجاهدته؛ وقد عَرَّفَ اللهُ سبحانه عداوتَه في مواضِعَ كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس:٦٠]. فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدوّ عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه. نعم ينبغي أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالمين.

فأما معرّفة ذاته وصفاته وحقيقته - نعوذ بالله منه- وحقيقة الملائكة.

ƻ ƿƘƽƿ ƳƐĂ Ǽə ǔəƘǅƶǩł ǄłƿƴǬǩłƿ ǔΣƘǅƶǩł ƧÊǖǩł Ǹǵ ǺǩƘǖơ Ĉ Ɛ ǥ ƶǩł :ƘǖǓłƷ

:ǯƘǎǾ ǂ ǩł

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال. ولا يعالج الشيء إلا بضدّه وضدّ جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرئ عن الحول والقوّة، وهو معنى قولك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة. قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ** ﴾ [الأعراف:٢٠١]، وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى: ﴿ **مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ** ﴾ [الناس:٤]، قال: هو منبسط على القلب؛ فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على قلبه.

فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار، ولتضادهما قال الله تعالى: ﴿ **ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ** ﴾ [المجادلة:١٩]، وقال أنس: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إنّ الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسي الله تعالى التقم قلبه**»(١).

ثم قال رَحِمَهُٱللَّهُ في بيان إمكان النجاة من الشيطان: أهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة، أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التي تفضي إلى المعاصي الظاهرة، وإنما يتعثرون في طرقه الغامضة فإنهم لا يهتدون إليها فيحرسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعاظ؛ والمشكل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد، وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة

(١) قال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكائد الشيطان وأبو يعلى الموصلي وابن عدي في الكامل وضعفه. وأخرجه الشوكاني في «رفع البأس عن حديث النفس» وحكم بصحته.

فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة؛ والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفى بالتقوى والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يهدي إلى غوامض طرقه، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة.

ثم إنه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بدّ من مجاهدته، وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت إذ لا يتخلص أحد من الشيطان ما دام حيًّا. نعم قد يقوى بحيث لا ينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد، ولكن لا يستغني قط عن الجهاد والمدافعة ما دام الدم يجري في بدنه؛ فإنه ما دام حيًا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق وهي الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها؛ ومهما كان الباب مفتوحًا والعدوّ غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة.

:ǯǨăǾǂǩǶ ǛƩăǽ ǻzǩǶ Ʃ ǥ zǩǶ ǙǸǋ ǯǨǾǅ :ǨȂǭǨƱ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن قلت: فما العلاج في دفع الشيطان، وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة كالكبر والحسد وحب الدنيا فإذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب، فلا يدفع سلطان الشيطان. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]، خصص بذلك المتقي، فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ، فمجرد الصوت يدفعه.

فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان في سويداء القلب. وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوّها بالغفلة عن الذكر، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨]، وسائر الأخبار والآيات الواردة في الذكر.

وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقًا بأن الذكر يطرد الشيطان ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر إلى نفسك، فليس الخبر كالعيان، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة؛ فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب المعاندين وكيف يمرّ بك في أودية الدنيا ومهالكها حتى إنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت؟ فالصلاة محك القلوب فبها يظهر محاسنها ومساوئها؛ فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا؛ فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر، فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدّم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفرُّ الشيطان منك كما فرّ من عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. ولذلك قال وهب بن منبه: اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر؛ أي أنت مطيع له وقال بعضهم: يا عجبًا لمن يعصي المحسن بعد معرفته بإحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه. وكما أن الله تعالى قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:٦٠]، وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكرِ والدعاء.

الحديث الثالث عشر

ǯǁsǁâŧ ğÊlj â ǯǁăØǂǩŧ ǨƱŧÿǭ ǯǁØλ

قال عبدُ الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «خطَّ لنا رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يومًا خطًّا، وقال: «**هذا سبيل اللهِ**» ثُمَّ خَطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شمالِهِ ثُمَّ قال: «**هذه سُبُلٌ على كلّ سبيلٍ مِنها شيطانٌ يدعو إليه**»، ثُمّ تَلا: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ**﴾ لتلك الخطوط» أخرجه النسائي في الكبرى والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وحديث آخر بمعناه عن سبرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ الشيطانَ قعدَ لابنِ آدم بطُرقٍ: فقَعدَ له بطريقِ الإسلامِ، فقال: أتسلمُ وتترك دَينك ودين آبائك؟ فعصاه وأسَلَمَ، ثُمَّ قَعدَ له بطريقِ الهجرة، فقال: أتُهاجر أَتدعَ أرضك وسماءَك؟ فعصاه وهاجرَ، ثُمَّ قَعدَ له بطريقِ الجهادِ فقال: أتُجاهِد وهو تَلَفُ النفسِ والمالِ، فتقاتلْ فتُقتلْ فتُنكحُ نساؤك ويُقسمُ مالك؟ فعصاه وجاهد**»، أخرجه النسائي إسناد صحيح.

ǂƐ ǩŧ ƮÿæƤ[(١)]:

ƿǛëː ǭ ʅǁğÿƝ ǩŧ ǂØăǁǯ əƐǇ:

اعلم أنّ مثال القلب مثال حصن والشيطان عدوّ يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدوّ إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه، فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضًا واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة.

---

(١) الإحياء (٣/ ٣٥) وما بعدها.

ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان. وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه وهو الذي يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة[١]، فلنذكر مثالاً لطريقه الواضح الذي لا يخفى إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه. وذلك كما روى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**كان راهب في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب، فأتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها، فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى واقعها فحملت منه، فوسوس إليه وقال: الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن سألوك فقل ماتت، فقتلها ودفنها، فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ودفنها، فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال: ماتت، فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال: أنا الذي خنقتها وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها فأطعني تنج وأخلصك منهم قال: بماذا؟ قال: اسجد لي سجدتين؛ فسجد له سجدتين فقال له الشيطان: إني برئ منك. فهو الذي قال الله تعالى فيه:** ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر:١٦]»[٢]، فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبائر، وكل ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة وهو أمر هين وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة؛ فيحسُنُ ذلك في قلبه بخفي الهوى، فيقدم عليه كالراغب في الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجرّه البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصًا: فنعوذ بالله من تضييع أوائل الأمور وإليه الإشارة بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه**»[٣].

(١) عند شرحه للحديث السابق.
(٢) انظر تفسير ابن كثير، ورواه الحاكم في المستدرك موقفًا على علي بن أبي طالب وصححه.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

ŘǾdžĀǫǩł ÅǪŪ ǯǨăǾǂǩł ŘƱłƴǬ ǯǨǾƛ :ǨǾǬǨþ:

المدخل الأول: الغضب والشهوة: فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة؛ فإن الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان. ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة. وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس: أرني كيف تغلب ابن آدم؟ فقال: آخذه عند الغضب وعند الهوى، فقد حكى أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب: أي أخلاق بني آدم أعون لك؟ قال الحدّة فإن العبد إذا كان حديدًا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة. وقيل: إن الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه؟

المدخل الثاني: الحسد والحرص: ومن أبوابه العظيمة: الحسد والحرص فمهما كان العبد حريصًا على كل شيء أعماه حرصه وأصمه. إذ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حبك للشيء يعمي ويصم**»(١)، ونور البصيرة هو الذي يُعرِّف بمداخل الشيطان فإذا غطه الحسد والحرص لم يبصر؛ فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسُنُ عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته؛ وإن كان منكرًا وفاحشًا. فقد روي «أن نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى، فرأى في السفينة شيخًا لم يعرفه فقال له نوح: ما أدخلك؟ فقال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك، فقال له نوح: أخرج منها يا عدوّ الله فإنك لعين، فقال له إبليس: خمس أهلك بهن الناس وسأحدّثك منهن بثلاث ولا أحدّثك باثنتين، فأوحى الله تعالى إلى نوح: أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدّثك بالاثنين، فقال له نوح: ما الاثنتان؟ فقال: هما اللتان لا تكذباني هما اللتان لا تخلفاني بهما أهلك الناس؛ الحرص والحسد، فبالحسد

(١) قال العراقي: أخرجه أبو داود بإسناد ضعيف.

لعنت وجعلت شيطانًا رجيمًا وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرص».

المدخل الثالث: الشبع من الطعام وإن كان حلالًا صافيًا: ومن أبوابه العظيمة: الشبع من الطعام وإن كان حلالًا صافيًا؛ فإنّ الشبع يقوّي الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان. فقد روي أنّ إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له: يا إبليس ما هذه المعاليق؟ قال هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم فقال: فهل لي فيها من شيء؟ قال: ربما شبعت فثقَّلناك عن الصلاة وعن الذكر، قال: فهل غير ذلك؟ قال لا. قال: «لله عليَّ أن لا أملأ بطني من الطعام أبدًا» فقال له إبليس: «ولله عليَّ أن لا أنصح مسلمًا أبدًا».

ويقال في كثرة الأكل ست خصال مذمومة؛ أولها: أن يذهب خوف الله من قلبه. الثاني: أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شباع. والثالث: أنه يثقل عن الطاعة. والرابع: أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة. والخامس: أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس. والسادس: أن يهيج فيه الأمراض.

المدخل الرابع: الطمع في الناس: ومن أبوابه العظيمة: الطمع في الناس، لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك. وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له: يا ابن حنظلة احفظ عني شيئا أعلمك به فقال: لا حاجة لي به. قال: « انظر فإن كان خيرًا أخذت وإن كان شرًا رددت، يا ابن حنظلة لا تسأل أحدًا غير الله سؤال رغبة، وانظر كيف تكون إذا غضبت، فإني أملكك إذا غضبت».

المدخل الخامس: حبُّ التزيُّن: ومن أبوابه: حب التزين من الأثاث والثياب والدار، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالبًا على قلب الإنسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره، وإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض؛ فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه.

المدخل السادس: التعصب للمذاهب والأهواء: ومن أبوابه العظيمة: التعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار، وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعًا فإن الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية، فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين، فترى الواحد منهم يتعصب لأبي بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لأنواع الفساد، ولو رآه أبو بكر لكان أوّل عدوّ له إذ موالي أبي بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه، وكان من سيرته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يضع حصاة في فمه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه فأنى لهذا الفضولي أن يدعى ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته؟ وترى فضوليًّا آخر يتعصب لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان من زهد علي وسيرته أنه لبس في خلافته ثوبًا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكُمَّيْنْ إلى الرسغ، ونرى الفاسق لابسًا الثياب الحرير ومتجملًا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويدعيه وهو أول خصمائه يوم القيامة، وليت شعري من أخذ ولدًا عزيزًا لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه

فأخذ يضربه و يمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعي حب أبيه وولاءه فكيف يكون حاله عنده؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، من الأهل والولد، بل من أنفسهم والمقتحمون لمعاصي الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدوّ الله إبليس وعدوّ أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى؟ لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم؟ ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات محبًا لأبي بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محبًا لعلي لم يكن عليه خوف، وهذا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لفاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وهي بضعة منه[(١)]: «**اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئًا**»، حديث: «**إني لا أغني عنك من الله شيئًا**»[(٢)] وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء.

وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له: كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان؛ فما بالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذبًا؟ وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم، وقد سُلِّمتْ المدارس لأقوام قل من الله خوفهم وضعفت في الدين بصيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب، فحبسوا ذلك في صدورهم ولم

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

ينبهوهم على مكايد الشيطان فيه، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فالله تعالى يتوب علينا وعليهم.

وقال الحسن: بلغنا أن إبليس قال: سولت لأمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار فسوّلت لهم ذنوبًا لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء. وقد صدق الملعـون فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها؟.

المدخل السابع: الاشتغال بالخلافات الواقعة بين الناس: ومن عظيم حيل الشيطان أن يُشغِلَ الإنسانَ عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات. قال عبد الله بن مسعود: جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع، فأتى رفقة أخرى يتحدّثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون - وليس إياهم يريد - فقام الذين يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم، وذلك مراد الشيطان منهم.

المدخل الخامس التفكر في ذات الله تعالى: ومن أبوابه؛ حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يبلغها حدّ عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين، أو يخيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير أحدهم بها كافرًا أو مبتدعًا وهو بها فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشدّ الناس حماقة أقواهم اعتقادًا في عقل نفسه وأثبت الناس عقلًا أشدّهم اتهامًا لنفسه وأكثرهم سؤالًا من العلماء. قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**. فيقول: فمن خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك**

فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه»[١] . والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء، فالعامي لو يزني ويسرق كان خيرًا له من أن يتكلم في العلم فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غير إتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري، كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد، والمذاهب لا تحصر وإنما أردنا بما أوردناه المثال.

المدخل التاسع سوء الظن بالمسلمين: ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ**﴾ [الحجرات:١٢]، فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطيل فيه اللسان بالغيبة فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتوانى في إكرامه وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه. وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم فقد جاء في الحديث أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان معتكفًا في المسجد قالت: فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فمرَّ به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال: «**إنها صفة بنت حيي**»، فقالا: يا رسول الله ما نظن بك إلا خيرًا فقال: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإني خشيت أن يدخل عليكما شرًا**»[٢] . فانظر كيف أشفق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دينهما فحرسهما؟ وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله؟ فيقول: مثلي لا يظن به إلا الخير إعجابًا منه بنفسه. فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم، ولذلك قال الشاعر:

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) متفق عليه.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر. فمهما رأيت إنسانا يسيء الظن بالناس طالبًا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق.

المدخل العاشر: ترك العجلة والتثبت في الأمور: ومن أبوابه العظيمة: العجلة وترك التثبت في الأمور، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**العجلة من الشيطان والتأني من الله تعالى**»[1]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ**﴾ [الأنبياء:٣٧]، وقال تعالى: ﴿**وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا**﴾ [الإسراء:١١]، وقال لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ**﴾ [طه:١١٤]، وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل، والعجلة تمنع من ذلك، وعند الاستعجال يروّج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري.

المدخل الحادي عشر: الدراهم والدنانير: [حب المال] ومن أبوابه العظيمة الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار؛ فإن كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب. فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى، وقد كان قبل وجود المائة مستغنيًا، فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنيًّا وقد صار محتاجًا إلى تسعمائة ليشتري دارا يعمرها وليشتري جارية وليشتري أثاث البيت ويشتري الثياب الفاخرة، وكل شيء

(١) رواه الترمذي بلفظ: «**الأناءة من الله والعجلة من الشيطان**» وقال: حسن غريب.

من ذلك يستدعي شيئًا آخر يليق به. وذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواه.

قال ثابت البناني لما بعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاءوا وقالوا ما ندري؟ قال: أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال قد بعث الله محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فينصرفون خائبين ويقولون: ما صحبنا قوما قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحي ذلك، فقال لهم إبليس: رويدا بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا(١).

المدخل الثاني عشر: البخل والخوف من الفقر: ومن أبوابه العظيمة: البخل وخوف الفقر؛ فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز، ينسى أن الله قد أعد والعذاب الأليم للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز. قال خيثمة بن عبد الرحمن: إن الشيطان يقول: ما غلبني ابن آدم غلبة فلن يغلبني على ثلاث؛ أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه. وإنفاقه في غير حقه، ومنعه من حقه. وقال سفيان: ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء.

فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبه على غيره فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله.

---

(١) قال العراقي: «أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان مرسلًا».

ÝƐƦ ǥ ǫ ǫ ƴ ƭ ƥ ǯ ǎ Ǿ ƞ Ǿ ǆ ǖ Ǯ Ǻ Ǽ Ǖ ƚ ƴ :ƦƄ

فإن قلت: فالداعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون؟ فاعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في المعاملة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته. كُلِ البقل من حيث يؤتي ولا تسأل عن المبقلة، ولكن الذي يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار: أنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصي شيطانًا يخصه ويدعو إليه فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذي ذكرناه وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب.

❁ ❁ ❁

الحديث الرابع عشر

5 ĀDžkŁ Pǽy ʃ ʄ ǰŨ ƐpƘ ʅ qkŁ

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدَّث به أنفسها ما لم يتكلموا به أو يعملوا**»، متفق عليه واللفظ لمسلم.

ǁ ȚƐ ŤǬkŁ Pǽy[1]:

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أولًا: بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به:

اعلم أن هذا أمر غامض، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على جهابذة العلماء بالشرع. فقد روي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**عفى عن أمتي ما حدّث به نفوسها ما لم تتكلم به أو تعمل به**»[2]، وقال أبو هريرة: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله تعالى يقول للحفظة: إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا همَّ بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرًا**»[3]، وقد خرَّجه البخاري ومسلم في الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة. وفي لفظ آخر: «**مَنْ همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومَنْ همَّ بحسنةٍ فعملها كتبت له إلى سبعمائة ضعف، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها**

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٣) وما بعدها.

(٢) حديث: «عفى لأمتي عما حدثت به نفوسها» متفق عليه من حديث أبي هريرة: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها...» الحديث.

(٣) حديث أبي هريرة: «يقول الله: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه...» الحديث، قال المصنف: أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين. قلت: هو كما قال واللفظ لمسلم فلهذا والله أعلم قدمه في الذكر.

لم تكتب عليه وإن عملها كتبت»، وفي لفظ آخر: «**وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها**»، وكل ذلك يدل على العفو.

فأما ما يدل على المؤاخذة فقوله سبحانه: ﴿**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ**﴾ [البقرة:٢٨٤]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا**﴾ [الإسراء:٣٦]، فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفي عنه وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلْبُهُۥ**﴾ [البقرة:٢٨٣].

وقوله تعالى: ﴿**لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾ [البقرة:٢٢٥].

والحق عندنا في هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح.

فنقول: أوّل ما يرد على القلب الخاطر، كما لو خطر له مثلًا صورة امرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرآها.

والثاني: هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة في الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول ونسميه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس.

والثالث: حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات؛ وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل، ويسمى هذا اعتقادًا وهو يتبع الخاطر والميل.

الرابع: تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه همًا بالفعل ونيةً وقصدًا، وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار إرادة مجزومة، فإذا انجزمت الإرادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل.

فههنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة: الخاطر وهو حديث النفس، ثم الميل، ثم الاعتقاد، ثم الهم.

فنقول: أما الخاطر فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضًا تحت الاختيار، وهما المرادان بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عفى عن أمتي ما حدثت به نفوسها**»، فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل.

فأما الهم والعزم فلا يسمى حديث النفس، بل حديث النفس كما روي عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله، نفسي تحدثني أن أطلِّق خولة، قال: «**مهلًا إن من سنتي النكاح**» قال: نفسي تحدثني أن أجب نفسي، قال: «**مهلًا خصاء أمتي دؤوب الصيام**»، قال: نفسي تحدثني أن أترهب، قال: «**مهلًا رهبانية أمتي الجهاد والحج**»، قال: نفسي تحدثني أن أترك اللحم، قال: «**مهلًا فإني أحبه ولو أصبته لأكلته ولو سألت الله لأطعمنيه**»[١]، فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس، ولذلك شاور رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل.

---

(١) حديث عثمان بن مظعون رواه الترمذي الحكيم في النوادر والطبراني في معجم الصحابة بإسناد حسن، العراقي في تخريجه على الإحياء (٣/ ٤٥).

وأما الثالث: وهو الاعتقاد: وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل فهذا تردد بين أن يكون اضطرارًا أو اختيارًا، والأحوال تختلف فيه فالاختياري منه يؤاخذ به والاضطراري لا يؤاخذ به.

وأما الرابع: وهو الهم بالفعل؛ فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نُظِر: فإن كان قد تركه خوفًا من الله تعالى وندمًا على همه كتبت له حسنة؛ لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة؛ والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوّة عظيمة فجدُّه في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى؛ والعمل لله تعالى أشدّ من جدِّه في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتب له حسنة لأنه رجح جدَّه في الامتناع وهمَّه به على همِّه بالفعل، وإن تعوَّق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفًا من الله تعالى كتبت عليه سيئة، فإنَّ همَّه فعل من القلب اختياري.

والدليل على هذا التفصيل ما روي في الصحيح مفصلًا في لفظ الحديث قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قالت الملائكة** عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: **رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال: ارقبوه، فإن هو عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرّائي**»[(١)]، وحيث قال: فإن لم يعملها: أراد به تركها لله.

فأما إذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة؟ وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما يحشر الناس على نياتهم**»[(٢)]، ونحن نعلم أنَّ من عزم ليلاً

---

(١) حديث: «قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر...» الحديث، قال المصنف إنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «**إنما يحشر الناس على نياتهم**» أخرجه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله: «إنما»، وله من حديث أبي هريرة: «إنما يبعث الناس على نياتهم» وإسنادهما حسن ومسلم من حديث عائشة: «**يبعثهم الله على نياتهم**» وله من حديث أم سلمة: «**يبعثون على نياتهم**».

على أن يصبح ليقتل مسلمًا أو يزني بامرأة فمات تلك الليلة مات مصرًا ويحشر على نيته وقد همَّ بسيئة ولم يعملها.

والدليل القاطع فيه ما روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» فقيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**لأنه أراد قتل صاحبه**»(١)، وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قُتِلَ مظلومًا: فكيف يُظنُّ أن الله لا يؤاخذ بالنية والهمِّ؟ بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة، ونقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنه.

وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف ما لا يطاق، ولذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ**﴾ [البقرة:٢٨٤]، جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: كلفنا ما لا نطيق إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك؟، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا**» فقالوا سمعنا وأطعنا(٢)، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة:٢٨٦]، فظهر به أن كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به. فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس.

وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يغلط وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب

---

(١) حديث: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» الحديث متفق عليه من حديث أبي بكرة.

(٢) حديث: لما نزل قوله تعالى: ﴿**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ**﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: كلفنا ما لا نطيق.. الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس نحوه.

والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب؟ بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولًا؟ أي ما يدخل تحت الاختيار. فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي محرم لم يؤاخذ به فإن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذًا به لأنه مختار فكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل. قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التقوى ههنا**» وأشار إلى صدره[١]، وقال الله تعالى: ﴿ **لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾ [الحج:٣٧]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإثم حواز القلوب**»[٢]، وقال: «**البر ما اطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك**»[٣]، حتى إنا نقول إذا حكم القلب المفتي بإيجاب شيء وكان مخطئًا فيه صار مثابًا عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلي؛ فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله. فإن تذكر ثم تركه كان معاقبًا عليه. ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية. فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وإن كانت زوجته. وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح.

:ÙKDzDžǫ 2 ꞮŃ5ŇǩꞮþ :ǨǬǻZǨþ

الأول: أن يكون من جهة التلبيس بالحق، فإنّ الشطيان قد يلبس بالحق فيقول للإنسان تترك التنعم باللذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه: الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشدّ منه، ولا بد من أحدهما فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده وجدّد إيمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب، إذ لا يستطيع

(١) حديث: «التقوى ههنا وأشار إلى صدره» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال - إلى صدره.

(٢) حديث: «الإثم حواز القلوب» أخرجه السيوطي في الجامع الصغير برقم (٣٩٣٢) وحسنه.

(٣) حديث: «البر ما اطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك» أخرجه الطبراني من حديث أبي ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفيه: «وإن أفتاك الناس وأفتوك» وقد تقدما.

أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول المعصية لا تفضي إلى النار، فإنّ إيمانه بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه. وكذلك يوسوس إليه بالعجب بعمله فيقول: أي عبد يعرف الله كما تعرفه ويعبده كما تعبده؟ فما أعظم مكانك عند الله تعالى! فيتذكر العبد حينئذ أنّ معرفته وقلبه وأعضاءه التي بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يعجب به؟ فيخنس الشيطان إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله، فإن المعرفة والإيمان يدفعه. فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة.

الصنف الثاني: أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها، وهذا ينقسم إلى ما يعلم العبد يقينًا أنه معصية وإلى ما يظنه بغالب الظن. فإنْ عَلِمهَ يقينا خنس الشيطان عن تهييج يؤثر في تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهييج وإن كان مظنونًا فربما يبقى مؤثرًا بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة.

الصنف الثالث: أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكر في غير الصلاة مثلًا، فإذا أقبل على الذكر تصوّر أن يندفع ساعة ويعود، ويندفع ويعود، فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصوّر أن يتساوقا جميعًا حتى يكون الفهم مشتملًا على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما في موضعين من القلب. وبعيد جدًّا أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر، ولكنه ليس محالًا إذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ صلَّى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه**»(١)، فلولا أنه متصوّر لما ذكره، إلا أنه لا يتصوّر ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر، فإنا قد نرى المستوعب القلب بعدوّ تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوّه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوّه وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في محادثة

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

محبوبه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه، ولو كلمه غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يد أحد لكان كأن لا يراه. وإذا تصوّر هذا في خوف من عدوّ وعند الحرص على مال وجاه فكيف لا يتصوّر من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

وبالجملة؛ فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمرًا طويلًا بعيد جدًّا ومحال في الوجود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج الرغبة لتخلص رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقد روي: أنه نظر إلى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال: «**شغلني عن الصلاة**» وقال: «**اذهبوا به إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانيته**»(١)، وكان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه وهو على المنبر ثم رمى به قال: «**نظرة إليه ونظرة إليكم**»(٢)، وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب - وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به- فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها إلا بالرمي والمفارقة، فما دام يملك شيئًا وراء حاجته ولو دينارًا واحدًا لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره، وأنه كيف يحفظه؟ وفي ماذا ينفقه؟ وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد وكيف يظهره حتى يتباهى به؟ إلى غير ذلك من الوساوس. فمن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشطيان كان كمن انغمس في العسل وظن أن الذباب لا يقع عليه فهو محال. فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان. وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة.

قال حكيم من الحكماء: الشيطان يأتي ابن آدم مِن قِبلَ المعاصي فإن امتنع أتاه مِن وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة، فإن أبى أمره بالتحرّج والشدة حتى يحرم ما ليس

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) حديث: «كان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه على المنبر فرماه فقال: نظرة إليكم» أخرجه النسائي من حديث ابن عباس.

بحرام، فإن أبى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرًا عفيفًا فتميل قلوبهم إليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه وعند ذلك يشتدّ إلحاحه فإنها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة.

ثالثًا: بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا؟:

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها وعجائبها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق:

فقالت فرقة: الوسوسة تنقطع بذكر الله عَزَّوَجَلَّ لأنه عَلَيْهِ‌السَّلَامُ قال: «**فإذا ذكر الله خنس**»(١)، والخنس هو السكوت فكأنه يسكت.

وقالت فرقة: لا ينعدم أصله ولكن يجري في القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا صار مستوعبًا بالذكر كان محجوبًا عن التأثر بالوسوسة كالمشغول بهمه، فإنه قد يتكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه.

وقالت فرقة: لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضًا، ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس – أي الشيطان – من بعد وعلى ضعف.

وقالت فرقة: ينعدم عند الذكر في لحظة وينعدم الذكر في لحظه، ويتعاقبان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوقة وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فإنك إذا أدرتها بسرعة تواصلها بالحركة، واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلا هذا.

---

(١) حديث: «إذا ذكر الله خنس» أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي من حديث أنس في أثناء حديث: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم...» الحديث ذكره الشوكاني مطولًا في رسالته (رفع الباس عن حديث النفس) وصححه.

وقالت فرقة: الوسوسة والذكر يتساوقان في الدوام على القلب تساوقًا لا ينقطع، وكما أن الإنسان قد يرى بعينيه شيئين في حالة واحدة، فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين وإلى هذا ذهب المحاسبي.

والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس، وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه.

❁❁❁

الحديث الخامس عشر

Ǵǲ ǎ ƛ ǰ ǭ ƚǤ‖ Ǳ̈Ǖ̄ƿ ǫYƌ ǰ ƛƚ Ȃǭ ƙǭ

عن المقدام بن معد يكرب قال سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ما ملأ أدميٌ وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أكيلات تُقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه**» رواه الترمذي وحسنه ورواه ابن حبان في صحيحه وكذا ابن ماجه في سننه.

Pǽy Ţkł ţƐ‖ :[١]

في شرحه محوران:

ƛkǯŢǸƷ łàƿğ: Ƶ ǥ Ɛ ǭǸƚğ ǩkǔǭǯkǻ ǝǽ ƚǭǬy ƚ ţ ǩkǸŮ ƿƵǫ ƚkł ǖ‖ :[٢]

وأما الآثار: فقد قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إياكم والبطنة فإنها ثقل في الحياة نتن في الممات.

وقال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة.

---

(١) الإحياء (٣/ ٨٨) وما بعدها.

(٢) وردت أحاديث كثيرة في ذم الشبع وامتداح الجوع، اكتفي بذكر جزء يسير منها (منقولًا من التر غيب والترهيب ص ٧٦).

* عن ابن عمر قال: تجشأ رجل عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**كف عنا جشاءك فإن أكثرهم شِبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا القيامة**»، رواه الترمذي وحسنه ورواه ابن ماجه والبيهقي في الشعب.

* عن.... أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى رجلًا عظيم البطن فقال بإصبعه: «لو كان هذا في غير هذا لكان خيرًا لك» رواه ابن أبي الدنيا والطبراني بإسناد جيِّد.

* وروى عن عائشة كان: «أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها فيها الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم» رواه البخاري في الضعفاء وابن أبي الدنيا في كتاب الجوع.

وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه: أي شيء تخافين؟ أتخافين أن تجوعي؟ لا تخافي ذلك؛ أنت أهون على الله من ذلك إنما يجوع محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

وكان كهمس يقول: إلهي أجعتني وأعريتني وفي ظلم الليالي بلا مصباح أجلستني فبأي وسيلَّة بلغتني ما بلَّغتني؟.

وكان فتح الموصلي إذا اشتدّ مرضه وجوعه يقول: إلهي ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به عليَّ؟.

وقال مالك بن دينار: قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس فقال لي يا أبا يحيى طوبى لمن أمسي وأصبح جائعا وهو عن الله راض.

وكان الفضيل بن عياض يقول: إلهي أجعتني وأجعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلا مصباح وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك؟.

وقال يحيى بن معاذ: جوع الراغبين منبهة وجوع التائبين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة.

وقال أبو سليمان: لأن أترك لقمة من عشائي أحب إليَّ من قيام ليلة إلى الصبح، وقال أيضًا: الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا من أحبه.

وكان سهل بن عبد الله التستري يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال: لا يوافي القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أكله. وقال: لم ير الأكياس شيئًا أنفع من الجوع للدين والدنيا.

وقال: لا أعلم شيئًا أضر على طلاب الآخرة من الأكل.

وقال: وضعت الحكمة والعلم في الجوع ووضعت المعصية والجهل في الشبع.

وقال: رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع، ورأس كل فجور بينهما الشبع.

وقال: من جوّع نفسه انقطعت عنه الوساوس.

وقال: إقبال الله عَزَّوَجَلَّ على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله.

وقال: اعلموا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد. وسئل حكيم بأي قيد أقيد نفسي؟ قال: قيدها بالجوع والعطش، وذللها بإخمال الذكر وترك العز، وصغِّرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة، واكسرها بترك زي القراء عن ظاهرها، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها، واصحبها بخلاف هواها.

وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى إن الله تعالى ما صافى أحدًا إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع، ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع.

وقال أبو طالب المكي: مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار. إنما حسن صوته لخفته ورقته لأنه أجوف غير ممتلئ، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام. وقال أبو بكر بن عبد الله المزني: ثلاثة يحبهم الله تعالى؛ رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة.

:ƝƐ ǂ Ǖ ǓǸ ʅ ǩł ɣƶłǸə :ǼǄǨƦǩł ƷǸȚǮǩł

ولعلك تقول: هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو؟ وما سببه؟ وليس فيه إلا إيلام المعدة ومقاساة الأذى! فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل ما يتأذى به الإنسان من ضربه لنفسه وقطعة للحمه وتناوله الأشياء المكروهة وما يجري مجراه؟ فاعلم أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به وظن أن منفعته لكراهة الدواء ومرارته، فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق وهو غلط، بل نفعه في خاصية في الدواء

وليس لكونه مرًّا، وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء، فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا جهابذة العلماء ومن جوع نفسه مصدقًا لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علة المنفعة، كما أنّ من شرب الدواء انتفع بـه وإن لم يعلم وجـه كونه نافعًا.

ولكنا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان إلى درجة العلم. قال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة:١١].

فنقول: في الجوع عشر فوائد:

الفائدة الأولى: صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، فإنّ الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيء الفهم والإدراك. وقال أبو سليمان الداراني: عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوي.

ويقال: مثل الجوع مثل الرعد، ومثل القناعة مثل السحاب، والحكمة كالمطر.

وقال الشبلي: ما جعت لله يومًا إلا رأيت في قلبي بابًا مفتوحًا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط.

وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق، والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه، والمعرفة باب من أبواب الجنة فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعًا لباب الجنة.

ولهذا قال لقمان لابنه: يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال أبو يزيد البسطامي: الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة.

الفائدة الثانية: رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابًا من قسوة القلب، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه، وقال أبو سليمان الداراني: أحلى ما تكون إليّ العبادة إذا التصق ظهري ببطني. وقال الجنيد: يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة. وقال أبو سليمان: إذا جاع القلب وعطش صبا ورق، وإذا شبع عمى وغلظ، فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة امر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة إلى فائدة ثانية.

الفائدة الثالثة: الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها إذا ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره، وإنما سعادته في أن يكون دائما مشاهدًا نفسه بعين الذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والقهر، فليكن دائمًا جائعًا مضطرًا إلى مولاه مشاهدًا للاضطرار بالذوق، ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي ﷺ قال: «**لا بل أجوع يومًا واشبع يومًا فإذا جعت صبرت وتضرعت وإذا شبعت شكرت**»(١)، أو كما قال.

فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع. والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع. ومن أغلق بابًا من أبواب النار فقد فتح بابًا من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب، فالقرب من أحدهما بُعْد من الآخر.

---

(١) سيأتي تخريجه لاحقًا.

الفائدة الرابعة: أن لا ينسى بلاء الله وعذابه؛ ولا ينسى أهل البلاء فإنّ الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع، والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة، فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة، ومن جوعه جوع أهل النار، حتى إنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل، فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها، فإنه هو الذي يهيج الخوف، فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه، فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة. وهذا أحد الأسباب الذي اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل.

ولذلك قيل ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: لم تجوع وفي يديك خزائن الأرض؟

فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. فذكْرُ الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عَزَّوَجَلَّ. والشبعان في غفلة عن ألم الجائع.

الفائدة الخامسة: وهي من أكبر الفوائد: كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى، ومادّة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوّة وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنك لا تملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت، فكذلك النفس.

كما قيل لبعضهم ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهدّ؟ فقال لأنه سريع المرح فاحش الأشر فأخاف أن يجمح بي فيورطني، فلأن أحمله على الشدائد أحب إليَّ من أن يحملني على الفواحش.

وقال ذو النون: ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بمعصية. وقالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أوّل بدعة حدثت بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الشبع.

إنّ القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد. ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزائن الله تعالى وأقل ما يندفع بالجوع: شهوة الفرج وشهوة الكلام فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها، فيمنعه الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكه لا محالة بأعراض الناس، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم. وأما شهوة الفرج: فلا تخفي غائلتها والجوع يكفي شرها وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه فالعين تزني كما أن الفرج يزني، فإن ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوّش به مناجاته، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة.

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثلًا، وإلا فجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع.

قال حكيم كل مريد صبر على السياسة فيصبر على الخبز البحت سنة لا يخلط به شيئا من الشهوات ويأكل في نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء.

الفائدة السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيرا، ومن كثر شربه كثر نومه، ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام: معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرًا فتشربوا كثيرًا فترقدوا كثيرًا فتخسروا كثيرًا.

وأجمع رأي سبعين صدّيقًا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب. وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال

العبد فيه يتجر، والنوم موت فتكثيره ينقص العمر، ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم فواتها. ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة، ثم المتعزب إذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضًا من التهجد ويحوجه إلى الغسل إما بالماء البارد فيتأذى به.

وكل ذلك أثر الشبع. وقد قال أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة. وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كل حال. فالنوم منبع الآفات والشبع مجلبة له؛ والجوع مقطعة له.

الفائدة السابعة: تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال ثم يكثر تردده إلى بيت الماء لكثرة شربه والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه.

قال السري: رأيت مع علي الجرجاني سويقا يستف منه فقلت: ما حملك على هذا قال: إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز مند أربعين سنة، فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه في المضغ. وكل نَفَس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها، - أي لا تُقدَّر قيمتها بثمن - فينبغي أن يستوفي منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته.

ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء وإراقته.

ومن جملته الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة، وإنما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم:٧].

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال: من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظنّ أن الخلق كلهم شباع، وثقَل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل - أي بيت الخلاء -.

الفائدة الثامنة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق. ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج إلى القصد والحجامة والدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله.

حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء: هندي ورومي وعراقي وسوادي. وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه. فقال الهندي: الدواء الذي لا داء فيه عندي هو الإهليلج الأسود. وقال العراقي: هو حب الرشاد الأبيض وقال الرومي: هو عندي الماء الحار وقال السوادي: - وكان أعلمهم - الإهليلج يعفص المعدة وهذا داء، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء. قالوا: فما عندك؟ فقال: الدواء الذي لا داء معه عندي أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه؛ وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه. فقالوا: صدقت.

وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس**»(١)، فتعجب منه وقال: ما سمعت كلامًا في قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم.

---

(١) هو حديث الباب.

وقال ابن سالم: من أكل خبز الحنطة بحتا بأدب لم يعتل إلا علة الموت. قيل: وما الأدب؟ قال: تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار: إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته المالح؛ ولأن يقلل من المالح خيرا له من أن يستكثر من الرمان. وفي الحديث: «صوموا تصحوا» ففي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما.

الفائدة التاسعة: خفة المؤونة فإنّ من تعوّد قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعوّد الشبع صار بطنه غريمًا ملازمًا له آخذًا بمخنقه في كل يوم، فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل. وربما يحتاج إلى أن يمدّ أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل والقماءة والمؤمن خفيف المؤنة.

وقال بعض الحكماء إني لأقضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي.

وقال آخر إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي.

وكان إبراهيم ابن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقول إنها غالية فيقول: أرخصوها بالترك.

وقال سهل رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأكول مذموم في ثلاثة أحوال، إن كان من أهل العبادة فيكسل، وإن كان مكتسبًا فلا يسلم من الآفات وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه.

وبالجملة؛ سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج، وسبب شهوة الفرج، شهوة البطن. وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهي أبواب النار.

فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضًا وصار حرًّا واستغنى عن الناس واستراح من التعب؛ وتخلى لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ وتجارة الآخرة، فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإنما لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة وأما المحتاج فتلهيه لا محالة.

الفائدة العاشرة: أن يتمكن من الإيثار والتصدّق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته(١)، كما ورد به الخبر: فما يأكله كان خزانته الكنيف وما يتصدّق به كان خزانته فضل الله تعالى فليس للعبد من ماله إلا ما تصدّق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى فالتصدّق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع.

وكان الحسن رحمة الله عليه إذا تلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢]، قال: عرضها على السموات السبع الطباق والطرائق التي زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت، فقالت: لا، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت، ثم عرضها على الجبال الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ فذكر الجزاء والعقوبة فقالت: لا، ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلومًا لنفسه جهولًا بأمر ربه فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافًا فماذا صنعوا فيها؟ وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم، وأسمنوا دوابهم وأهزلوا دينهم، وأتعبوا أنفسهم بالغدوّ والرواح إلى باب السلطان يتعرّضون للبلاء وهم

---

(١) رواه المنذري في الترغيب والترهيب وقال: إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رجال أحمد ثقات.

من الله في عافية يقول أحدهم تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا، يتكئ على شماله ويأكل من غير ماله، حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال: يا غلام ائتني بشيء أهضم به طعامي، يالكع أطعامك تهضم؟ إنما تهضم دينك، أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذي أمرك الله تعالى بهم؟ فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر، فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه. ونظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بإصبعه وقال: «**لو كان هذا في غير هذا لكان خيرًا لك**»(١)، أي لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك. وعن الحسن قال: والله لقد أدركت أقواما كان الرجل منهم يمسي وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله فيقول: والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل بعضه لله.

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة. ولأجل هذا قال بعض السلف: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة. بل ذلك صريح في الأخبار التي رويناها بالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة. فإذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين في الإيمان والله أعلم بالصواب.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم في والبيهقي، قال العراقي: وإسناده جيد (الإحياء ٣/ ٩٦).

الحديث السادس عشر

Ǽǩ Ǵǁƒə ǫǨǾdžǩł ëƑ

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عَملِ ابْنُ آدَمَ له إلا الصِّيَام فإنَّ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»، وفي روايةٍ لمسلمَ: «**كُلُّ عَملِ ابْنُ يُضاعَفُ الحسنةُ بعشرِ أمثالها إلى سُبعُمائةً ضِعْفٍ؛ قال الله تعالى: إلا الصومَ فإنَّه لي وأنا أجزي به**» متفق عليه.

Pǽy Ţǩł ţƐ‖[1]:

وقف الغزالي مع هذا الحديث وقفات هامة ومفيدة:

:¬Ǽǩ Ǵǁƒə¼ :ŋǾDžǸdžǗǩł ǳzǶƛ ǫǸdžǩł DŽǬƱł łZǨƷǩ :Ǻǩþ äł ŋǞāǸǩł

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ:

وإنما كان الصوم مخصوصًا بهذه الخواص لأمرين:

أحدهما: أنه يرجع إلى كفّ نفسي، وهو عملٌ سريٌّ لا يطلع عليه أحد غير الله تعالى لا كالصلاة والزكاة وغيرها.

والثاني: أنه قهر لعدو الله، فإن الشيطان هو العدو. ولن يقوى العدو إلا بواسطة الشهوات، والجوع يكسر جميع الشهوات التي هي آلة الشيطان، فلذلك قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن الشيطانَ ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاري الشيطان بالجوع**»[2]، وهو سر قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا دخَلَ رمضانُ فُتحت أبوابُ الجنان، وغُلِّقت أبوابُ النيران، وصُفدت الشياطين، ونادى منادٍ: يا باغي الخير هلمَّ، ويا باغي الشر أقصر**»[3].

(١) الأربعين في أصول الدين (٥٢-٥٤).

(٢) متفق عليه دون: «ضيقوا» الخ.

(٣) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه على شرطهما.

ǳƷłƩƼȣ ƤǾƒ ǰǭƿ ÛѲƘƩƷƳ ơÊþ Ǵƛ ǫłƸƺǩèł ƤǾƒ ǰǭ ǪǸǆžǬǩ :ηǾǄƘƦǩł ηǞāǸǩł
:ÆơǿłǸƮǲǩł ǺǬǕ ÛѲƘƩƷƳ ơÊþ

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أن الصوم، بالإضافة إلى مقداره، على ثلاث درجات، وبالإضافة إلى أسراره ثلاث درجات:

أما درجات مقداره: فأقلها الاقتصار على شهر رمضان، وأعلاها صوم داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أن تصوم يومًا وتفطر يومًا. ففي الخبر الصحيح(١)، أن ذلك أفضل من صوم الدهر، وأنه أفضل الصيام؛ وسرّه أن من صام الدهر صار الصوم له عادة، فلا يحس بوقعه في نفسه بالانكسار، وفي قلبه بالصفاء، وفي شهواته بالضعف، فإن النفس إنما تتأثر بما يردُ عليها لا بما مرنت(٢) عليه، فلا يبعد هذا، فإن الأطباء أيضًا ينهون عن اعتياد شرب الدواء. وقالوا: «من تعود ذلك لم ينتفع به إذا مرض، إذ يألفه مزاجه فلا يتأثر به».

واعلم أن طب القلوب قريب من طب الأبدان، وهو سر قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله ابن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لما كان يسأله عن الصوم فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**صُمْ يومًا وأفطرْ يومًا**». فقال: أريد أفضل من ذلك فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**لا أفضل من ذلك**»(٣)، ولذلك لما قيل لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن فلانًا صام الدهر، فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**لا صامَ ولا أفطر**»(٤)، كما قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لرجل كان يقرأ القرآن يهُذْرِمُهُ(٥): «**إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت**».

---

(١) متفق عليه.

(٢) **مرنت**: اعتادت وألفت.

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرج النسائي نحوه والترمذي.

(٥) **الهزرمة**: الإسراع في القراءة والكلام، والمقصود الإسراع المخل بأحكام التجويد.

وأما الدرجة المتوسطة فهو أن تصوم ثلث الدهر ومهما صمت، الاثنين والخميس وأضفت إليه رمضان، فقد صمت من السنة أربعة أشهر وأربعة أيام، وهو زيادة على الثلث، لكن لا بد أن ينكسر يوم من أيام التشريق، وترجع الزيادة إلى ثلاثة أيام، ويتصور أن ينكسر في العيدين يومان فتكون ثلاثة أيام، فترجع الزيادة إلى يوم واحد، فتأمل حسابه تعرفه. فلا ينبغي أن ينقص من هذا القدر صومك، فإنه خفيف على النفس، وثوابه جزيل.

وأما درجات أسراره فثلاث:

أدناها: أن يقتصر على الكفّ عن المُفطِّرات، ولا يكف جوارحه عن المكاره، وذلك صوم العوام وهو قناعتهم بالاسم.

الثانية: أن تضيف إليه كف الجوارح، فتحفظ اللسان عن الغيبة والعين عن النظر بالرّيبة وكذا سائر الأعضاء.

الثالثة: أن تضيف إليه القلبِ عن الفكر والوسواس، وتجعله مقصورًا على ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك صومُ خصوصِ الخصوصِ وهو الكمال في الصوم.

❁❁❁

الحديث السابع عشر

ǯǨǮǛ â Ŧ ÅǪŪ ǾǨǜŘǩŦ

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرًا ما يقول: «**يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك**» قالت: أو تخاف على نفسك يا رسول الله؟ قال: «**وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء**»، وفي لفظ آخر: «**إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه**»، رواه النسائي في الكبرى بإسناد جيد والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم وغيرهما.

ǷǛǴǅǩŦ ţƐ‖[(١)]:

فيه محاور:

المحور الأول: بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات:

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب، فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير صفته. فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه، وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره، وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره. فتارة يكون متنازعًا بين ملكين وتارة بين شيطانين وتارة بين ملك وشيطان - لا يكون قط مهملًا - وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام:١١٠]، ولاطلاع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه كان يحلف به فيقول: «**لا ومقلب القلوب**»[(٢)]، وكان كثيرًا ما يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» قالوا: أو تخاف

(١) مأخوذ من الإحياء (٣/ ٤٨) وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر.

يا رسول الله؟ قال: «**وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء**»، وفي لفظ آخر: «**إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه**»(١).

وضرب له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أمثلة: فقال: «**مَثَلُ القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة**»(٢)، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانًا**»(٣)، وقال: «**مَثَلُ القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهرًا لبطن**»(٤)، وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى في تقلبها من حيث لا تهدي إليه المعرفة لا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى.

المحور الثاني: القلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما على ثلاثة أقسام:

الأول: قلب عُمِّرَ بالتقوى وذكى بالرياضة وطُهِّر عن خبائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت، فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه، فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيبا في جوهره طاهرًا بتقواه مستنيرًا بضياء العقل معمورًا بأنوار المعرفة فيراه صالحًا لأن يكون له مستقرًّا ومهبطًا، فعند ذلك يمدّه بجنود لا ترى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام، ولا يتناهى إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ

---

(١) هو حديث الباب المعني بالشرح.

(٢) حديث: «مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة». أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم والبيهقي في الشعب من حديث أبي عبيدة بن الجراح.

(٣) حديث: «مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانًا» أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري من حديث المقداد بن الأسود.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب بإسناد حسن.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ٦﴾ [الليل:٥-٧]، وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، فلا يخفى على هذا النور خافية ولا يروج عليه شيء من مكايد الشيطان، بل يقف الشيطان ويوحي زخرف القول غرورًا فلا يلتفت إليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معمورًا بالمنجيات من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك. وهو القلب الذي أقبل الله عَزَّوَجَلَّ بوجهه عليه وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧].

القلب الثاني: القلب المخذول المشحون بالهوى، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث المفتوح فيه أبواب الشياطين، المسدود عنه أبواب الملائكة. ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتي منه ويستكشف وجه الصواب فيه، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى، فتستولي النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته لانحباس جند العقل عن مدافعته. فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني، ويوحي بذلك زخرفًا من القول غرورًا فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد، ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفيء أنواره، فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار؛ ولو بصَّره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمي عن الفهم، وصَمَّ عن السمع وهاجت الشهوة فيه،

وسطا الشيطان، وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره.

وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤]، وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:٧]، وبقوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:١٠]، ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالذي يتورّع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجهًا حسنًا لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه، أو كالذي لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر، ولا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه، أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه، أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى، فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفئ منه أنواره فينطفئ نور الحياء والمروءة والإيمان ويسعى في تحصيل مراد الشيطان.

القلب الثالث: قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم، فينبعث العقل إلى خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويُقبِّح فعلها وينسبُها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوي داعي الهوى ويقول ما هذا التحرّج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذي نفسك؟ وهل ترى أحدًا من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه؟ أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجّر على نفسك حتى

تبقى محرومًا شقيًّا متعوبًا يضحك عليك أهل الزمان؟ أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا؟ أما ترى العالم الفلاني ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرًّا لامتنع منه؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه؟ فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول هل لك إلا من أتبع لذة الحال ونسي العاقبة؟ أفتقنع بلذة يسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستثقل ألم النار؟ أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتِّباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أنّ عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك؟ أرأيت لو كنت في يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص؟ فكيف تخالف الناس خوفًا من حر الشمس ولا تخالفهم خوفًا من حرّ النار فعند ذلك تمتثل النفس إلى قول الملك فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذبًا بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به.

فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرضًا عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعدا لحزب الشيطان وأعدائه وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتحريضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه، فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن - أي بين تجاذب هذين الجندين - وهو الغالب أعني التقليب والانتقال من حزب إلى حزب، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزائن الغيب إلى عالم

الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنه من خزائن الملكوت، وهي أيضًا إذا ظهرت كانت علامات تعرّف أرباب القلوب سابق القضاء.

فمن خُلِقَ للجنة يُسّرتْ له أسباب الطاعات ومن خُلِقَ للنار يُسرِّتْ له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان، فإنه بأنواع الحكم يُغرُّ الحمقى بقوله إن الله رحيم فلا تبال، وإنّ الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخالفهم وإن العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدًا: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠]، يعدهم التوبة ويمنيهم المغفرة فيهلكهم بإذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجري مجراها، فيوسع قلبه لقبول الغرور ويُضيّقه عن قبول الحق، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران:١٦٠]، فهو الهادي والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه.

خلق الجنة وخلق لها أهلًا فاستعملهم بالطاعة وخلق النار وخلق لها أهلًا فاستعمله بالمعاصي. وعرَّف الخلقَ علامة أهل الجنة وأهل النار فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤]، ثم قال تعالى فيما روى عن نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي**»(١)، فتعالى الله الملك الحق لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون.

❁❁❁

(١) حديث: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي**» أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي وقال ابن عبد البر في الاستيعاب أنه مضطرب الإسناد.

الحديث الثامن عشر

ǯƘǻǻǻȿǪǩƗ ǐ ǿǞ ƒ

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**» متفق عليه.

ƤǽƴƮǩƗ ƫƐ ‖[1]:

هذا الحديث من الأحاديث العظيمة القدر الجليلة الخطر ولهذا أطال الغزالي في الكلام على ما يتعلق باللسان من خطر جسيم أو نعمة عظيمة، وألخّص بعض كلامه في المحاور الآتية:

المحور الأول: بيان كون اللسان نعمة عظيمة من نِعَم الله تعالى على الإنسان وهو سبب عظيم من أسباب الفوز أو الخسران:

قال الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ:

:ηǮǖǁ ǯǨȿǪǩƗ ǯǸ ǥ ǯǨǾƛ : ëƤ

إن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذا لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان، ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناول له، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء. واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجالة منتهى وحدّ، له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة

---

(١) الإحياء (٣/ ٢١٧) وما بعدها.

اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله، وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على مَنْ عرفه ثقل عسير وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان.

:ÆĐǖǽ ƘǮǾə èƑ ǯƘsǪǩł æ ƘsǭƑþ ǾǮdžǩł ǨNJə Æə ƤǽYƘ ƒ àł ǰǭ YǯþƘǭ :ƘǾāƘþ

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صمت نجا**»(١).

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الصمت حكة وقليل فاعله**»(٢)، أي حكمة وحزم.

وروي عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدًا بعدك قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**» قال: قلت فما أتقي؟ فأومأ بيده إلى لسانه(٣). وقال عقبة بن عامر: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»(٤).

---

(١) حديث: «من صمت نجا» أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف، وقال: غريب وهو عند الطبراني بسند جيد، وقال المنذري في الرغيب: رواته ثقات.

(٢) حديث: «الصمت حكمة وقليل فاعله»، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ: «حكم» بدل «حكمة» وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال والصحيح عن أنس أن لقمان قال: ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب روضة العقلاء بسند صحيح إلى أنس.

(٣) حديث سفيان الثقفي: «أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدًا بعدك...» الحديث أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه وهو عند مسلم دون آخر الحديث الذي فيه ذكر اللسان.

(٤) حديث عقبة بن عامر قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: «أملك عليك لسانك...» الحديث أخرجه الترمذي وقال: حسن.

وقال سهل بن سعد الساعدي. قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة**»(١).

وقد سُئِل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «**تقوى الله وحسن الخلق**»، وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال: «**الأجوفان: الفم والفرج**»(٢)، فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه؛ فقد قال معاذ بن جبل: قلت يا رسول الله أنؤاخذ بها نقول؛ فقال: «**ثكلتك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»(٣).

وروي أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رأى أبا بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو يمد لسانه بيده فقال له: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ قال؛ هذا أوردني الموارد إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدّته**»(٤).

وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيرًا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم، فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء، تقوله أو شيء سمعته؟ فقال: لا بل سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**»(٥).

---

(١) حديث سهل بن سعد: «**من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة**» رواه البخاري.

(٢) حديث: «سُئل عن أكثر ما يدخل الجنة...» الحديث أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث معاذ: قلت: يا رسول الله أنؤاخذ بها نقول؟ فقال: «**ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»، أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٤) حديث: إن عمر اطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه فقال: ما تصنع يا خليفة رسول الله قال: إن هذا أوردني الموارد إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ اللسان على حدته» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وأبو يعلى في مسنده والدارقطني في العلل، والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر، وقال الدارقطني: إن المرفوع وهم على الدراوردي قال: وروي هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له.

(٥) حديث ابن مسعود: «أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيرًا تغنم». وفيه مرفوعًا: «إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه»، أخرجه الطبراني، وابن أبي الدنيا في الصمت، والبيهقي في الشعب بسند حسن.

وقال ابن عمر: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**من كَفَّ لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره**»(١).

وروي أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله أوصني قال: «**اعبد الله كأنك تراه، وعد نفسك في الموتى وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله**»، وأشار بيده إلى لسانه(٢).

:ǯǨƽǪǩƚ ǯƎǁ ǬǾǒǖơ Æə رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ǜǪƽǩƚ ƷǨƥǫ Æə ƳƷƿ Ǩǭ :ǨǨǨǨƥ

كان أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد».

وقال عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

وقال طاووس: لساني سبع إن أرسلته أكلني. وقال وهب بن منبه: في حكمة آل داود؛ حق على العاقل أن يكون عارفًا بزمانه حافظًا للسانه مقبلًا على شأنه.

وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه. وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما بعد: فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومَنْ عدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

وقال بعضهم: الصمت يجمع للرجل فضيلتين؛ السلامة في دينه والفهم عن صاحبه. وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار: يا أبا يحيى حفظ اللسان أشدّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم.

---

(١) حديث ابن عمر: «من كف لسانه ستر الله عورته..» الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن.

(٢) حديث: إن معاذًا قال: أوصني قال: «**اعبد الله كأنك تراه...**» الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني ورجاله ثقات وفيه انقطاع. وهو بمعنى حديث معاذ رقم (٤) من الهوامش.

وقال يونس بن عبيد: ما من الناس أحد يكون منه لسانه علـى بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله.

وقال الحسن: تكلم قوم عند معاوية رَحِمَهُ ٱللَّهُ والأحنف بن قيس ساكت فقال له: مالك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال له: أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت.

وقال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك؛ ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل، وقال الآخر إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني، وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه، وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقيل: أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة. وقيل ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة. وكان إذا أصبح وضع دواةً وقرطاسًا وقلمًا فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء.

:ǯŁƐ ƨ Ǔǩł ł Ǆ ǐ ơƿ TλƐǩł ÆǄ ǐ ǩ ǯǨ ƨ Ǫǩł ğǨǮüǭ ƽł ǌλŁŃ ǈ :ǨǘŁǯ

فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات. فهذه آفات كثيرة وهي سَبَّاقَةٌ إلى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان؛ فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب؛ فإن ذلك من غوامض العلم -كما سيأتي تفصيله- ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في

الـدنيا ومن حسابه في الآخرة. فقد قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨].

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر، وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة.

أما الذي هو ضرر محض فلا بدّ من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر.

وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجًا يخفي دركه فيكون الإنسان به مخاطرًا. ومن عرف دقائق آفات اللسان -على ما سنذكره - علم قطعًا أن ما ذكره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو فصل الخطاب حيث قال: «**من صمت نجا**»(١)، فلقد أوتي والله جواهر الحكم قطعًا وجوامع الكلم(٢)، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى.

:ǯƘʂǪǩƗ ƟƘəƌ ǯƘǾƛ ÆƯƘƦǩƗ ǮǸȚǯǩƗ

ذكر الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في الإحياء عشرين آفة للسان ولكن لا يتسع المجال لذكرها كلها في شرح هذا الحديث؛ لكن سيأتي ذكر بعضها في شرح أحاديث أخرى إن شاء الله، وقد ذكرت هاهنا خمسًا من الآفات فقط لكثرة وقوع الناس فيها في هذا العصر دون التنبُّه إلى أن هذه من الآفات التي يجب اجتنابها حتى من بعض الصالحين فضلا عن غيرهم من العوام.

---

(١) تقدم قبل قليل.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «أوتيت جوامع الكلم».

: Ǥ ǾǄǖǽ ȅ ƘǮǾə ϙÊ Ğ ǩł :Ǻǩƿäł ηəøł

اعلم أن أحسن أحـوالك أن تحفـظ ألفاظك مـن جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلًا إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه، فإنك مُضيِّعٌ به زمانك ومحاسبٌ على عمل لسانك؛ وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه، ولو هلَّلت الله سبحانه وذكرته وسبَّحته لكان خيرًا لك فكم من كلمة يبنى بها قصرًا في الجنة؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزًا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرًا خسرانًا مبينًا. وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى.

ما ورد من الأحاديث: ولهذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[١]، بل ورد ما هو أشدّ من هذا قال أنس: استشهد غلام منا يوم أُحُد فوجدنا على بطنه حجرًا مربوطًا من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت: هنيئًا لك الجنة يا بني، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره؟**»[٢]، وفي حديث: آخر أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد كعبًا فسأل عنه فقالوا: مريض فخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال: «**أبشر يا كعب**» فقالت أمه: هنيئًا لك الجنة يا كعب فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من هذه المتألية على الله؟**» قال: هي أمي يا رسول الله قال:

---

(١) حديث: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «استشهد منا غلام يوم أُحُد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع..» الحديث، وفيه: «لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره» أخرجه الترمذي من حديث أنس مختصرًا وقال: غريب ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف.

«وما يدريك يا أم كعب لعل كعبًا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه»[(١)]، ومعناه أنه إنما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه، وإن كان كلامه غير مباح فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة في الحساب فإنه نوع من العذاب.

ما ورد من الآثار: وقال مجاهد: سمعت ابن عباس يقول: خمس لهنّ أحب إليَّ من الدهم الموقوفة: لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعًا فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليمًا ولا سفيهًا فإنّ الحليم يقليك والسفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، وأعفه مما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاخترام أي الموت.

وقيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعنيني.

وقال مورق العجلي: أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا وما هو؟ قال السكوت عما لا يعنيني.

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تتعرض لما لا يعنيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

حد ما يعني وما لا يعني من الكلام والدافع إلى الإكثار منه:

وحدّ الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال

(١) حديث: «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد كعبًا فسأل عنه فقالوا مريض.. الحديث» وفيه: «لعل كعبًا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه». أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرمة بإسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوي عنه.

وأنهار، وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم. فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر، وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك - وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها - ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضًا بالجواب إلى التضييع هذا إذا كان الشيء مما يتطرّق إلى السؤال عنه آفة، وأكثر الأسئلة فيها آفات. فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلًا فتقول له هل أنت صائم فإن قال نعم، كان مظهرًا لعبادته فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال لا كان كاذبا، وإن سكت كان مستحقرًا لك وتأذيت به وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه. فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع. وكذلك سؤالك عن سائر عباداته، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي. منه وسؤالك عما حدّث به غيرك فتقول له: ماذا تقول؟ وفيم أنت؟ وكذلك ترى إنسانًا في الطريق فتقول من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكره تأذى به واستحيا، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه.. وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري، فيجيب عن غير بصيرة.

ولست أعني بالتكلم فيما لا يعني هذه الأجناس فإنّ هذا يتطرّق إليه إثم أو ضرر. وإنما مثال ما لا يعني ما روي أنّ لقمان الحكيم دخل على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يسرد درعًا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم، فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال نعم الدرع للحرب،

فقال لقمان: «الصمت حكمة وقليل فاعله»، أي حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال وقيل: إنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال؛ فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب هو مما لا يعني وتركه من حسن الإسلام فهذا حدّه.

وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها.

وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسؤول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله. وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الحور العين فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين. هذا علاجه من حيث العلم. وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة في فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جدًّا.

:ϙÊ Ğ ǩł ğǸǇə :ŋǾǅǨȐǩł ŋəǿł

وهو أيضًا مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، فإنّ من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره. ومهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول - أي فضل عن الحاجة- وهو أيضًا مذموم - لما سبق - وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر قال عطاء بن أبي رباح: إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون أن عليكم حافظين كرامًا كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي

أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.

وعن بعض الصحابة قال: إنّ الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلي من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولًا.

وقال مطرف: ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار: اللهم أخزه وما أشبه ذلك.

واعلم أنّ فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [النساء:١١٤].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله**»(١)، فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان.

وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال: قدمت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رهط من بني عامر فقالوا: أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلًا، وأنت أطولنا علينا طولًا، وأنت الجفنة الغرّاء، وأنت وأنت فقال: «**قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان**»(٢)، إشارة إلى أن اللسان إذا أطنب بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها.

---

(١) حديث: «**طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله**» أخرجه البغوي وابن قانع في معجمي الصحابة والبيهقي من حديث ركب المصري، وقال ابن عبد البر: إنه حديث حسن. وقال البغوي: لا أدري سمع من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم لا. وقال ابن مندة: مجهول لا نعرف له صحبة، ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه: قدمت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رهط من عامر فقالوا: «أنت والدنا وأنت سيدنا...» الحديث أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ آخر، ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف.

وقال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم؛ حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته. وقال مجاهد إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول أبتاع لك كذا وكذا؟ فيكتب كذابًا وقال الحسن: يا ابن آدم بُسطَتْ لك صحيفةٌ ووُكِّل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أَقلَّ.

وروي أنّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بعث بعض عفاريته وبعث نفرًا ينظرون ما يقول ويخبرونه فأخبروه بأنه مرَّ في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال: عجبت من الملائكة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبون! ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون!.

وقال إبراهيم التيمي: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلًا رسلًا وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ومن ساء خلقه عذب نفسه.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: إنه ليمنعني من كثير من الكلام خوف المباهاة. وقال بعض الحكماء: إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكتًا فأعجبه السكوت فليتكلم.

وقال يزيد بن أبي حبيب: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع فإن وجد من يكفيه فإن في الاستمتاع سلامة، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان.

وقال ابن عمر: إن أحق ما طَّهر الرجلُ لسانَه. ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال: لو كانت هذه خرساء كان خيرًا لها.

وقال إبراهيم: يُهلِكُ الناسَ خلتان: فضول المال وفضول الكلام. فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني.

:ŘĂƙɯǩ Ǽə ǈǸǕǩ ŋŘǩƙŘǩ ŋəǿǩ

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام. وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه. نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل.

وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا.

وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال بلال بن الحارث: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة**»(١)، وكان علقمة يقول: كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث.

وقال النبي ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا**»(٢).

وقال ﷺ: «**أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل**»(٣)، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ**﴾ [المدثر:٤٥]، وبقوله

---

(١) أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) حديث: «**إن الرجل ليتكلم الكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا**» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن وللشيخين والترمذي: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوى بها سبعين خريفًا في النار**» لفظ الترمذي وقال: حسن غريب.

(٣) رواه هو والطبراني موقوفًا على ابن مسعود بسند صحيح. ورواه السيوطي مرفوعًا في الجامع الصغير وقال: مرسل حسن عن قتادة رقم (٢٢٠٧).

تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء:١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠].

وقال سلمان: أكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم كلامًا في معصية الله وقال ابن سيرين: كان رجل من الأنصار يمرّ بمجلس لهم فيقول لهم توضئوا فإن بعض ما تقولون شر من الحدث.

فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها. ويدخل فيه أيضًا الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم. وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه.

:ğły̆ ꞁ ǩłþ Ɒłꜫʒǩł :ŋūƛłꜫǩł ŋəøł

حكمه وما ورد فيه من التشديد:

وذلك منهى عنه. قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدًا فتخلفه**»(١).

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»(٢).

---

(١) حديث: «لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدًا فتخلفه» أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم.

(٢) رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما ضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا أوتوا الجدل»**(١).

وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل. وقال مسلم بن يسار: إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته وقيل: ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل.

وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه: ليس هذا الجدال من الدين في شيء.

وقال أيضًا: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن.

وقال لقمان لابنه: يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك. وقال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجًا مماريًا معجبًا برأيه فقد تمت خسارته.

وقال سفيان: لو خالفت أخي في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بي إلى السلطان.

وقال أيضًا: صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش.

وقال ابن أبي ليلى: لا أماري صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه. وقال أبو الدرداء: كفى بك إثمًا أن لا تزال مماريًا.

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تتعلم العلم لثلاث. ولا تتركه لثلاث. لا تتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به ولا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل منه.

وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: من كثر كذبه ذهب جماله،ومن لاحى الرجال سقطت مروءته، ومن كثر همه سقم جسمه، ومن ساء خلقه عذب نفسه.

وقيل لميمون بن مهران: مالك لا تترك أخاك عن قلى؟ قال: لأني لا أشاريه ولا أماريه. وما ورد في ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى.

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه.

حقيقة المـراء:

وحدّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه؛ إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم. وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض. فكل كلام سمعته فإن كان حقًا فصدق به وإن كان باطلًا أو كذبًا ولم يكن متعلقًا بأمور الدين فاسكت عنه.

والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير. وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان. وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله.

وأما في المعنى: فبأن يقول ليس كما تقول؛ وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا.

وأما في قصده، فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض، وما يجري مجراه، وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضًا مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن.

حقيقة الجدال وبيان الدوافع التي تدفع إليه وعلاجه:

وأما المجادلة، فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروهًا عند المجادل يجب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه.

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه. وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها.

وأما إظهار الفضل: فهو من قبل تزكية النفس وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهي من صفات الربوبية.

وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضي أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وإنما قوّتهما المراء والجدال.

فالمواظب على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير. ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل، ويقدح في قائله بكل ما يتصوّر له؛ فيثور الشجار بين المتماريين كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى في إفحامه وإلجامه.

وأما علاجه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسبعية الباعث له على تنقيص غيره فإن علاج كل علة بإماطة سببها. وسبب المراء والجدال ما ذكرناه، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعًا حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه.

روي أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائي: لم آثرت الأنزواء؟ قال لأجاهد نفسي بترك الجدال، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم، قال: ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشدَّ عليَّ منها. وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عند ذلك جدًّا.

ولذلك قال ﷺ: «**مَنْ ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتًا في وسط الجنة**»[١]، لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد. فإن المراء طبع؛ فإذا ظن أن له عليه ثوابًا اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه، وذلك

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

خطأ محض، بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة، وإذا رأى مبتدعًا تلطف في نصحه في خلوة لا بطريق الجدال، فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا، فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتتأكد فإذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه.

:ŋǭǸdžUǩł :ŋ ʂǭƙUǩł ŋəǿł

وهي أيضًا مذمومة وهي وراء الجدال والمراء؛ فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير. وإظهار مزية الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. والخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضًا والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق. فقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»(١).

وقال بعضهم: إياك والخصومة فإنها تمحق الدين. ويقال: ما خاصم ورع قط في الدين وقال ابن قتيبة: مر بي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة فقال: ما يجلسك ههنا؟ قلت: خصومة بيني وبين ابن عم لي، فقال: إن لأبيك عندي يدا وإني أريد أن أجزيك بها،وإني والله ما رأيت شيئًا أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة؟ قال فقمت لأنصرف فقال لي خصمي: مالك؟ قلت: لا أخاصمك، قال: إنك عرفت أن الحق لي، قلت: لا ولكن أكرم نفسي عن هذا.قال: فإني لا أطلب منك شيئًا هو لك.

فإن قلت: فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلمه ظالم، فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم؛ مثل وكيل القاضي فإنه قبل أن يتعرف أن الحق

---

(١) أخرجه البخاري.

في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أي جانب كان، فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء.

ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال، وفي الناس من يصرح به ويقول: إنما قصدي عناده وكسر غرضه، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي، وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدًّا.

فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلًا، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب. وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب، فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدًا، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تذم خصومته، إلا أنه إن كان مستغنيًا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركًا للأولى ولا يكون آثمًا، نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب، إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي

حاصله إما تجهيل وإما تكذيب، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جَهَّله أو كذَّبه فيفوت به طيب الكلام.

وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يوجب الجنة حسن الكلام وإطعام الطعام**»(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [البقرة:٨٣]، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من سلم عليك من خلق الله فاردد عَلَيْهِ السَّلَامُ وإن كان مجوسيًّا إن الله تعالى يقول: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ**﴾ [النساء:٨٦]، وقال ابن عباس أيضًا: لو قال لي فرعون خيرًا لرددت عليه.

وقال أنس: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن في الجنة لغرفًا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام**»(٢).

وروي أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مرّ به خنزير فقال: مر بسلام فقيل: يا روح الله أتقول هذا لخنزير؟ فقال أكره أن أعود لساني الشر. وقال نبينا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الكلمة الطيبة صدقة**»(٣)، وقال: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة**»(٤)، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: البر شيء هين وجه طليق وكلام لين. وقال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح. وقال بعض الحكماء: كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضي به جليسك فلا تكن به عليه بخيلًا، فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين. وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذي للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر. نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث هاني بإسناد جيد.

(٢) حديث أنس: «إن في الجنة لغرفًا يرى ظاهرها من باطنها..» الحديث أخرجه الترمذي وحسنه ورواه الحاكم وصححه.

(٣) حديث: «الكلمة الطيبة صدقة» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة...» الحديث، متفق عليه من حديث عدي بن حاتم وقد تقدم.

الحديث التاسع عشر

ηǳ ˁ ǩƗ ǧǸƱY ǰǫ ǜǳǯǽ ƸШ Ǧ ǩƗ

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**» رواه مسلم.

ƤǽƳ˥ǩƗ ţƸ‖[1]:

يدور شرح هذا الحديث حول المحاور الآتية:

ü ǫ ʂǩƗ ǧƗǸǡǫƿ ηǳʂǩƗƿ ƙǨǬ Ǧ ǩƗ Ǽə ƸШ Ǧ ǩƗ ǫƶ :ǧƿ äƗ ƷǸ˥ǯǩƗ:

أما الكتاب: ففي نحو قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٥]، وقال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١].

أما السنة: فوردت أحاديث كثيرة تذم الكبر وأهله: منها:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي**»[2]، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: التقى

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٥٥) وما بعدها.

(٢) حديث أبي هريرة: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في جهنم» أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له، وقال أبو داود: «قذفته في النار»، وقال مسلم: «عذبته»، وقال: «رداؤه»، و«إزاره» بالغيبة وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضًا.

عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: هذا - يعني عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب**»(٢).

وقال سليمان بن داود عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ يومًا - للطير والإنس والجنّ والبهائم - اخرجوا، فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات، ثم خفض حتى مسَّت أقدامه البحر، فسمع صوتًا لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرّة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول: وكلت بثلاث. بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر وبالمصوّرين**»(٣)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تحاجّت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين وبالمتجبرين وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطتهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها**»(٤).

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو: «من كان في قلبه مثقال حبة من كبر كبه الله في النار على وجهه» أخرجه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح.

(٢) حديث: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين...» الحديث، أخرجه الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله: «من العذاب».

(٣) حديث: «يخرج من النار عنق له أذنان...» الحديث، أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح غريب.

(٤) حديث: «تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين وبالمتجبرين...» الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد تجبر واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد غفل وسها ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسي المبدأ والمنتهى**»(١).

وقال عبد الله بن عمرو: إنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنّ نوحًا** عَلَيْهِ السَّلَامُ **لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشرك والكبر، وآمركما بلا إله إلا الله، فإنّ السموات والأرضين وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما، ولو أنّ السموات والأرضين وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها، وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء**»(٢)، وقال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارًا. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع، وأهل الجنة الضعفاء المقلون**»(٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقًا وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون**»، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**»(٤).

---

(١) حديث: «**بئس العبد عبد تجبر واعتدى...**» الحديث، أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير، وقال غريب وليس إسناده بالقوي، ورواه الحاكم في المستدرك، وصححه، ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه.

(٢) حديث عبد الله بن عمرو: «**إن نوحًا لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشرك والكبر...**» الحديث، أخرجه أحمد والبخاري في كتاب الأدب والحاكم بزيادة في نقله قال: صحيح الإسناد.

(٣) حديث: «**أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع**»، وهي الزيادة عندهما من حديث حارثة بن وهب الخزاعي: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر».

(٤) حديث: «**إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقًا...**» الحديث، أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة الخشني بلفظ: «إلى» و«مني» وفيه انقطاع، ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطؤهم الناس، ذرا في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الأنيار يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار**»(١).

وقال أبو هريرة قال: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى**»(٢).

وأما أقوال السلف فمنها:

قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا يحقرن أحد أحدًا من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير. وقال وهب: لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره، فجاء يوما ومصعب مادّ رجليه فلم يقبضهما وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين.

وقال الحسن: العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات وقد قيل في: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، هو سبيل الغائط والبول.

وقد قال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قلَّ أو كثر. وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال: الكبر.

---

(١) حديث: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرًا في صور الرجال...**» الحديث، أخرجه الترمذي من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) حديث أبي هريرة: «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر...**» الحديث، أخرجه البزار هكذا مختصرًا دون قوله: «الجبارون» وإسناده حسن.

وقال النعمان بن بشير – على المنبر – إن للشيطان مصالي وفخوخًا وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله. نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنِّه وكرمه.

ȜŃŢǮǩƚ ÆƊǨŘǩƚ: ǯǨÖƛ ƒ ÆÖÆ ɳ ǩƚ Ğ ƸШ āǫƿ ƨ Ǵǫǩ Ǵoǩəǫƿ:

اعلم أنّ الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر فالباطن هو خلق في النفس والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح. واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر. فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعي متكبرًا عليه ومتكبرًا به، وبه ينفصل الكبر عن العجب، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصوّر أن يكون معجبًا؛ ولا يتصوّر أن يكون متكبرًا إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرًا، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرًا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر، لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك، فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر؛ ولذلك قال عمر أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا، للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح. فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين – وهو الاستعظام – كبر وانتفخ وتعزز.

فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضًا عزة وتعظمًا، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦]، قال: عظمة لم يبلغوها ففسر الكبر بتلك العظمة.

ثم هذه العزة تقتضي أعمالًا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرًا، فإنه مهما عَظُمَ عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقَّر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلًا بين يديه إن اشتدّ كبره، فإن كان أشدّ من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلًا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته، فإن كان دون ذلك فأنف من مساواته وتقدّم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه، وإنْ حاجَّ أو ناظَر أَنفِ أنْ يُردَّ عليه وإنْ وُعِظَ استنكف مِن القبول، وإنْ وعَظَ عنَّف في النصح، وإنْ رُدَّ عليه شيء من قوله غَضِبَ؛ وإنْ علَّم لم يَرفُق بالمتعلمين واستذلَّهم وانتهرهم وامتنَّ عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالًا لهم واستحقارًا.

فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخَلْق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلًا عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته، وقد قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**». وإنما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز،

ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز. ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفًا من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه.

والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة. وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]، ثم قال: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر:٧٦]، ثم أخبر أن أشدّ أهل النار عذابًا أشدّهم عتيًا على الله تعالى فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٢٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]، قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت. وقال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها. ولذلك قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر، ألا ترون أنّ من شمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن طأطأ أظله وأكنه. فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة، ولذلك ذكر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال: «**الكبر من سفه الحق وغمص الناس**»(١).

---

(١) حديث: «الكبر من سفه الحق وغمص الناس» أخرجه من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال: «بطر الحق وغمط الناس»، ورواه الترمذي فقال: «من بطر الحق وغمص الناس» وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد من حديث عقبة عامر بلفظ المصنف، ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريحانة هكذا.

:ǬĦǿǨΣ ƷYƿ ǬĦǾǪǕ ƸǗ Ǧ ƍƷǩƗ ǫǨ ƽ ǡǫ ƷǨǾƛ :ƤǩǨƦǩƗ ƷǸƮƷǩƗ

اعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه، وقد خلق الإنسان ظلومًا جهولًا، فتارة يتكبر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق، فإذن التكبرُّ باعتبار المتكبرَّ عليه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: التكبر على الله؛ وذلك هو أفحش أنواع الكبر، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمروذ، فإنه كان يحدّث نفسه بأن يقاتل رب السماء، وكما يحكى عن جماعة من الجهلة بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره، فإنه لتكبره قال: أنا ربكم الأعلى، إذ استنكف أن يكون عبدا لله ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ [الفرقان:٦٠].

القسم الثاني: التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظانّ أنه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل، كما حكى الله قولهم: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون:٤٧]، وقولهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم:١٠].

وقال: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون:٣٤]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان:٢١]، وقالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ [الأنعام:٨]، وقال فرعون فيما أخبر الله عنه: ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥٣]، وقال

الله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [القصص:٣٩]، فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعًا.

قال وهب: قال له موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ آمن ولك ملكك، قال حتى أشاور هامان، فشاور هامان فقال هامان بينما أنت رب يعبد إذ صرت عبد تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١]، قال قتادة: عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا؟ فقال تعالى: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف:٣٢]، وقال الله تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ ﴾ [الأنعام:٥٣]، أي استحقارًا لهم واستبعادًا لتقدّمهم. وقالت قريش لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم، وتكبروا عن مجالستهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ ﴾، إلى قوله: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم ﴾ [الأنعام:٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [الكهف:٢٨]، ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذا لم يروا الذين ازدروهم فقالوا: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴾ [ص:٦٢]، قيل: يعنون عمارًا وبلالًا وصهيبًا والمقداد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ محقًا ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ [البقرة:٨٩]، وقال: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا ﴾

[النمل:١٤]، وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عَزَّوَجَلَّ وإن كان دونه، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

القسم الثالث: التكبر على العباد؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضًا عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثاله: أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزي والنكال؟ وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه؟ وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: «**العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته**». أي إنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي. والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي، وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه، إذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره، وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه، فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة الكبرياء عليهم، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه. نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ وفرعون، هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك.

الوجه الثاني: الذي تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم

إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله، وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة:٢٠٦].

وروي عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قرأها فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، قام رجل يأمر بالمعروف فقتل، فقام آخر فقال: «يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس» فقَتَلَ المتكبرُ الذي خَالفَه والذي أمره كبرًا.

وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثمًا إذا قيل له اتق الله قال: عليك نفسك؟ وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجل: «**كل بيمينك**» قال: لا أستطيع، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا استطعت**»، فما منعه إلا كبره، قال. فما رفعها بعد ذلك[1]. أي اعتلت يده.

فإذن تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله، وإنما ضرب إبليس مثلًا لهذا وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به، فإنه قال أنا خير منه، وهذا الكبر بالنسب لأنه قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله تعالى به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجرّه ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال: يا رسول الله إني امرؤ قد حبب إليَّ من الجمال ما ترى

---

(١) حديث: قال لرجل: «**كُل بيمينك**» قال: لا أستطيع قال: «**لا استطعت**» الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع.

أفمن الكبر هو؟ فقال ﷺ: «**لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس**»[(١)]، وفي حديث آخر: «**من سفه الحق وغمص الناس بعينيه**»[(٢)]، وقوله: «**وغمص الناس**» أي ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه وهذه الآفة الأولى: «**وسفه الحق**» هو رده وهي الآفة الثانية، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله.

:ŭlj ŀŃǭǩŀ ƙƙƽǭ g ƀƥ ƸǢ Ğ ǩŀ ƧÊŪ Åǩƒ Āæƺ ă ǩŀ ʒǩǾƛ :ŭƛŀƸǩŀ ʒŃƮƷǩŀ:

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان:

أحدهما: استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

المقام الأوّل: في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما:

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفته نفسه فهو أيضًا يطول ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة.

---

(١) حديث: قول ثابت بن قيس بن شماس: «إني امرؤ قد حبب إليَّ من الجمال ما ترى...» الحديث، وفيه: «الكبر من بطر الحق وغمص الناس». أخرجه مسلم والترمذي وقد تقدم قبله بحديثين.

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات.

ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته، وقد قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧-٢٢]، فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية.

أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئًا مذكورًا وقد كان في حيز العدم دهورًا بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظمًا، ثم كسا العظم لحمًا، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئًا مذكورًا، فما صار شيئًا مذكورًا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت! إذ لم يخلق في ابتدائه كاملًا بل خلقه جمادًا ميتًا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرّك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوّته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وببكمه قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾.

ومعنى قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:١-٢]، كذلك خلقه أولًا ثم امتنّ عليه فقال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس:٢٠]، وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدّة حياته إلى الموت.

وكذلك قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادًا ميتًا ترابًا أولًا ونطفة

ثانيًا، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعد ما كان فاقدًا للبصر، وقوّاه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال.

فانظر كيف دبره وصوره وإلى السبيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠]، فانظر إلى نعمة الله كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودًا بعد العدم، وحيًا بعد الموت، وناطقًا بعد البكم، وبصيرًا بعد العمى، وقويًّا بعد الضعف، وعالمًا بعد الجهل، ومهديًا بعد الضلال، وقادرًا بعد العجز، وغنيًا بعد الفقر؟ فكان في ذاته لا شيء وأي شيء أخس من لا شيء؟ وأي قلة أقل من العدم المحض؟ ثم صار بالله شيئًا.

وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضًا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه.

وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جَلَّوَعَلَا. ولذلك امتن عليه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:٨-١٠]، وعرف خسته أولًا فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾، ثم ذكر منته عليه فقال: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة:٣٨-٣٩]، ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولا بالاختراع. فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نعم لو أكمله وفوّض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة، من المرّة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبى رضي أم سخط، فيجوع كرهًا ويعطش كرهًا ويمرض كرهًا ويموت كرهًا؛ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا خيرًا ولا شرًّا يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار فلا يملك قلبُه قلبَه ولا نفسُه نفسَه، ويشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه، يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه، ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحييه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطرّ ذليل إن تُرِكَ بقي وإن اختُطِف فَني، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره، فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنّى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمله.

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس:٢١-٢٢]، ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جمادًا كما كان أوّل مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأوّل نطفة مذرة، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميمًا رفاتًا ويأكل الدود أجزاءه فيبتدئ بحدقتيه فيقلعهما وبخدّيه فيقطعهما، وبسائر أجزائه فيصير روثًا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه

لشدّة الإنتان وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير ترابًا يعمل منه الكيزان ويعمل منه البنيان، فيصير مفقودًا بعد ما أن موجودًا. وصار كأن لم يغن بالأمس حصيدًا كما كان في أوّل أمره أمدًا مديدًا وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك ترابًا لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرّقة، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر، ويرى صحائف منشورة فيقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ [الإسراء:١٤]، فيقول: وما هو؟ فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلم إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعًا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس:٢٢]، فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ماله وللفرح في لحظة واحدة فضلًا عن البطر والأشر؟ فقد ظهر له أوّل حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبًا أو خنـزيرًا ليصير مع البهائم ترابا ولا يكون إنسانًا يسمع خطابًا أو يلقى عذابًا، وإن كان عند الله مستحقًّا للنار فالخنـزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق. ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى منه في بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة، فمن هذا حاله في العاقبة ـ إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو ـ كيف يفرح ويبطر

وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئًا حتى يعتقد له فضلًا؟ وأي عبد لم يذنب ذنبًا استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظنّ به ولا قوة إلا بالله.

أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق وليس يدري أيعفى عنه أم لا؟ كيف يكون ذله في السجن أفترى أنه يتكبر على من في السجن؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره؟ فيكفيه ذلك حزنًا وخوفًا وإشفاقًا ومهانة وذلًا. فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

وأما العلاج العملي: فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إنه كان يأكل على الأرض ويقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد**»(١)، وقيل لسلمان. لم لا تلبس ثوبًا جديدًا؟ فقال: «إنما أنا عبد فإذا أعتقت يومًا لبست جديد»، أشار به إلى العتق في الآخرة. ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا، وقيل: الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادًا، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائمًا وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديمًا يأنفون من الإنحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، حتى قال حكيم بن حزام: «بايعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن لا أخرّ إلا قائمًا»، فبايعه النبي

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: إسناده ضعيف. وقال ابن الملقن في البدر المنير (٧/ ٤٤٧): إسناده لا بأس به.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه(١)، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائمًا هو العمل الذي يقتضيه التواضع، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقًا، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعًا، وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر، ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة:

الأول: النسب: فيمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فخرت بآباء ذوي شرف ... لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيسًا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حيًا لكان له أن يقول: الفضل لي: ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولي؟ أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس؟ هيهات! بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة.

الثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي، فيعرف أباه وجده فإن أباه القريب نطفة قذرة وجدّه البعيد تراب ذليل، وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ

(١) حديث حكيم بن حزام بايعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن لا أخر إلا قائمًا الحديث رواه أحمد مقتصرًا على هذا وفيه إرسال خفي [العراقي: الإحياء ٣/ ٣٨١].

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٧-٨]، فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حمأ مسنونًا كيف يتكبر؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقذر من المضغة.

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول: افتخر بالقريب دون البعيد، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك، ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده؟ فإذن أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل. وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الأبدان. فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والداه، فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم أنه ابن هندي حجام يتعاطى القاذورات، وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك في صدقهم، أفترى أن ذلك يبقي شيئًا من كبره؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره. فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب، إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم. فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه؟

السبب الثاني: التكبر بالجمال: ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم. ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال

فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه: الرجيع في أمعائه والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطه، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليُخرِجَ مِن باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلًا عن أن يمسه أو يشمه، كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا في حال توسطه.

وفي أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور، من النطفة ودم الحيض وأخرج من مجرى الأقذار، إذ خرج من الصلب، ثم من الذكر مجرى البول، ثم من الرحم مفيض دم الحيض، ثم خرج من مجرى القذر. قال أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا ويقول: خرج أحدكم من مجرى البول مرتين.

وكذلك قال طاووس لعمر بن عبد العزيز: ما هذه مشية من في بطنه خراء؟ إذ رآه يتبختر، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوّله ووسطه.

ولو ترك نفسه في حياته يومًا لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها قط. فإذا نظر أنه خلق من أقذار، وأسكن في أقذار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن وكلون الأزهار في البوادي، فبينما هو كذلك إذ صار هشيمًا تذروه الرياح كيف ولو كان جماله باقيًا وعن هذه القبائح خاليًا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟ كيف ولا بقاء له بل هو في كل حين يتصوّر أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو سبب من الأسباب؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

السبب الثالث: التكبر بالقوّة والأيدي: ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل، وأنه لو سلبه الذباب شيئًا لم يستنقذه منه وأن بقة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وأن حمى يوم تحلل من قوّته مالا ينجبر في مدّة. فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على أنْ يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي أن يفتخر بقوّته! ثم إنْ قَوِي الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو جمل، وأيُّ افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم؟.

السبب: الرابع والخامس: الغنى وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم: وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوّة والعلم. وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلًا والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشدّ غليانًا من القدر فإن تغير عليه كان أذل الخلق.

وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودي! وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلًا مفلسًا؟ فهذه أسباب ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال، فالتفاخر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك، وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء، ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره.

ومثاله: أن يفتخر الغافل بقوّته وجماله وماله وحرّيته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأنّ أبويه كانا مملوكين له، فعلم ذلك وحكم به الحاكم، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يده، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكه ليعرف أنّ له مالكًا، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسًا في منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقًا في الخلاص البتة، أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوّته وكماله أم يذل نفسه ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضاءه وماله، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك. فمن هذا حاله لا يتكبر بقوّته وقدرته إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوّة. فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل، فإنهما كمالان في النفس جديران بأن يفرح بهما، ولكن التكبر بهما أيضًا نوع من الجهل خفي كما سنذكره.

السبب السادس: الكبر بالعلم: وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدّة شديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلًا إلا إذا كان معهما علم وعمل. ولذلك قال كعب الأحبار: إنّ للعلم طغيانًا كطغيان المال. وكذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: العالم إذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالِم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم. ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين:

أحدهما: أنَّ يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يُحتمل من الجاهل ما لا يُحتمَل عُشْره من العالم، فإنَّ مَنْ عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم، ولذلك قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك؟ فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه**»(١).

وقد مثل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَنْ يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا** ﴾ [الجمعة:٥]، أراد به علماء اليهود وقال في بلعم بن باعوراء: ﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا** ﴾، حتى بلغ: ﴿ **فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث** ﴾ [الأعراف:١٧٦]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أوتي بلعم كتابًا فأخلد إلى شهوات الأرض أي سكن حبه إليها فمثَّله بالكلب: ﴿ **إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث** ﴾ أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته، ويكفي العالم هذا الخطر فأي عالم لم يتبع شهوته وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟.

فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أنّ قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك. وهو كالمَلِكِ المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أُخِذَ وقُهِرَ اشتهى أن يكون قد كان فقيرًا، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال؟ والعياذ بالله منه.

فهذا الخطر يمنع من التكبر، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه، فكيف يتكبر مَنْ هذا حاله؟ فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله

---

(١) حديث: «**يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه...**» الحديث، متفق عليه من حديث أسامة ابن زيد بلفظ: «**يؤتى بالرجل**».

عليهم وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلدني أمي! ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة! ويقول الآخر ليتني كنت طيرًا أوكل! ويقول الآخر: ليتني لم أك شيئًا مذكورًا! كل ذلك خوفًا من خطر العاقبة، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالًا من الطير ومن التراب. ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كِبْره، ورأى نفسه كأنه شر الخلق.

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها، فترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا؟ فأخبره مخبر أنّ سيده أرسل إليه رسولًا يخرجه من كل ما هو فيه عريانًا ذليلًا ويلقيه على بابه في الحرّ والشمس زمانًا طويلًا، حتى إذا ضاق الأمر عليه وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة، وقد علم أنّ سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أي الفريقين يكون؟ فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عَزَّوَجَلَّ وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتًا عند الله بغيضًا، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له إن لك عندي قدرًا ما لم تر لنفسك قدرًا فإن رأيت لنفسك قدرًا، فلا قدر لك عندي، فلا بدّ وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه. وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلًا أو تصور ذلك. وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إذ علموا أن من نازع الله تعالى

في رداء الكبرياء قصمه، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم، فهذا أيضًا مما يبعثه على التواضع لا محالة.

فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟ فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه، إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك، فكم من مسلم نظر إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين! إلا أبا بكر وحده، فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة، وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة.

فإذن من حق العبد أن لا يتكبر على أحد. بل إن نظر إلى جاهل قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني. وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنًا قال هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى صغير قال إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن، فليس دوام الهداية إلي، كما لم يكن ابتداؤها إلي؟ فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبِّر والمتكبَّر عليه! ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته، لا أن يشتغل بخوف غيره، فإن الشفيق بسوء الظن مولع، وشفقة كل إنسان على نفسه. فإذا حبس

جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرّغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر، إذ شغل كل واحد نفسه عن الالتفات إلى هم غيره، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره.

فإن قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض؟ فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق، إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقًا جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عنده بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله؛ كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم؟ وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرًا والحذر منه ممكن؟ والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فإن الغضبان أيضًا يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون.

والذي يُخلِّصُك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور:

أحدهما: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك فله المنة فيه لا لك، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك، وعاقبتك أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال فأقول تغضب لمولاك وسيدك، إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجيًا وصاحبك هالكًا، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم انه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول: إذا كان للملك غلام وولد هو قرّة عينه، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به، ويغضب عليه. فإن كان الغلام محبًا مطيعًا لمولاه فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به، ولأنه يريد التقرّب بامتثال أمره إليه، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام.

فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظنّ أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم، لما سبق لهما من الحسنى في الأزل، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة. فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع.

وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة: وذلك أيضًا فتنة عظيمة على العباد، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا

ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي**»(١)، إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم.

فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر، فيقال له: أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات، وكما أنّ العلم يمكن أن يكون حجة على العالم، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن وقد وردت الأخبار بها يشهد لذلك، وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه لم يجز له أن يحتقر عالمًا بل يجب عليه التواضع له.

فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي**»؟ فاعلم أن ذلك كان ممكنًا لو علم العالم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقته به، وإذا كان هذا ممكنًا كان على نفسه خائفًا فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفًا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعه من التكبر بكل حال. فهذا العابد مع العالم، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين، فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل عنه ذنوبًا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبًا لله، وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك. فلا ينبغي أن تتكبر عليه.

ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنبًا، لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة. نعم يمكن أنّ تعلم أن

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة.

ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والرياء، ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ في ذلك شديد عند الله، فربما جرى عليك في باطنك من خفايات الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتًا وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه، وقد كفّر الله بذلك عنه سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبًا عندك إن كنت مشفقًا على نفسك، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وعذاب غيرك لا يخفف شيئًا من عذابك، فإذا تفكرت في هـذا الخطر كان عندك شغـل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك والله أعلم.

❁ ❁ ❁

الحديث العشرون

Ż ł Ǵūǝʒ èϜ Ż ƴƒ ǫ ŭǉ ƚǸơ ƙǭ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» رواه مسلم والترمذي.

:[1] Ƥǽƴ٦ǩƚ ţƐ‖

للغزالي مع هذا الحديث أربع وقفات:

:ʒƙƥ øƚƥ ƞǳ ʂǩƚƥ ƙƙǭ Ğ ǩƚ Ǽǝ ŭǉ ƚǸǭǩƚ :Ǻǩƥ àł ƞǞāǸǩƚ

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿**وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا**﴾ [الفرقان:٦٣].

وأما السنة: فهناك عدد من الأحاديث التي تحث على التواضع منها:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد**»[2].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمةٌ بيد مَلَكٍ، فإذا تواضع قيل للملك أرفع حَكَمَتَهَ، وإذا تكبر قيل للمَلَك ضع حكمته**»[3]، والحَكَمَة: الحديدة التي توضع على لجام الفرس ليقاد بها.

وأما الآثار:

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش رفعك الله، وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض وقال اخسأ خسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير.

---

(١) الإحياء (٣/ ٣٥٩) وما بعدها.

(٢) رواه مسلم وأبو داود.

(٣) رواه الطبراني والبزار وإسنادهما حسن.

وقال جرير بن عبد الله: انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسوّيته عليه، ثم إنّ الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة. يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم في الدنيا.

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات، التواضع.

وقال يوسف بن أسباط: يجزي قليل الورع من كثير العمل ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد.

وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته؛ ولو سمعته من أجهل الناس قبلته.

وقال ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل.

وقال قتادة: من أعطي مالًا أو جمالا أو ثيابًا أو علمًا ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالًا يوم القيامة. وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك.

وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورُفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقًا من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه. وقيل لعبد الملك بن مروان: أي الرجال أفضل؟ قال:

من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة – أي ترك للانتصار لنفسه مع قوته –.

ودخل ابن السماك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين إنّ تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت! فقال: يا أمير المؤمنين إنّ امرأ آتاه الله جمالًا في خلقته وموضعًا في حسبه وبسط له في ذات يده فعف في جماله وواسى من ماله وتوضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله، فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده.

وكان سليمان بن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين وقال بعضهم: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدوّن فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة.

روي أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن: أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلًا.

وقال أبو سليمان: إنّ الله عَزَّوَجَلَّ اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلبًا أشدّ تواضعا من قلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فخصه من بينهم بالكلام.

وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات: لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم إني أخشى أنهم حرموا بسببي.

ويقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه.

وقال زياد النمري: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر. وقال مالك بن دينار: لو أن مناديًا ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلًا والله ما كان أحد يسبقني إلى

الباب إلا رجلًا بفضل قوّة أو سعي قال: فلما بلغ ابن المبارك قوله: قال بهذا صار مالك مالكًا.

وقال الفضيل: من أحب الرياسة لم يفلح أبدًا. وقال موسى بن القاسم كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت: يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عَزَّوَجَلَّ لنا، فبكى ثم قال ليتني لم أكن سبب هلاككم، قال: فرأيت النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في النوم فقال إنّ الله عَزَّوَجَلَّ رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل.

وجاء رجل إلى الشبلي رَحِمَهُاللَّهُ فقال له: ما أنت؟ وكان هذا دأبه وعادته، فقال: أنا النقطة التي تحت الباء فقال له الشبلي أباد الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعًا.

وقال الشبلي في بعض كلامه: ذلي عطل ذل اليهود. ويقال: من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب.

وعن أبي الفتح بن شخرف قال: رأيت علي بن أبي طالب رَضِيَاللَّهُعَنْهُ في المنام فقلت له يا أبا الحسن عظني، فقال لي: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله! وأحسن من تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عَزَّوَجَلَّ. وقال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه وقال أبو يزيد: ما دام العبد يظنّ أنّ في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتى يكون متواضعًا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالًا، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عَزَّوَجَلَّ ومعرفته بنفسه، وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه. وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع. وقال يحيى ابن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع. والسفيه إذا تنسك تعاظم.

وقال يحيى بن معاذ: التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع. ويقال: التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح.

ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عَزَّوَجَلَّ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عَزَّوَجَلَّ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال أبو علي الجوزجاني: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيرًا لطف به في ذلك فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عَزَّوَجَلَّ.

وعن الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه «لولا أنه روي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم**»(١)، ما تكلمت عليكم».

وقال الجنيد أيضًا: «التواضع عند أهل التوحيد تكبر ولعل مراده أنّ المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحِّد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئًا حتى يضعها أو يرفعها.

وعن عمرو بن شيبة: قال كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلًا راكبًا بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس، قال: ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمله فقال لي مالك تنظر إليَّ؟ فقلت له: شبهتك برجل رأيته بمكة ووصفت له الصفة، فقال له: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس.

وقال المغيرة: كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير وكان يقول إن زمانًا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء.

---

(١) حديث: «**يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم**»، أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة: «**إذا اتخذ الفيء دولا...**» الحديث، وفيه: «**كان زعيم القوم أرذلهم...**» الحديث، وقال: غريب.

وكان عطاء السلمي إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض، وقال هذا من أجلي يصيبكم، لو مات عطاء لاستراح الناس.

وكان بشر الحافي يقول: سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم.

ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال: أعطاك الله ما ترجوه فقال إنّ الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة؟.

وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا فقال سلمان: لكنني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتي الميزان فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم.

وقال أبو بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين، والشرف في التواضع. نسأل الله الكريم حسن التوفيق.

ƐƜ Ğ ǩł ƿƺ ŭ lj ŁŇƣǩł Ɛƥƺ ĠØə ƐĦ ŏǽ ƙǬƿ ǰØü lj ŁŇƣǮǩł ā ÊƱƺ ǮƙØƛ :ɳØŴƘƦǩł ɳĀāŇǩł:

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصَعر ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان:١٨]، في وجهه ونظره شزرًا وإطراقه رأسه وجلوسه متربعًا أو متكئًا وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض.

فمنها: التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه. وقد قال علي كرم الله وجهه: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام.

وقال أنس: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك(١).

---

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب، وقال البغوي في شرح السنة: إسناده صحيح.

ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه. قال أبو الدرداء: لا يزال العبد يزداد من الله بعدًا ما مُشِيَ خلفه، وكان عبدالرحمن بن عوف لا يُعرَفُ مِن عبيده، إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة. ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال: ما يُبقي هذا من قلب العبد.

ومنها: أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع. روي أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم: أن تعال فحدثنا، فجاء سفيان فقيل له: يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه؟.

ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. قال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي روّاد فمس فخذي فخذه فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي:لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة وإني لا أعرف رجلًا منكم شرًا مني؟ وقال أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء[1].

ومنها: أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم، وهو الكبر؛ كان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لا يحبس عن طعامه مجذومًا ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته.

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلًا في بيته، والتواضع خلافه: روي أن عمر بن عبدالعزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبه الغلام؟ فقال هي

(١) أخرجه أحمد في مسنده وابن ماجه في سننه، ورواه البخاري في صحيحه بلفظ: إن كانت الأمة من إماء المدينة.. الخ.

أوّل نومة نامها، فقام وأخذ العُكَّة وملأ المصباح زيتًا فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء! وخير الناس من كان عند الله متواضعًا.

ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين، كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك[١]. وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله.

وكان أبو عبيدة ابن الجراح وهو أمير يحمل سطلًا له من خشب إلى الحمام وقال ثابت بن أبي مالك: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان، فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك وعن الأصبغ بن نباتة قال: كأني أنظر إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معلقًا لحمًا في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة، يدور في الأسواق حتى دخل رحله. وقال بعضهم رأيت عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد اشترى لحمًا بدرهم فحمله في ملحفته، فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

ومنها: اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**البذاذة من الإيمان**»[٢]، فقال هارون: سألت أنسًا عن البذاذة فقال: هو الدون من اللباس.

وقال زيد بن وهب: رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم، وعوتب عليّ كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب. وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: جودة الثياب خيلاء في القلب.

---

(١) أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

ويروى أنّ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار فيقول: ما أجودها لولا خشونة فيها؛ فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما أجوده لولا لينه! فقيل له أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال إن لي نفسا ذواقة وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطباق تاقت إلى ما عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال سعيد بن سويد: صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه مليًّا ثم رفع رأسه فقال إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من ترك زينة لله ووضع ثيابًا حسنة تواضعًا لله وابتغاء لمرضاته كان حقًّا على الله أن يدخر له عبقري الجنة**»[1].

فإن قلت: فقد قال عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: جودة الثياب خيلاء القلب وقد سئل نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال: «**لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس**»[2]، فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلم أنّ الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الذي عرفه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حال ثابت بن قيس إذ قال: «**إني امرؤ حبب إليّ من الجمال ما ترى**»، فعرف أنّ ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر، وقد يكون ذلك من الكبر كما أنّ الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع. وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس

(١) قال العراقي: أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس وفي إسناده نظر الإحياء (٣/ ٣٧٥).

(٢) أخرجه مسلم بلفظ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»، وما ذكره المؤلف أخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم وصححه ووافقه عليه الذهبي.

ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان. وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته وحتى في سنور داره، فذلك ليس من التكبر.

فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على بعض الأحوال على أنّ قوله: خيلاء القلب؛ يعني قد تورث خيلاء في القلب، وقول نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنه ليس من الكبر**»، يعني أنّ الكبر لا يوجبه ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثًا للكبر. وبالجملة؛ فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة. وقد قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا في غير سرف ولا مخيلة**»(١)، «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(٢).

وقال بكر بن عبد الله المزني: البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية، وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح. وقد قال عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري؟ البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية.

ومنها: أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذي وأخذ حقه، فذلك هو الأصل. وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد- من كتاب الإحياء - وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيه فينبغي أن يقتدى به، ومنه ينبغي أن يتعلم.

وقد قال أبو سلمة: قلت لأبي سعيد الخدري ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي كل لله واشرب لله والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه.

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه وقد جعلهما المصنف حديثًا واحدًا.

الخدمة ما كان يعالج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته، كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويَقُمُّ البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا، ويشتري الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يُعلِّقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه، وينقلب إلى أهله؛ يصافح الغني والفقير والكبير والصغير، ويسلم مبتدئًا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليس له حلة لمدخله وحلة لمخرجه ولا يستحي من أن يجيب إذا دُعي وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دعي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء، هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طليق الوجه بسام من غير ضحك، محزون من غير عبوس، شديد في غير عنف، متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف، رحيم لكل ذي قربى ومسلم، رقيق القلب دائم الإطراق لم يجشأ قط من شبع، ولا يمد يده من طمع، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فحدّثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: ما أخطأ منه حرفًا ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمتلئ قط شبعًا ولم يبث إلى أحد شكوى، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى، وإن كان ليظل جائعًا يلتوي ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل. وربما بكيت رحمة له مما أوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: «**يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم فأصبر أياما يسيرة أحب إليَّ من أن ينقص حظي غدا في الآخرة وما من**

شيء أحب إليَّ من اللحوق بإخواني وأخلائي». قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عَزَّ وَجَلَّ(١).

فما نقل من أحواله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به، ومن رأى نفسه فوق محله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشدّ جهله! فلقد كان أعظم خلق الله منصبًا في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به، ولذلك قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العز في غيره، لما عوتب في بذاذة هيئته عند دخوله الشام.

وقال أبو الدرداء: اعلم أنّ لله عبادًا يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوّة أبدل الله مكانهم قومًا من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع في غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه، وهم أربعون صدّيقًا أو ثلاثون رجلًا قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه، واعلم يا أخي أنهم لا يلعنون شيئًا ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحدًا ولا يحرصون على الدنيا، هم أطيب الناس خلقًا وألينهم عريكة وأسخاهم نفسًا، علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية وغدًا في غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة، قلوبهم تصعد ارتياحًا إلى الله واشتياقًا إليه وقدمًا في استباق الخيرات ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ**

---

(١) الحديث قال فيه العراقي: «لم أقف له على إسناد» [الإحياء ٣/ ٣٨٦]، ولكن هذا مما عُلِم من سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ﵟٱلۡمُفۡلِحُونَﵞ [المجادلة:٢٢]، قال الراوي: فقلت: يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشدّ عليَّ من تلك الصفة وكيف لي أن أبلغها؟ فقال: ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا، فإنك إذا بغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة، وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة، واعلم يا ابن أخي أنّ ذلك في كتاب الله تعالى المنزل: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَﵞ [النحل:١٢٨]، قال يحيى بن كثير: فنظرنا في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته. اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يا رب العالمين فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

:DĶØ‖ǫ ŋ ȿ ǮŬƛ ŭ Ǉ ŁǸǪǩŁ ğǸǆ ſ Æə 5 ǞǅǩŁ ǯĸȚǪǭŁ :ŋŖǩĸŖǩŁ ŋǞāǸǩŁ

فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك. والتواضع دليل الخوف وهو مسعد؛ فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال. فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعلى هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس.

وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة ولكن نكتفي بذكر هذه الخمس:

الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق، فذلك يدل على أن فيه كبرًا دفينًا فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه.

أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى. وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول: ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلًا عنه فجزاك الله خيرًا كما نبهتني له! فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها.

فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعًا، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله، ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس، ويذكر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق، إلى غير ذلك من أدوية الرياء. وإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعًا ففيه الكبر والرياء جميعًا، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني. فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعًا مهلكان.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفًا حتى يسقط عنه ثقله، فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر، فإن ذلك يخف على صدور المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضًا، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر.

الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلوّ الطريق فهو كبر، وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى: ﴿ **إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء:٨٩]. ويروى عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له يا أبا يوسف: قد كان في غلمانك وبنتك ما يكفيك! قال: أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جرّبها أهي صادقة أم كاذبة؟.

الامتحان الخامس: أن يلبس ثيابًا بذلة، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر. وكان عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ له مسح يلبسه بالليل.

وروي أنّ أبا موسى الأشعري قيل له إنّ أقوامًا يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس.

وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر؛ فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه.

:ǰ ǾǬǭæƵʒ ǰ Ǿλ ηǭǾNJə ŭlj ƗǸǬǩƗ ʒǫ ʒǨǾλ :ηǖλƗƐǩƗ ηǞāǸǩƗ

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة: فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرًا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسسًا ومذلة، والوسط يسمى تواضعًا. والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي قصر الأمور ذميم؛ وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع: أي وضع شيئًا من قدره الذي يستحقه. والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوّى له نعله وعدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضًا غير محمود بل المحمود عند الله العدل؛ وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيرًا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره.

فإذن سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية، فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس، فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم، وذلك غامض في هذا الخُلُق وفي سائر الأخلاق.

والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أنّ الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل،

فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر. والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يُعرَفُ ذلك بالشرع والعادة. ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع. [من خلال شرح هذين الحديثين].

❁❁❁

الحديث الحادي والعشرون

Ɨ ꝏ ʅ ŭǩƗ ǫƵ

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مُرجِّل رأسه يختال في مشيته، إذ خَسَفَ الله به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**» رواه البخاري ومسلم وقال في رواية أحمد: «**أمر الله الأرض فأخذته**».

Ƥǽyƪǩƚ ƫƐ‖[(١)]:

للغزالي مع العجب وما يتعلق به وقفات:

ƚ ʅ ŭǩƚ ɳəƋ ʓǨǾƛ :Ǻǩƿäƚ ɳȂāŇǩƚ :

اعلم أن آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه -كما ذكرناه -فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى، هذا مع العباد.

وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له. وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا عجب بها عمي عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعًا، فإنّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان وأنّ له عند الله منة وحقًّا بأعماله التي هي

---

(١) الإحياء (٣/ ٣٩٠) وما بعدها.

نعمة وعطية من عطاياه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبدّ بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه؛ وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه، فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه، وإن كان في أمر ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق. فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات، ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

:ƘǮǵý̂Ȼ ƒ þ ğ ë Y â ŧþ ƚ ʅ ǖǩƚ η ǢǾǢ ƒ ǮƘǾλ

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان.

إحداهما: أن يكون خائفًا على زواله ومشفقًا على تكدّره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب.

والأخرى: أن لا يكون خائفًا من زواله لكن يكون فرحًا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا أيضًا ليس بمعجب.

وله حالة ثالثة: هي العجب وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحًا به مطمئنًا إليه، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا

من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه، فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه. فإذن العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم. فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقًّا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا، واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعادًا يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا إدلالًا بالعمل، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة، وكذلك قد يعطي غيره شيئًا فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجبًا، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلًّا عليه.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدثر:٦]، أي لا تدل بعملك والإدلال وراء العجب. فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه أي على العمل، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلًّا بعمله لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك فهذ، هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه، والله تعالى أعلم.

:ηǪǮ ɩǩł ÁǪŪ ł ɩüǩł ƧÊŪ ǯǨǾƛ :ηǾǄǨŘǩł ηÃāŇǩł

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضدّه وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم؛ فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوّة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه.

فنقول: الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوّته؛ فإن كان يعجب به

من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل، لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تم، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجماله ولا لخدمة، فينبغي أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه؟ ولا ينبغي أن يعجب بنفسه.

نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب لولا أنه تفطن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرني بها، فيقال وتلك الصفة أيضًا هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك، من غير وسيلة، أو هي عطية غيره؟ فإن كانت من عطية الملك أيضًا لم يكن لك أن تعجب بها، بل كن كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به. فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول: إنما أعطاني غلامًا لأني صاحب فرس فأما غيري فلا فرس له، فيقال وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معًا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر؟ فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك.

وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة، وهذا يتصوّر في حق الملوك ولا يتصوّر في حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة، فإنك إن أعجبت بعادتك وقلت: وفقني للعبادة لحبي له،

فيقال: ومن خلق الحب في قلبك فتقول: هو، فيقال: فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك! فإذًا لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه! لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده، والمحل أيضًا من فضله وجوده.

فإن قلت: لا يمكنني أن أجهل أعمالي وإني أنا عملتها فإني أنتظر عليها ثوابًا، ولولا أنها عملي لما انتظرت ثوابًا، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب؟ وإن كانت الأعمال مني وبقدرتي فكيف لا أعجب بها؟ فاعلم أن جوابك من وجهين:

أحدهما: هو صريح الحق.

والآخر: فيه مسامحة.

أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه، فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، فهذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إبصار العين، بل خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة، ولو أردت أن تنفي شيئًا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه، ثم خلق الحركات في أعضائك مستبدًا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع، إلا أنه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القلب إرادة، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علما بالمراد، ولم يخلق علمًا ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم، فتدريجه في الخلق شيئًا بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك

وقد غلطت، وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتي تقريره في شرح حديث فضل الشكر فأنه أليق به فارجع إليه.

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة ما، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك! فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لا محالة. أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها، ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت يدك وأخذتها كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مدّ اليد وأخذها؟ فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة، وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح. فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل بك فالعمل هين عليك، وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إيثاره إياك على الفساق من عباده إذ سلط دواعي الفساد وصرفها عنك، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك، ومكنك من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة

منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي وأشقاه بعدله فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك! فإذن لا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلًا إلى مخالفتها، فكأنه الذي اضطرّك إلى الفعل إن كنت فاعلًا تحقيقًا فله الشكر والمنة لا لك.

والعجب ممن يتعجب -إذا رزقه الله عقلا وأفقره -ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول: كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل؟ حتى يكاد يرى هذا ظلمًا ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعًا لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال، إذ يقول الجاهل الفقير: يا رب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما فهلا جمعتهما لي أو هلا رزقتني أحدهما وإلى هذا أشار علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قيل له: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إنّ عقل الرجل محسوب عليه من رزقه.

والعجب أنّ العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالا من نفسه ولو قيل له: هل تؤثر جهله وغناه عوضًا عن عقلك وفقرك لامتنع عنه! فإذن ذلك يدل على أنّ نعمة الله عليه أكبر؛ فلم يتعجب من ذلك؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلي والجواهر على الدميمة القبيحة فتعجب وتقول: كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح! ولا تدري المغرورة أنّ الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال؟ فإذن نعمة الله عليها أكبر. وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه: يا رب لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهال؟ كقول من أعطاه الملك فرسًا فيقول أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب فرس؟ فيقول: كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس! فهب أني ما أعطيتك فرسًا أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى؟ فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها، ومنشأ جميع ذلك

الجهل، ويزال ذلك بالعلم المحقق بأنّ العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه به قبل الاستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة. ومن عرف هذا لم يتصوّر أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أنّ ذلك من الله تعالى، ولذلك قال داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا رب ما تأتي ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم - وفي رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك - فأوحى الله تعالى إليه: يا داود ومن أين لهم ذلك! إنّ ذلك لم يكن إلا بي ولولا عوني إياك ما قويت، وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين على قوّتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لا نغلب اليوم من قلة(١) وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥]. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه وهم خير الناس: «**ما منكم من أحد ينجيه عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»(٢)، ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابًا وتبنًا وطيرًا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم، فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه؟ فإذن هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوفُ سلبِ هذه النعمةِ عن الإعجاب بها، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل، فيخاف من ذلك فيقول: إنّ من لا يبالي أن يَحرِمَ مِن

(١) حديث: «**قولهم يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة...**» أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلًا: أن رجلًا قال يوم حنين لن نغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، ولابن مردويه في تفسيره من حديث أنس: لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا: اليوم نقاتل؛ ففروا فيه الفرج بن فضالة ضعفه الجمهور.

(٢) حديث: «**ما منكم من أحد ينجيه عمله...**» الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

غير جناية ويُعطي من غير وسيلة لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب، فكم من مؤمن قد ارتدّ ومطيع قد فسق وختم له بسوء! وهذا لا يبقى معه عجب بحال والله تعالى أعلم.

:ǴΣÊŪ ǨØdžǞơþ ł ˛ūķł Ǵƛ ķǭ ǫķŝāǫ ǯķǾƛ :ηƦķķƦķł ηǞāŇķł

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر – كما مر في شرح الحديث السابق – وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله، فما به العجب ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته. وبالجملة تفصيل خلقته، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال في كل حال، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في أقذار باطنه وفي أوّل أمره وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

الثاني: البطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ [فصلت:١٥]، وروي عن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه: قال لأطوفن الليلة على مائة امرأة! ولم يقل إن شاء الله تعالى، فحرم ما أراد من الولد(١)، ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء، وعلاجه ما ذكرناه، وهو أنْ يعلم أن حمى يوم تضعف قوته! وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

الثالث: العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضًا عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقارًا

---

(١) أخرجه البخاري.

لهم وإهانة، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه! فلا يأمن من أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلًا وإن اتسع علمه وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى؟ وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري. فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجبًا وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد عجبا.

الرابع: العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والازدراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، فليتشرف بما شرفوا به، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، وكانوا عند الله شرًا من الكلاب وأخس من الخنازير، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات:١٣]، أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثم ذكر فائدة النسب فقال: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٣]، ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات:١٣]، ولما قيل لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: من أكرم الناس؟ من أكيس الناس؟ لم يقل من ينتمي إلى نسبي ولكن قال: «**أكرمهم أكثرهم**

للموت ذكرًا وأشدهم له استعدادًا»[١]، وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة: فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد: هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة؟ فنزل قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية** - أي كبيرها - **كلكم بنو آدم وآدم من تراب**»[٢]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا معشر قريش لا تأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فأقول هكذا** - أي أعرض عنكم -»[٣]، فبين أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، ناداهم بطنا بعد بطن، حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا»[٤]، فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه، وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع، وإلا كان طاعنًا في نسب نفسه - بلسان حاله - مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق.

فإن قلت: فقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد قوله لفاطمة وصفية: «**إني لا أغني عنكما من الله شيئًا إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها**»[٥]، فذلك يدل على أنه سيخصص قرابته بالشفاعة؟ فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنسيب أيضا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن

---

(١) أخرجه ابن ماجه و ابن أبي الدنيا.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

(٣) أخرجه الطبراني وسنده ضعيف.لكن ورد في البخاري ومسلم بلفظ «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا».

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه مسلم.

لأحد في شفاعته لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له، وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة، كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتدّ عليه غضب الملك، فمن الذنوب ما لا تنجي منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وبقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وبقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣]، وبقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

وإذا انقسمت الذنوب إلا ما يشفع فيه وإلا ما لا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لا محالة، ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشًا بالطاعة ولما نهى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن المعصية، ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة. فالانهماك في الذنوب وترك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتمادًا على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره، وذلك جهل لأن سعي الطبيب وهمته وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها، فلا يجوز ترك الحمية مطلقًا اعتمادًا على مجرّد، الطب بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج. فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب، فإنه كذلك قطعًا وذلك لا يزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياهم بالجنة، خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم.

الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم. وهذا غاية الجهل. وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم الممقوتون عند الله تعالى، ولو نظر إلى صورهم في النار وأنتانهم وأقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب إليهم، ولأنكر على من نسبه إليهم استقذارًا واستحقارًا لهم، ولو انكشف له ذلهم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرّونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم، فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله أن يشكروا الله تعال على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانـوا مسلمين! فأما العجب فجهل محض.

السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبأ:٣٥]، وكما قال المؤمنون يوم حنين: لا نغلب اليوم من قلة، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩]، ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلًا مهينًا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير، فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئًا، وفي أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦] الآية. فأي خير فيمن يفارقك في أشدّ أحوالك ويهرب منك؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى؟ فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نِعَمَ من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك.

السابع: العجب بالمال كما قال تعالى إخبارًا عن صاحب الجنتين إذ قال: ﴿**أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا**﴾ [الكهف:٣٤]، وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بينما رجل يتبختر في حلة له قد أعجبته نفسه إذا أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(١)، وأشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه. وقال أبو ذر، كنت مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل المسجد فقال لي: «**يا أبا ذر ارفع رأسك**»، فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياد، ثم قال: «**ارفع رأسك**»، فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي: «**يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا**»(٢)، وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى، فكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله؟.

الثامن: العجب بالرأي الخطأ. قال الله تعالى: ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا**﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿**وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا**﴾ [الكهف:١٠٤]، وقد أخبر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة**»(٣)، وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقًا فكل معجب برأيه: ﴿**كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ**﴾ [المؤمنون:٥٣]، وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظنّ كونه حقًّا وعلاج هذا العجب أشدّ من

---

(١) متفق عليه وهو حديث الباب.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه وروى البخاري حديثًا آخر بمعناه.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وحسنه السيوطي أيضًا في الجامع الصغير (٥٠٠٧).

علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدًّا. لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه، إلا إذا كان معجبًا برأيه وجهله فإنه لا يصغي إلى العارف ويتهمه، فقد سلط الله عله بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهمًا لرأيه أبدًا لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمر في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور، والصواب لمن لم يتفرّغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب ولا يصغي إليها ولا يسمعها، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل، بل يقول آمنا وصدّقنا ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال، فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر. هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم، فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكبر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدا، فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال.

❁❁❁

الحديث الثاني والعشرون والثالث والعشرون

Ǻǩǩūơ Ż ł ηØ ǂ Ʊ ǰǭ ǲ Ğ ǖǩł

عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من ذكر الله وفاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذَّب يوم القيامة**»، أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وقال صحيح (٤/ ١٨٩).

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله**»، رواه الترمذي وقال حسن غريب.

ǰØŘæƴȚǩł ţƸ ǁ(١):

يدور شرح الحديثين حول أربعة محاور:

المحور الأول: في بيان ما جاء في الترغيب في الخوف والخشية وفضلهما:

ŋØ ǂ Uǩłþ ÙǸUǩł ǨNJǝ Ǽǝ Ǭæƹ Ğ ǩł ǯǡƸĀǩł Ǽǝ ǲƩ ǩǭ : ëǷǫ:

قال الله تعالى: ﴿**هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**﴾ [الأعراف:١٥٤]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ**﴾ [فاطر:٢٨]. وصفهم بالعلم لخشيتهم. وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ**﴾ [البينة:٨]، وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأنّ الخوف ثمرة العلم، ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام: وأما الخائفون فإنّ لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه. فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء. ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم، ولذلك لما خير رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول:

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ١٦٣) وما بعده، والأربعين في أصول الدين (١٩٩) وما بعدها.

«أسألك الرفيق الأعلى»[(١)]، فإذن إن نُظِرَ إلى مُثمِر فهو العلم يعني العلم يُثمر الخوف وإن نظر إلى ثمرته - أي ثمرة الخوف - فالورع والتقوى، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما، حتى إنّ العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها، كما صار الحمد مخصوصًا بالله تعالى والصلاة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى يقال: الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين. والصلاة على سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآله أجمعين.

وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧]، وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف - كما سبق - ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات:١٣]، ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:١٣١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]، فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان، فلذلك لا يتصوّر أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فضيلة التقوى: **«وإذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فإذا هم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول: يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إليَّ اليوم، إنما هي أعمالكم ترد عليكم أيها الناس: إني قد جعلت نسبًا وجعلتم نسبًا فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم، قلت: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان، فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي، أين المتقون؟ فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب»**[(٢)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك بسند ضعيف.

:ηØ ‡ Uǩłþ ÙǸUǩł ǨNJə Ǽə ηǽǸŬĐǩł ƤǽYǨ ƒ àł ǰǭ ǱǨΣ ǨǬ :ǨǴǖǨþ

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها**»(١)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع**»(٢)، وقال عقبة بن عامر: ما النجاة يا رسول الله؟ قال: «**أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك**»(٣)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك قبل أن تصير الدموع دمًا والأضراس جمرًا**»(٤)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله**»، وذكر منهم: «**رجلًا ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(٥).

وروي عن حنظلة قال: كنا عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فدنت مني المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخذنا في الدنيا، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي: قد نافقت حيث تحول عني ما كنت فيه من الخوف والرقة، فخرجت وجعلت أنادي نافق حنظلة، فاستقبلني أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: كلا لم ينافق حنظلة فدخلت على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أقول: نافق حنظلة فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلا لم ينافق حنظلة**»، فقلت: يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه. فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا حنظلة**

---

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي بسند ضعيف وأخرجه أبو الشيخ وابن حبان في الثواب.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) رواه الترمذي وقال: حسن غريب ورواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير بإسناد حسن.

(٥) متفق عليه.

لو أنكم كنتم أبدًا على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة في الطريق وعلى فراشكم؛ ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»[(١)].

فإذن كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبَّب أو تعلق المسبب.

:ŃĶǾȚǩł Æə ĶǮğƩƥşƿ ηǾ ǂ Ʊǩłƿ ÜǸƱǩł ǨǊə Æə ȜĶɯƱ ä ł ǰ ǭ ǅĶΣ Ķǭ :ĶȒǩĶƥ

وقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتباك.

وكان محمد بن المنكدر رَحِمَهُ اللَّهُ إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعًا مسته الدموع.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلبه.

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: ما تغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيامة، فإن سالت دموعه أطفأ الله بأوّل قطرة منها بحارًا من النيران ولو أن رجلًا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة.

وقال أبو سليمان: البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق.

وقال كعب الأحبار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والذي نفسي بيده لأنْ أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي أحبّ إليَّ من أن أتصدق بجبل من ذهب.

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إليَّ من أن أتصدّق بألف دينار.

---

(١) أخرجه مسلم مختصرًا.

:ǴǾə ĎĶǮǪūǩł ğŁŇāǫƿ ǴƛƘШƼǫ ǮĶǾƛƿ ǓŇƲǩł ɳǼǾǼ ƒ ǮĶǾƛ :ǼǳĶƦǩł ƷŇƮǮǩł

اعلم أنّ الخوف عبارة عن تألم القلب وإحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء، ومَنْ أَنِسَ بالله وملَكَ الحقُّ قلبهً وصار ابن وقته مشاهدًا لجمال الحق على الدوام: لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمانان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال: الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد وقال أيضًا: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف؛ وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في الشهود، وإنما دوام الشهود غاية المقامات، ولكنا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول: حال الخوف ينتظم أيضًا من علم وحال وعمل.

أما العلم: فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلًا ويجوّز العفو والإفلات، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوّة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقودًا غضوبًا منتقمًا وكونه محفوفًا بمن يحثه على الانتقام خاليًا عمن يتشفع إليهم في حقه، وكان هذا الخائف عاطلًا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوّة الخوف وشدّة تألم القلب، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالبًا وإن كان إفتراسه بالاختيار، وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه، كخوف مَنْ وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإنّ الماء يُخافُ لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق، وكذا النار على الإحراق؛ فالعلم بأسباب المكروه

هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه، وذلك الإحراق هو الخوف، فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعًا. وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فتكون قوّة خوفه؛ فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه؛ ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا أخوفكم لله**»[١]، وكذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات.

أما في البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء، وقد تنشقُّ به المرارة فيُفضِي إلى الموت، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل، أو يقوى فيورث القنوط واليأس.

وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيًا لما فرط وإستعدادًا للمستقبل ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه. وقال أبو القاسم الحكيم: من خاف شيئًا هرب منه ومن خاف الله هرب إليه. وقيل لذي النون: متى يكون العبد خائفًا؟ قال: إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمى مخافة طول السقام.

وأما في الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهًا عند من يشتهيه إذا عرف أنّ فيه سمًا فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والإستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في

(١) أخرجه البخاري، وللشيخين «والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنَّة - البخل - بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك، فيكون ظاهره وباطنه مشغولًا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره.

هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه، وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوّة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه، وقوّة الخوف بحسب قوّة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال: أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعًا، فإن زادت قوّته كف عما يتطرّق إليه إمكان التحريم فيكفُّ أيضًا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى، إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به باس وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرّد للخدمة فصار لا يبنى مالا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسًا من أنفاسه فهو الصدق، وصاحبه جدير بأن يسمى صدّيقًا ويدخل في الصدق التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الإمتناع عن مقتضى الشهوات خاصة؛ فإذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجددّ له بسبب الكف اسم العفة، وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعًا، ووراءه اسم الصديق والمقرّب، وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم؛ فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل، كما أنك تقول: الإنسان إما عربي وإما عجمي، والعربي إما قرشي أو غيره، والقرشي إما هاشمي أو غيره، والهاشمي إما علوي أو غيره

والعلوي إما حسني أو حسيني، فإذا ذكرت أنه حسني مثلًا فقد وصفته بالجميع، وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه، فكذلك إذا قلت صديق فقد قلت: إنه تقي وورع وعفيف، فلا ينبغي أنّ تظنّ أن كثرة هذه الأسامي تدل على معان كثيرة متباينة، فيختلط عليك كما اختلط على من طلب المعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ المعاني، فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفًا وإقدامًا.

: ù ūNJǩþ ƝǸĀǩŀ Ǽə ǴəÊϘƱþ ÙǸUǩŀ ƟǨΣƷY ǯǨØƛ :ƤǩǨƦǩŀ ƷǸƮƷǩŀ

اعلم أن الخوف محمود، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد! وهو غلط، بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى، والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي، ولكن ذلك لا يدل على أنّ المبالغة في الضرب محمودة، وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال. والمحمود هو الاعتدال والوسط.

فأما القاصر منه فهو الذي يجرى مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألمًا مبرحًا فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء، ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن الخوف، بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله، وذلك مما قد عز وجوده الآن؛ ولذلك قال الفضيل بن عياض: إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت، فإنك إن قلت: لا كفرت، وإن قلت: «نعم» كذبت وأشار به إلى أنّ الخوف هو الذي يكف الجوارح عن

المعاصي ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفًا

وأما المفرِّط فإنه الذي يقوى ويجاوز حدّ الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مذموم أيضًا لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج الخوف أيضًا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل؛ فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل، ولولاه لما كان الخوف؛ لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأه الجهل والعجز. أما الجهل فإنه ليس يدري عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفًا لأنّ المخوف هو الذي يُتردَّدُ فيه.

وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه؛ فإذن هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمي، وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة، وإنما يصير الشيء محمودًا بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه، كما يكون احتمال ألم الدواء محمودا لأنه أهون من ألم المرض والموت، فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم، وقد يخرج الخوف أيضًا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل، وقد يخرج إلى الموت، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوًا من أعضائها، وإنما ذكر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المُفْرِطَ - الزائد - المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور، فكل ما يُراد لأمر فالمحمود منه ما يُفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم، وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم.

إذن فالخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه، مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة، وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فإن لم يَحملِ إلا على العفَّة والكف

عن الشهوات فله درجة، فإذا أثمر الورع فهو أعلى، وأصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين: وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوء الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع، وذلك مع بقاء العقل والصحة، فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه، أو قدر عليه، ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول.

:ǰ ǾǭǢǽƐ ǎ ƛ ȖǸƱǩƚ Ǩdžƫǽ ƙƷǂƿ ȖǸƱǩƚ ǨǾdžƫơ ƞǾǞǾ g :ǔƛƚƐǩƚ ƷǸƮƷǩƚ

الأول: معرفة الله تعالى، فإنها توجب الخوف بالضرورة فإن الواقع في مخالب السبع لا يحتاج لعلاج ليخاف إن كان يعرف السبع، ومن عرف جلال الله تعالى واستغنائه وأنه خلق الجنة وخلق لها أهلًا، وخلق النار وخلق لها أهلًا، وأنه تمت كلمته بالسعادة وبالشقاوة في حق كل أحد صدقًا وعدلًا وأن ذلك لا يُتصوّر تغيره ولا يصرفه عن تنفيذ قضائه الأزلي صارفُ، وهو لا يدري ما الذي سبق به القضاء في حقه ولا يدري ما الذي يختم له به، واحتمل عنده أن يكون مقضيًا له بشقاوة الأبد وهذا لا يُتصور أن لا يخاف.

الثاني: من عجز عن حقيقة المعرفة فعلاجه النظر إلى الخائفين، ومشاهدة أحوالهم أو سماع ذلك؛ فإن أخوف خلق الله الأنبياء والأولياء، والعلماء، وأهل البصيرة، وأعظم الخلق أمنًا الغافلين الأغبياء، الذين لا يمتد نظرهم لا إلى السابقة ولا إلى الخاتمة، ولا إلى معرفة جلال الله تعالى، وهذا، كما أن الصبي لا يخاف الحية ما لم ينظر إلى أبيه يخافها ويهرب منها، وترتعد فرائصه إذا رآها فينظر إليه فيقلده، ويستشعر خوفه، وإن لم يعرف بالحقيقة صفة الحية. وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما جاءني جبريل** عَلَيْهِ السَّلَامُ **قط إلا وهو يرتعد فرائصه فرائصة خوفًا من الجبار**»(١). وقيل: لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبرائيل وميكائيل يبكيان، فأوحى الله سبحانه إليهما: ما لكما تبكيان؟ قالا: يا رب ما نأمن مكرك، فقال

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة.

الله تعالى: هكـذا كـونا لا تأمنا مـكري: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

وختام القول: وردت آيات كثيرة في التخويف من سوء المصير ومن وقف عندها وتدبرها حق له أن يخاف على نفسه من العذاب، وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**شيبتني هود وأخواتها**»(١)، أي سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء: لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:٦٠]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود:٦٨]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٥]، مع علمه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه لو شاء الله ما أشركوا، إذا لو شاء لآتى كل نفس هداها وفي سورة الواقعة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة:٢-٣]، أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة: إما خافضة قومًا كانوا مرفوعين في الدنيا، وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا. وفي سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٢-١٤]، وفي عم يتساءلون: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ:٤٠] الآية، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨]، والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢]، لكان كافيًا إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها وأشد منه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص:٦٧]، وقوله تعـالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:٨]، وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١].

❊❊❊

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه.

الحديث الرابع والعشرون

DKøøΣƐǩłþ ÙǸÙǩł ǰØƛ

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: حدثنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهو الصادق المصدوق–: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسل إليه الملّكُ فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**» رواه البخاري ومسلم.

ǁƐţ ǩłƬƴǽƤ[1]:

يدور الشرح حول القَسَمِ النبوي في آخر الحديث وهو ما يتعلق بخواتيم الناس إما إلى الجنة – جعلنا وإياكم من أهلها – وإما إلى النار عياذًا بالله تعالى، وهذا يجعل قلب العبد بين الخوف والرجاء، وهاهنا ثلاثة محاور:

ǩłƷƬƷǁàǵ: ƛØǨƷ ǵƿàǩłƘǨŊ: ǵǸ ƞǕǗƞ ǩłÙǸÙǩł ǵƿ ǩłƐƩǨǸ ǵƿ ÙǕÿƴǩłǨƷǨ:

اعلم أنّ الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما، وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب؛ فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان، وهذا لأنّ كل ما يراد لمقصود

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ١٧٣) وما بعدها.

ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواءان يداوي بهما القلوب؛ ففضلهما بحسب الداء الموجود؛ فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل، ويجوز أن يقال مطلقًا: الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع، و بالسكنجبين مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل، فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل؛ لأنّ المعاصي والاغترار على الخلق أغلب، وإن نظر إلى مطلق الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقي من بحر الرحمة، ومستقى الخوف من بحر الغضب، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام. وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء.

ولذلك قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلًا واحدًا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلًا واحدًا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل، وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي؛ فمثل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه؛ فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره.

فإن قلت: مثل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه، بل ينبغي أن يغلب رجاؤه وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوّة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها

غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساويًا لرجائه، فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين! فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر ذَلله، وذلك وإن أوردناه مثالًا فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة، إذ عُلِم بالتجربة صحة الأرض ونقاؤها، وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها، وإنما مثال مسألتنا بذر لم يجرّب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها، وهي في بلاد، ليس يدري أتكثر الصواعق فيها أم لا فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه،والبذر في مسألتنا هو الإيمان: وشروط صحته دقيقة، والأرض: القلب وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة، إذ قد تعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله، والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده، وذلك مما لم يجرّب مثله، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرّب، فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جبانًا في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سيحكى في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه، فأما أن يغلب رجاؤه فلا، ولقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئًا، إذ كان قد خصه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعلم المنافقين[1]، فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي.

---

(١) أخرجه مسلم.

ǅǨǮǬǻǨƗ ǧǂǸǠǭǐ ǅǨƩƸǨƗ ǺǬǕ ǙǸǓǨƗ ƗǾǬǼơ ǺǨǊ ǸǮǨǁǊ ƤǽƔƮǨƗ Ǽǝ :ǼǅǨƦǨƗ ǮǸƮǮǨƗ

: Ǥ ǨǮ Ǽǝ

وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه؟ وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة؟ كما في الحديث فوالله الذي لا إله غيره»، وفي رواية: «إلا قدر فواق ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار»(١)، وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملاً بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء، فكيف يؤمن ذلك؟ فإذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه، وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة، ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]، وأين مثل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ فالخلق الموجودة في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط أنّ لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببًا للتكاسل عن العمل وداعيا إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدّر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود، دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط.

وقد قال يحيى بن معاذ: من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادّكار.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار وللبزار وللطبراني في الأوسط سبعين سنة وإسناده حسن.

وقال مكحول الدمشقي: من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد.

:ĽNJəǫ ƟŇƷǩł yǲŪ ŪŇƲǩł ǺǫŪ ǅƘΣƐǩł ł Ǿǫǚơ :ƤǩƘƦǩł ƷŇƮƷǩł

فإذن لابد من الجمع بين هذه الأمور، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته، وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبًّا لله تعالى ليكون محبًّا للقاء الله تعالى فإنّ من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب، والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة، فإن المصير إليه والقدوم بالموت عليه، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتدّت محنته وعذابه، فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب: فهذا رجل محابه كلها في الدنيا، فالدنيا جنته، إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه، فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه فموته قوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدّر، فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب

موته من الثواب والعقاب فضلًا عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر، وفضلًا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزى والنكال، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن، فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال: «**اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إليَّ من الماء البارد**»(١)، والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب، ولذلك قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**»(٢)، وقال تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»، ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه: يا بني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به، وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجِّونه. وقال أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لابنه عند الموت: اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: أن حببني إلى عبادي. فقال: بماذا؟ قال: بأن تذكر لهم آلائي ونعمائي، فإذن غاية السعادة أن يموت محبًا لله تعالى، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير، فسأله؟ فقال: الآن أَفلتُّ، فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له: إنه مات البارحة.

(١) حديث: «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك» الحديث أخرجه الترمذي من حديث معاذ.

(٢) حديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه» أخرجه مسلم من حديث جابر.

الحديث الخامس والعشرون

ƘØⅅyǩł Æə yǵƶǩł

عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله؛ دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس؟ فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**»، قال النووي: حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة، ورواه الطبراني والحاكم.

:(١)Ƥæy⅂ǩł ţƐ‖

هاهنا أربعة محاور:

:ɴƐℏ ǎ Ʒǩł ηæǸⅢⅮƷǩł ηⅮ ʂǩłþ Åǩǩűơ Ż ł ƙǨɋ ȩ Æə yǵƶǩł :ğþ à ł ƷǸ⅂Ʒǩł

أما في الكتاب العزيز:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠].

وقال الله تعالى في حق قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص:٧٩-٨٠]. فبين أن الزهد من ثمرات العلم.

---

(١) الأربعين في أصول الدين (٢٠٣) وما بعدها.

وأما في السنة النبوية المطهرة:

فقد قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ أصبح وهمه الدنيا شتَّت الله عليه أمره، وفرَّق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن أصبح وهمُّهُ الآخرة، جمع الله له همَّهُ، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**»(١).

ولما سئل صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن قوله تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ [الأنعام:١٢٥]. وعن معنى الشرح، قال عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «**إن النور إذا دخل القلب انشرح الصدرُ وانفسح**»، قيل: وهل لذلك من علامة؟ قال: «**نعم، التجافي عن دار الغُرُور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله**»(٢).

:ǰæƴǵłƨǩł ǧłǸ ƒ ǫƥ ƘǾǅƴǩł Ǽə ƴǵƨǩł ƞǞǾǞ ƒ ƺƘǾƛ :ǼǅƘƦǩł ƷǸƮƷǩł

للزهد في الدنيا حقيقة، وأصل، وثمره.

أما حقيقته فهو: عزوف النفس عن الدنيا وانزواؤها عنها طوعًا مع القدرة عليها.

وأصله: العلم والنور الذي يشرق في القلب حتى ينشرح به الصدر. ويتضح به أن الآخرة خير وأبقى، وأن نسبة الدنيا إلى الآخرة أقل من نسبة خزفة إلى جوهرة.

وثمرته: القناعة من الدنيا بقدر الضرورة، وهو قَدْرُ زاد الراكب، فالأصل نور المعرفة، فيثمر حال الإنزواء، ويظهر على الجوارح بالكف إلا عن قدر الضرورة في زاد الطريق. والضروري من زاد الطريق، مسكن، وملبس، ومطعم، وأثاث.

أما المطعم: فمن حيث الزمان فأقصى درجاته الاقتصار على دفع الجوع في الحال، فإذا دفعه غدوة لم يدخر شيئًا لعشائه، وأوسطه أن يدخر لشهر إلى أربعين يومًا فقط،

(١) رواه ابن ماجه بإسناد جيد.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد وعبدالرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي.

وأدناه أن يدخر لسنة، فإن جاوز ذلك خرج عن جميع أبواب الزهد، إلا أن لا يكون له كسب ولا يأخذ من الأيدي، كداود الطائي، فإنه ملك عشرين دينارًا، فأمسكها وقنع بها عشرين سنة، فذلك لا يبطل مقام الزهد ودرجته في الآخرة إلا عند من شرط التوكل في الزهد.

وأما من حيث الكمية: فأقله نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مُد(١)، والزيادة عليه تبطل رتبة الزهد. وأما الجنس، فأقله ما يقوت ولو النخالة، وأوسطه خبز الشعير، وأعلاه خبز البر غير منخول، فإن نخل فهو تنعم لا زهد. فأما الإدام فأقله الخل والبقل والملح، وأوسطه الأدهان، وأعلاه اللحم. وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين، فإذا دام لم يكن صاحبه زاهدًا. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان يأتي أربعون ليلة، وما يوقد في بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصباح ولا نار»(٢)، وقيل: «ما شبع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر»(٣).

وأما الملبس فأقله ما يستر العورة ويدفع الحر والبرد، وأعلاه قميص وسراويل ومنديل من الجنس الخشن، ويكون بحيث لو غسل ثوبه لم يجد غيره، فإن كان صاحب القميصين لم يكن زاهدًا. قال أبو ذر: أخرجت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كساء ملبدًا وإزارًا غليظًا، فقالت: «قبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذين»(٤)، وصلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خميصة(٥) لها عَلَم، فلما سلم قال: «**شغلني النظر إلى هذه، اذهبوا بها إلى أبي جهم...**» الحديث(٦).

---

(١) المد عند الحنفية ٣٢ لتر. وعند بقية المذاهب٦٨٧ ليتر.

(٢) رواه ابن ماجه من حديث عائشة.

(٣) رواه مسلم وعند الشيخين: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاث ليالٍ تباعًا حتى قبض».

(٤) متفق عليه.

(٥) **الخميصة:** هي ثوب من خز أو صوف معلم.

(٦) متفق عليه.

وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد، فلما سلم عن صلاته، قال: «أعيدوا الشراك الخَلِق، فإني نظرت إليه في الصلاة»(١).

وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبًا، وكان فراش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشْوُها ليف، وعباءَة خشنة(٢).

فهذه سيرة الزهاد في الدنيا، فمن حرم هذه الرتبة فلا أقل من أن يتحسر على فواتها، ويجتهد أن يكون قربه منهم أكثر من قربه من المتنعمين في الدنيا.

:ΘƙΣƷΥ σηÊþ ÁǫŨ ƴǵƶǩł :ƴǵƶǩł ΘƙΣƷΥ :ƤǩƙƦǩł ƷǸƮƷǩł

إحداها: أن يزهد ونفسه مائلة إلى الدنيا ولكن يجاهدها، وهذا متزهد، وليس بزاهد، ولكن بداية الزهد التزهد.

الثانية: أن تنفر نفسه عن الدنيا ولا تميل إليها، لعلمه أن الجمع بينهما وبين نعيم الآخرة غير ممكن، فتسمح نفسه بتركها، كما تسمح نفس من يبذل درهمًا ليشتري جوهرة، وإن كان الدرهم محبوبًا عنده، وهذا زاهد.

الثالثة: أن لا تميل نفسه إلى الدنيا ولا تنفر عنها، بل يكون وجودها وعدمها عنده بمثابة واحدة، ويكون المال عنده كالماء، وخزانة الله تعالى كالبحر، فلا يلتفت قلبه إليه رغبة ونفورًا. وهذا هو الأكمل، لأن الذي يبغض شيئًا فهو مشغول به كالذي يحبه، ولذلك ذمَّ الدنيا قوم عند رابعة العدوية، فقالت: «لولا قدرها في قلوبكم ما ذممتموها». وحمل إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مئة ألف درهم فلم تنفر عنها ولكن فرقتها في يومها، فقالت خادمتها: لو اشتريت بدرهم لحمًا تفطرين عليه، فقالت: «لو ذكَّرتني لفعلت»؛ فهذا هو

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد بإسناد صحيح.

(٢) كما ورد في الآثار ورواه الترمذي في الشمائل من حديث حفصة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بإسناد جيد.

الغنى، وهو أكمل من الزهد، ولكنه مظنَّة غرور الحمقى، إذ كل مغرور يستشعر في نفسه أن لا علاقة لقلبه في الدنيا، وعلامة ذلك، أن لا يدرك الفرق بين أن يسرق جميع ماله أو يسرق مال غيره، فما دام يدرك التفرقة فهو مشغول به.

وأما كمال الزهد وتمامه: أن يقال:

كمال الزهد، هو الزهد في الزهد، بأن لا يعتد به ولا يراه منصبًا، فإن من ترك الدنيا وظن أنه ترك شيئًا فقد عظَّم الدنيا، إذ الدنيا عند ذوي البصائر لا شيء، وصاحبها كمن منعه عن دار الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة خبز وشغله بها، ودخل دار الملك وجلس على سرير الملك، فإن الشيطان كلب على باب الله تعالى، والدنيا كلها أقل من لقمة بالإضافة إلى الملك، إذ اللقمة لها نسبة إلى الملك، إذ يغني بأمثالها، والآخرة لا يتصور أن تغني بأمثالها الدنيا لأنها لا نهاية لها.

:ηþÊþ ĸǮǵþ :ǴØǩƑ ƤŪĸɯǩł ǮĸɯqŪĸƛ ƴǵʒǩł ǬØʂ Ǣơ :ŭƛłƐǩł ǮǸƮǮǩł

الزهد باعتبار الباعث عليه على ثلاث درجات:

إحداها: أن يكون باعثه الخوف من النار. وهذا زهد الخائفين.

الثانية: وهي أعلى منه أن يكون باعثه الرغبة في نعيم الآخرة، وهذا زهد الراجين. والعبادة على الرجاء افضل منها على الخوف، لأن الرجاء يقتضي المحبة.

الثالثة: وهي أعلاها، ان يكون الباعث عليه الترفع عن الالتفات إلى ما سوى الحق، تنزيهًا للنفس عنه، واستحقارًا لما سوى الله. وهذا زهد العارفين، وهو الزهد المحقق، وما قبله معاملة، إذ ينزل صاحبها عن شيء عاجلًا ليعتاض عنه أضعافه آجلًا.

❁❁❁

الحديث السادس والعشرون

ǰ ǽ ƴ ǩǂ Ǽǝ ǴǶǼǞǽ ǂǭǿǷ Ǵǻ Ż ǂ ƳƸǽ ǰ ǭ

عن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**» رواه البخاري ومسلم.

وفي زيادة لأبي يعلى في مسنده «ومَنْ لم يفقهه لم يبال به» ورواه البزار والطبراني بإسناد لا بأس به «إذا أراد الله بعبد خيرًا فقهه في الدين وألهمه رُشده».

:Ƥǽƴǁǩǂ ƫƸǁ

يدور كلام الغزالي في شرح هذا الحديث حول المحاور الآتية:

:ǯǩƥǿǂƥ ƞǲǩǂƥ ǰǼƸǝǩǂ Ǽǝ ǬǪǻǩǂ ǨǊǝ :ǧƥǻ ǂ ǯǋǁǯǩǂ

أما في القرآن: قوله تعالى: ﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ** ﴾ [آل عمران:١٨]، فانظر كيف بدأ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بنفسه وثنى بالملائكة وثلَّث بأهل العلم؛ وناهيك بهذا شرفًا وفضلًا وجلاء ونبلًا.

وقال الله تعالى: ﴿ **يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ** ﴾.
[المجادلة:١١]

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عـام.

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ [الزمر:٩].

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ **قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ** ﴾ [الرعد:٤٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ [النمل:٤٠]، تنبيهًا على أنه اقتدر بقوة العلم.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص:٨٠]، بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم.

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]، ردّ حكمه في الوقائع إلى استنباطهم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله.

وقيل في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾، يعني اليقين ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف:٢٦]، يعني الحياء.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف:٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف:٧].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:٣-٤]، وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان.

وأما في الأحاديث النبوية الشريفة: فمنها ما يأتي:

قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«العلماء ورثة الأنبياء»**(١)، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة.

---

(١) الآداب للبيهقي (٥٢٥)، والجرح والتعديل (١/ ١٢)، وسنن ابن ماجه (١/ ٨١)، والترمذي (٤/ ١٥٣).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يستغفر للعالم ما في السموات والأرض**»(١)، وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لموت قبيلة أيسر من موت عالم**»(٢).

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»(٣).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من حفظ على أمتي أربعين حديثًا من السّنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعًا وشهيدًا يوم القيامة**»(٤).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من حمل من أمتي أربعين حديثًا لقي الله** عَزَّوَجَلَّ **يوم القيامة فقيهًا عالمًا**»(٥).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: في تفضيل العلم على العبادة والشهادة: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي**»(٦)، فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوّة وكيف حط رتبة العمل المجرّد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة؟.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَضْلُ العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**»(٧).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٨٧) رقم (٢٣٩).

(٢) أخرجه ابن عساكر (٣٨/ ٣١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٣١)، رقم (٢٦٣٨). وأخرجه أيضًا: أحمد (٢/ ٥٣٩)، رقم (١٠٩٦٩).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧٠) رقم (١٧٢٥) قال الشيخ الألباني: «موضوع»، انظر حديث رقم: (٥٥٦٠) في ضعيف الجامع.

(٥) أخرجه ابن عدي (٥/ ٥٥)، ترجمة (١٢٢٩) عمر بن شاكر. قال الشيخ الألباني: «موضوع»، انظر حديث رقم: (٥٥٦٨) في ضعيف الجامع.

(٦) أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: حسن صحيح قاله العراق.

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٤٥) قال الألباني: صحيح.

أما الآثار فمنها:

قول علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لكميل: يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق، وقال علي أيضًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه، وقال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نظمًا:

ما الفخرُ إلا لأهلِ العِلْم إنَّهم ... على الهدى لمن استهدى أدلَّاءُ

وقَدْرُ كلِّ امرىءٍ ما كان يُحْسِنُه ... والجَاهِلُون لأهْل العلم أعَداءُ

ففُزْ بعلمٍ تَعِشْ حيًا به أبدًا ... النَّاس موتى وأهلُ العِلْمِ أحْياءُ

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك.

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: خُيِّر سليمان بن داود عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه.

وسئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قيل: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين.

ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم؛ فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه، فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنا منه، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق إلا للعلم.

وقال بعض العلماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فاته من أدرك العلم.

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **«من أوتي القرآن فرأى أن أحدًا أوتي خيرًا منه فقد حقر ما عظم الله تعالى»**(١).

وقال فتح الموصلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا: بلى قال: كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت. ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته، كما أن غذاء الجسد الطعام، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به؛ إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه؛ كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقفًا؛ فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحسَّ بهلاكه وتحسر تحسرًا عظيمًا ثم لا ينفعه وذلك كإحساس الآمن من خوفه والمفيق من سُكْره بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء.

وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رواته، فوالذي نفسي بيده ليودّنّ رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، فإن أحدًا لم يولد عالمًا وإنما العلم بالتعلم.

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها؛ وكذلك - روي هذا القول - عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠٠]، إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة، وفي الآخرة هي الجنة.

---

(١) لم أقف عليه في الكتب التسعة.

وقيل لبعض الحكماء: أي الأشياء تقتني؟ قال: الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك، يعني العلم. وقيل أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت. وقال بعضهم: من اتخذ الحكمة لجامًا اتخذه الناس إمامًا ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار.

وقال الشافعي رحمة الله عليه: من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فرح، ومن رفع عنه حزن.

وقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا أيها الناس عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداء يحبه، فمن طلب بابًا من العلم ردّاه الله عَزَّوَجَلَّ بردائه، فإن أذنب ذنبًا استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت.

وقال الأحنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كاد العلماء أن يكونوا أربابًا وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل مصيره.

وقال سالم بن أبي الجعد: اشتراني مولاي بثلثمائة درهم وأعتقني، فقلت بأي شيء أحترف؟ فاحترفت بالعلم فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائرًا فلم آذن له.

وقال الزبير بن أبي بكر: كتب إليّ أبي بالعراق: عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالًا، وإن استغنيت كان لك جمالًا.

وحكى ذلك في وصايا لقمان لابنه قال: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء. وقال بعض الحكماء: إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء ويُفقدُ وجهُهُ ولا يُنسَى ذكره.
وقال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:العلم ذكر ولا تحبه إلا ذكران الرجال.

:ηǾǪÆūǩƗ ƴǵƗǸ ǂ ǩƗ Ɨ ƽ Ʈƛ ǬǪūǩƗ ǨǊə :ÆǕǨƦǩƗ ƷǸƮƷǩƗ

اعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته، وما لم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال، فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيدًا حكيم أم لا، وهو بعد لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها. والفضيلة مأخوذة من الفضل وهي الزيادة؛ فإذا تشارك شيئان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء كما يقال: الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه في قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكرّ والفرّ وشدة العدو وحسن الصورة، فلو فرض حمار اختص بسلعة زائدة لم يقل إنه أفضل؛ لأنّ تلك زيادة في الجسم ونقصان في المعنى وليست من الكمال في شيء، والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لا لجسمه.

فإذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الحيوانات؛ بل شدّة العدو فضيلة في الفرس وليست فضيلة على الإطلاق، والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة؛ فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء، بل الكَيِّس من الخيل خير من البليد فهي فضيلة على الإطلاق من غير إضافة.

واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره وإلى ما يطلب لذاته، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعًا فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره، والمطلوب لغيره: الدراهم والدنانير فإنهما حجران لا منفعة لهما، ولولا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة. والذي يطلب لذاته: فالسعادة في الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى. والذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن، فإن سلامة الرِّجْل مثلًا مطلوبةٌ من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ومطلوبة للمشي بها

والتوصل إلى المآرب والحاجات، وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذًا في نفسه فيكون مطلوبًا لذاته، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال، كيف لا وقد تُعَرَفُ فضيلةُ الشيء أيضًا بشرف ثمرته! وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى، هذا في الآخرة وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتمييز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها: هذه فضيلة العلم مطلقًا ثم تختلف العلوم كما سيأتي بيانه وتتفاوت لا محالة فضائلها بتفاوتها.

: Ǥ ǩž Ǽə ǅǨƷǪūǩł ÙÊǬƱƚ ǰØŪ ǇƸə Ǹǵ ǻzǩł ŌǪūǩł ƷǨǾƛ Ǽə :ƤǩǨƦǩł ƷǸƮƷǩł

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة، ولا نطيل بنقل التفصيل، ولكن حاصله أن كل فريق نَزَّل الوجوبَ على العلم الذي هو بصدده.

فقال المتكلمون: هو علم الكلام، إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته. وقال الفقهاء: هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة.

وقال المفسرون والمحدّثون: هو علم الكتاب والسنة، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها.

وقال المتصوّفة: المراد به هذا العلم، فقال بعضهم: هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عَزَّوَجَلَّ؛ وقال بعضهم: هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان؛ وقال بعضهم: هو علم الباطن، وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه.

وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام، وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله**»[١]، إلى آخر الحديث، لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب. والذي ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سنذكره: وهو أن العلم كما قدّمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة. والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة: اعتقاد وفعل، وترك؛ فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السنّ ضحوة نهار مثلًا فأوّل واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة، بل يكفيه أن يصدّق به ويعتقده جزمًا من غير اختلاج ريب واضطراب نفس، وذلك قد يحصل بمجرّد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان؛ إذ اكتفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل[٢]، فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما، وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعًا لله عَزَّوَجَلَّ غير عاص له، وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض وليس ذلك ضروريا في حق كل شخص بل يتصوّر الانفكاك وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وإما في الاعتقاد.

---

(١) متفقٌ عَلَيهِ.

(٢) إحياء علوم الدين ومعه تخريج الحافظ العراقي (١/ ٣١).

أما الفعل: فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدّد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة، فإن كان صحيحًا وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم، فلا يبعد أن يقال: الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت. ويحتمل أن يقال: وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال، وهكذا في بقية الصلوات فإن عاش إلى رمضان تجدّد بسببه وجوب تعلم الصوم: وهو أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس؛ وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقاع، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين؛ فإن تجدّد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة، ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الإسلام؛ فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل، وكذلك في سائر الأصناف، فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور، ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكًا حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله، فإن فعل ذلك نفل فعلمه أيضًا نفل فلا يكون تعلمه فرض عين وفي تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه، وهكذا التدريج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين.

وأما التروك: فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال، وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، ولا على البدوي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن، فذلك أيضًا واجب بحسب ما يقتضيه الحال، فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه وما هو ملابس

له يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لابسًا للحرير، أو جالسًا في الغصب، أو ناظرًا إلى غير ذي محرم، فيجب تعريفه بذلك وما ليس ملابسًا له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه، حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه.

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب: فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك. فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلًّا للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات، فقد مات على الإسلام إجماعًا.

وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين، وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولمة الملك حق أيضًا ولكن في حق من يتصدى له، فإذا كان الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المهلكات ما يرى نفسه محتاجًا إليه، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**»(١)، ولا ينفك عنها بشر.

:ηǽǨĀ g LJƐə Ǹǵ ǻ ƶǩŁ ǬǪūǩŁ ʓǨǾƛ ŭƛŁƐǩŁ ʒǸƮǮǩŁ

اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية؛ وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٢٨)، رقم (٥٤٥٢)، قال الهيثمي (١/ ٩١).

مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة: فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة.

أما فرض الكفاية: فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان. وكالحساب؛ فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما. وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد. وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين. فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة. فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك. فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه. فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله.

وأما ما يعد فضيلة لا فريضة: فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه. ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه. وأما المذموم فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات.

وأما المباح: منه فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها. وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه.

أما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان: فهي محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة فتنقسم إلى المحمودة والمذمومة.

أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهي أربعة أضرب:

الضرب الأول: الأصول: وهي أربعة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإجماع الأمة وآثار الصحابة والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل في

الدرجة الثالثة وكذا الأثر فإنه أيضًا يدل على السنة لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد شاهدوا الوحي والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه وربما لا تحيط العبارات بما أدرك بالقرائن. فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولا يليق بيانه في هذا المقام. [المرجع في هذا علم أصول الفقه].

الضرب الثاني: الفروع: وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبَّهَتْ لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لا يقضي القاضي وهو غضبان**»(١)، أنه لايقضي إذا كان خائفًا أو جائعًا أو متألمًا بمرض. وهذا على ضربين أحدهما: يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا.

والثاني: ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة وما هو مرضي عند الله تعالى، وما هو مكروه وهو الذي يحويه الشطر الأخير من كتاب إحياء علوم الدين، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها، وهو الذي يحويه الشطر الأول منه.

والضرب الثالث: المقدمات: وهي التي تجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة ومن الآلات علم كتابة الخط إلا أن ذلك ليس ضروريًّا إذ كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديث كان رسول الله

(١) أخرجه البخاري في (٩٣) كتاب الأحكام (١٣)، باب: هل يقضي الحاكم أو يفتي وهو غضبان

صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أميًّا[1]. أي لا يحسن الكتابة ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنى عن الكتابة، ولكنه صار بحكم العجز في الغالب ضروريًّا.

الضرب الرابع: المتممات: وذلك في علم القرآن؛ فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير؛ فإن اعتماده أيضًا على النقل، إذ اللغة بمجردها لا تستقل به وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر. وكيفية استعمال البعض منه مع البعض، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضًا.

وأما المتممات في الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم والعلم بالعدالة في الرواة والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوي، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند وكذلك ما يتعلق به؛ فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات.

:ǫǸǫūǩł Ĭ ƘĀǩł ǰ ǭ ƩǢǦ ƘǬ ǯƘǾƛ : 5 ǭƘƯǩł ǯǸƮǯǩł

والمراد بذلك هو تبديل وتحريف تلك العلوم إلى غير ما أراده السلف رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ من معانيها وهي: خمسة ألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة؛ فهذه أسام محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم.

اللفظ الأول: الفقه: فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل؛ إذا خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها؛ فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالًا بها يقال هو الأفقه، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقًا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات

---

(١) إحياء علوم الدين ومعه تخريج الحافظ العراقي (١/ ٣٥).

النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب؛ ويدلك عليه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٢٢]، وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة؛ فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له.

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]، وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى؛ ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى، واحد وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديمًا وحديثًا.

وقال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:١٣] الآية؛ فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه؛ فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى، أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم. وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**علماء فقهاء**»(١) للذين وفدوا عليه.

وسأل سعد بن إبراهيم الإمام الزهري رَحِمَهُٱللَّهُ: أيُّ أهل المدينة أفقه؟ فقال: أتقاهم لله تعالى؛ فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه. والتقوى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأقضية.

علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا بلى، قال: من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكر الله ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه»(٢) ولما روى أنس بن مالك قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لأن أقعد مع قوم يذكرون الله**

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه الديلمي (١/ ١٣٥)، رقم (٤٧٤).

تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب»[(١)]، قال: فالتفت إلى زيد الرقاشي وزياد النميري وقال: لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردًا إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين ونعد نعم الله علينا تفقهًا فسمى تدبر القرآن وعد النعم تفقهًا. وروى أيضا موقوفا على أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع قوله: «ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتًا».

وقد سأل فرقد السبخي الحسن عن الشيء فأجابه فقال: إن الفقهاء يخالفونك؛ فقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: ثكلتك أمك يا فرقد، وهل رأيت فقيها بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم؛ ولم يقل في جميع في ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولًا للفتاوى في الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع؛ فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر.

فبان من هذا التخصيص تلبيس حث الناس على التجرّد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب، ووجدوا على ذلك معينًا من الطبع، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر، فوجد الشيطان مجالًا لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع.

اللفظ الثاني: العلم: وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، حتى أنه لما مات عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ابن مسعود رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد مات تسعة

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٥)، رقم (٢٢٢٤٨)، والطبراني (٨/ ٢٦٥)، رقم (٨٠٢٨). قال الهيثمي (١٠/ ١٠٤): أسانيده حسنة.

أعشار العلم» فعرّفه بالألف واللام ثم فسره العلم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد تصرفوا فيه أيضًا بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها؛ فيقال: هو العالم على الحقيقة وهو الفحل في العلم، ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعدّ من جملة الضعفاء ولا يعدونه في زمرة أهل العلم. وهذا أيضًا تصرف بالتخصيص، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته. وقد صار الآن مطلقًا على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية، فيعدّ بذلك من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره، وصار ذلك سببًا مهلكًا لخلق كثير من أهل الطلب للعلم.

اللفظ الثالث: التوحيد: وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشدّق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات، حتى لَقَّبَ طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد، مع أنّ جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأوّل بل كان يشتدّ منهم النكير على من كان يفتح بابًا من الجدل والمماراة؛ فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أوّل السماع فلقد كان ذلك معلوما للكل، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به: وهو أن يرى الأمور كلها من الله عَزَّوَجَلَّ رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جَلَّجَلَالُهُ؛ فهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل.

ومن ثمراته أيضًا ترك شكاية الخلق، وترك الغضب عليهم، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى؛ وكانت إحدى ثمراته قول أبي بكر الصدّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما قيل له في مرضه

أنطلب لك طبيبًا؟ فقال: «الطبيب أمرضني» وقول آخر لما مرض فقيل له: ماذا قال لك الطبيب في مرضك؟ فقال: «قال لي إني فعال لما أريد».

والتوحيد جوهر نفيس وله قشران:

أحدهما: أبعد عن اللب من الآخر، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر وأهملوا اللب بالكلية.

فالقشر الأول: هو أن تقول بلسانك لا إله إلا الله، وهذا يسمى توحيدًا مناقضًا للتثليث الذي صرح به النصارى، ولكنه قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره.

والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة.

والثالث: وهو اللباب - أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط، وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده. قال الله تعالى: ﴿**أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ**﴾، وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى، ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات إليهم، فإنّ من يرى الكل من الله عَزَّوَجَلَّ كيف يتسخط على غيره، فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصدّيقين، فانظر إلى ماذا حول وبأي قشر قنع منه، وكيف اتخذوا هذا معتصما في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي، وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول: ﴿**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا**﴾، وهو أوّل كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن وجه

قلبه متوجهًا إلى الله تعالى على الخصوص: فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة وما صرفه إلا عن سائر الجهات، والكعبة ليست جهة للذي فطر السموات والأرض. حتى يكون المتوجه إليها متوجهًا إليه تعالى عن أن تحدّه الجهات والأقطار. وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق في قوله وقلبه متردّد في أوطاره وحاجاته الدنيوية ومتصرف في طلب الحيل في جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب، ومتوجه بالكلية إليها، فمتى وجه وجهه للذي فطر السموات والأرض وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد، فالموحد هو الذي لا يرى إلا الواحد ولا يوجه وجهه إلا إليه، وهو امتثال قوله تعالى: ﴿**قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ**﴾، وليس المراد به القول باللسان فإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى. وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب، وهو معدن التوحيد ومنبعه.

اللفظ الرابع: الذكر والتذكير: فقد قال الله تعالى: ﴿**وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ**﴾ [الذاريات:٥٥]، وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة كقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**». قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «**مجالس الذكر**»(١)، وفي الحديث: «**إن لله تعالى ملائكة سياحين في الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضًا ألا هلموا إلى بغيتكم فيأتونهم ويحفون بهم ويستمعون. ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم**».

❁❁❁

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٠) رقم (١٢٥٤٥)، والترمذي (٥/ ٥٣٢) رقم (٣٥١٠) وقال: حسن غريب و قال الشيخ الألباني: حسن.

الحديث السابع والعشرون

ƐǜǩƗ ǺǨƑ ǻ ƴǶǣ ǡ ƴǆǩƗ ǯƑ

عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنّ الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**» متفق عليه.

ǁƐ ţǩǅƴǣƤ[1]:

في شرح هذا الحديث محاور ثلاث:

ǩƷǅƸƷ ƐǃƗ ǧƤ ƗǞ: ǝƿǋǨ ƗǨǆƴ ǡ ǩǨƗƐǄǳ ƤǷǿƸǨƷ:

قال الله تعالى: ﴿**مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ**﴾ [الأحزاب:٢٣]، ويكفي في فضيلة الصدق أن الصدّيق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال: ﴿**وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا**﴾ [مريم:٤١]، وقال: ﴿**وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا**﴾ [مريم:٥٤]، وقال تعالى: ﴿**وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا**﴾ [مريم:٥٦].

وقال ابن عباس: «أربع منّ كن فيه فقد ربح؛ الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر».

وقال بشر ابن الحارث: «من عامل الله بالصدق استوحش من الناس».

وقال أبو عبد الله الرملي: «رأيت منصور الدينوري في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل، فقلت له: أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال: «الصدق، وأقبح ما توجه به الكذب».

وقال أبو سليمان: «اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك».

---

(١) شرح الحديث من إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠٨) وما بعدها.

وقال رجل لحكيم: «ما رأيت صادقًا؟ فقال له: لو كنت صادقًا لعرفت الصادقين»، وعن محمد بن علي الكناني قال: «وجدنا دين الله تعالى مبنيًّا على ثلاثة أركان؛ على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول».

وقال الثوري في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر:٦٠]، قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين.

وأوحى الله تعالى إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا داود مـن صَدَقَني في سريرته صَدَقْتهُ عند المخلوقين في علانيته.

وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة فقال الشبلي: إن كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإن كان كاذبًا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون.

وقال بعضهم: أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة - ولا يتم بعضها إلا ببعض - الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم.

وقال وهب بن منبه: وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفًا كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها: لا كنز أنفع من العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العمل، ولا رفيق أشين من الجهل، ولا شرف أعز من التقوى، ولا كرم أوفى من ترك الهوى، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلى من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر، ولا دواء ألين من الرفق، ولا داء أوجع من الخرق، ولا رسول أعدل من الحق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر أذل من الطمع، ولا غنى أشقى من الجمع، ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العفة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت.

وقال محمد بن سعيد المروزي: إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة.

وقال أبو بكر الورّاق: احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق.

وقيل لذي النون: هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فقال:

قد بقينا من الذنوب حيارى ... نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعاوى الهوى تخف علينا ... وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل: ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه، فقال: الصدق والسخاء والشجاعة. فقيل: زدنا، فقال: التقى والحياء وطيب الغذاء.

وعن الجنيد في قوله تعالى: ﴿**لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ**﴾ [الأحزاب:٨]، قال: يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم، وهذا أمر على خطر.

:ǴШơƗƸǭƿ ǆǨǅǖǭƿ ǡ ƴǆžǩɫ ƞǼǾǼ ƒ ǯǨǾƛ :ǼǅǨƦǩɫ ƷǸƮǮǩɫ

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق. ثم هم أيضًا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

الصدق الأول: صدق اللسان: وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر

أنواع الصدق وأظهرها. فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان:

أحدهما: الاحتراز عن المعاريض؛ فقد قيل: في المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أنّ ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك، فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه، لأنّ الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلًا، «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره»(١)، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيستعد وليس هذا من الكذب في شيء.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرًا أو أنمى خيرًا**»(٢)، ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان، ومن كان في مصالح الحرب.

والصدق ههنا يتحوّل إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير، فمهما وَضَحَ قصده وصدقت نيته وتجرّدت للخير إرادته صار صادقًا وصديقًا كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أولى. وطريقه ما حكي عن بعضهم، أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته: خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو

(١) متفق عليه من حديث كعب بن مالك.

(٢) متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

ههنا، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه، فكان قوله صدق وأفهم الظالم أنه ليس في الدار. فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضًا إلا عند الضرورة.

والكمال الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام:٧٩]، فإنّ قلبه إن كان منصرفًا عن الله تعالى مشغولًا بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب. وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]، وقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقًا، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله لعجز تحقيقه فإنه إن كان عبدًا لنفسه أو عبدًا لدنيا أو عبدًا لشهواته لم يكن صادقًا في قوله. وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا عبيد الدنيا! وقال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة**»(١)، فسمي كل من تقيد قلبه بشيء عبدًا له.

وإنما العبد الحق –لله عَزَّ وَجَلَّ– مَنْ أُعتِقَ أوّلًا من غير الله تعالى فصار حرًّا مطلقًا فإذا تقدّمت هذه الحرّية صار القلب فارغًا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرّية وهو أن يعتق أيضًا عن إرادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى.

وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرًّا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرًّا وصار مفقودًا لنفسه موجودًا لسيده ومولاه إنّ حرَّكهُ تحرك وإنْ سكَّنه سَكَنَ وإن ابتلاه رضي، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى. فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصدّيقين. وأما الحرّية عن غير الله فدرجات الصادقين وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقًا ولا صديقًا فهذا هو معنى الصدق في القول.

الصدق الثاني: في النية والإرادة: ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبًا كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت؟ فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم [1] فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته.

وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في القصد؛ وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]، وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرّق إلى الخبر.

وهذا القول يتضمن إخبارًا بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به، فيرجع أحد معانى الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص، فكل صادق فلابدّ وأن يكون مخلصًا.

الصدق الثالث: صدق العزم: فإن الإنسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالا تصدّقت بجميعه، أو بشطره، أو إن لقيت عدّوًا في سبيل الله

---

(١) أخرجه البخاري أيضًا.

تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت؛ وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق؛ فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوّة كما يقال لفلان شهوة صادقة. ويقال هذا المريض شهوته كاذبة، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى.

والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوّة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد؛ بل تسخو نفسه أبدًا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم، والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأكد ذلك بما ذكره من القتل.

ومراتب الصدّيقين في العزائم تختلف؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى ورأيه لم يُقدِم، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه، بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبي بكر الصدّيق.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم: فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم؛ والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿**رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡـهِ**﴾ [الأحزاب:٢٣]، فقد روى(١) عن أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرًا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشق

(١) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح وهو عند البخاري مختصرًا.

ذلك على قلبه وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليرينَّ اللهُ ما أَصنع؟ قال فشهد أُحدًا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واهًا لريح الجنة! إني أجد ريحها دون أُحُد. فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا ببنانه – أي أصبعه – فنزلت هذه الآية ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾.

ووقف[1] رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مصعب بن عمير– وقد سقط على وجهه يوم أُحُد شهيدًا وكان صاحب لواء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾.

وقال فضالة بن عبيد: سمعت عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول، سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو، فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا**»، ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته – قال الراوي: فلا أدرى قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، «**ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدوّ فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عاثر فقتله فهو في الدرجة الثانية، ورجل مؤمن خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا لقي العدوّ فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة، ورجل أسرف على نفسه لقي العدوّ فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة**»[2].

وقال مجاهد: رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا: إن رزقنا الله تعالى مالًا لنتصدّقن فبخلوا به فنزلت: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلًا.

(٢) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان الحديث أخرجه الترمذى وقال: حسن.

﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقال بعضهم: إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧]، فجعل العزم عهدًا وجعل الخلف فيه كذبًا والوفاء به صدقًا.

وهذا الصدق أشدّ من الصدق الثالث، فإنّ الناس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدّته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب. ولذلك استثنى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: «لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر؛ اللهم إلا أن تسوّل لي نفسي عند القتل شيئًا لا أجده الآن لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها»، أشار بذلك إلى شدّة الوفاء بالعزم.

وقال أبو سعيد الخرّاز: رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي ما الصدق؟

قلت: الوفاء بالعهد، فقالا لي: صدقت، وعرجا إلى السماء.

الصدق الخامس: في الأعمال: وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجرّ الباطن إلى تصديق الظاهر، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائمًا بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابًا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفًا بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتًا إلى الخلق ولا

مرائيًا إياهم ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهرة أو خيرًا من ظاهره.

ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبًا في دلالة الظاهر على الباطن.

إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص؛ وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق. ولذلك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته**»(١).

وقال يزيد بن الحارث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور. وأنشدوا:

إذا السرّ والإعلان في المؤمن استوى — فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سرًا فما له — على سعيه فضلٌ سوى الكدّ والعنا
فما خالص الدينار في السوق نافقٌ — ومغشوشه المردود لا يقتضي المنا

وقال عطية بن عبد الغافر: إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدي حقًا.

وقال معاوية بن قرة: من يدلني على بكّاء بالليل بسّام بالنهار وقال عبد الواحد بن زيد: كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له. ولم أر أحدًا قط أشبه سريرة بعلانية منه. وكان أبو عبد الرحمن الزاهد: يقول إلهى عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ويبكي وقال أبو يعقوب النهرجوري: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية.

---

(١) حديث: «من أحسن فيما بينه وبين الله...» الخ، حسنه السيوطي في الجامع الصغير من حديث عبدالله بن عمرو رقم (٨٣٣٩).

فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها؛ الصدق في مقامات الدين: كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور. فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقًا فيه كما يقال: فلان صدق القتال. ويقال هذا هو الخوف الصادق، وهذه هي الشهوة الصادقة. وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟**﴾، إلى قوله: ﴿**أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ**﴾ [الحجرات:١٥]، وقال تعالى: ﴿**وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ**﴾، إلى قوله: ﴿**أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟**﴾ [البقرة:١٧٧].

ولنضرب للخوف مثلًا: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفًا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف. سلطانًا أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره، حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفًا من درك المحذور ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه.

فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدًّا ولا غاية فيه.

ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقًا في الجميع فهو الصدّيق حقًّا.

ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعًا وكراهة إطلاع الخلق عليها.

الحديث الثامن والعشرون والتاسع والعشرون

ӨĶШŖǩ - ÆǁYƴƽϷ ÆǁƴğłǬĦǬǩł

عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قل اللهم: اهدني وسددني، واذكر بالهدى: هدايتك الطريق، والسداد سداد السهم**»، رواه مسلم وأبو داود.

وعن شداد ابن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد...**» الخ، رواه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ورواه ابن حبان في صحيحه.

ǁƐŢ PæƴŢǩł[1]:

فإن قلت: فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد؟

فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد: وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره، وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ١١٣) وما بعدها.

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها، لأنّ داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرد الإرادة؟ فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية، ولذلك قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٢١]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى**» أي بهدايته، فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا**»(١).

للهداية ثلاث منازل:

الهداية الأولى: معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، فأسباب الهدى هي الكتاب والرسل وبصائر العقول، وهى مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا، والأسباب التي تُعمي القلوب وإن كانت لا تعمي الأبصار، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، ومن جملة المعميات: الإلف والعادة وحب استصحابها، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢] الآية. وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، وقوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر:٢٤]، فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء.

---

(١) متفق عليه.

والهداية الثانية: وراء هذه الهداية العامة، وهي التي يمدّ الله تعالى بها العبد حالًا بعد حال، وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت:٦٩]، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى** ﴾ [محمد:١٧].

والهداية الثالثة: وراء الثانية؛ وهو النور الذى يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة، فيهتدى بها إلا ما لا يهتدى إليه بالعقل الذى يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات؛ وهو الذى شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى: ﴿ **قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ** ﴾ [الأنعام:٧١]، وهو المسمى حياة في قوله تعالى: ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ** ﴾ [الأنعام:١٢٢]، والمعني بقوله تعالى: ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ** ﴾ [الزمر:٢٢].

وأما الرشد فنعنى به العناية الإلهية: التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقوبه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ** ﴾ [الأنبياء:٥١].

فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها، فالصبى إذا بلغ خبيرًا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيدًا لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرّد الهداية إلى وجوه الأعمال وهى نعمة عظيمة.

وأما التسديد: فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتدّ في صوب الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجرّدها لا تكفي، بل لا بد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي بل لا بدّ من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرّك، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد، وأما التأييد فكأنه جامع للكل، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

❁❁❁

الحديث الثلاثون والحادي والثلاثون

[illegible]

عن سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من الدنيا وما فيها**»، متفق عليه.

وعن أبي مسعود البدري أنَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله**»، رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

[illegible]

الكلام على هذا الحديث يدور حول محورين:

[illegible]

أما الآيات: فقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [التوبة:١٢٢]، والمراد هو التعليم والإرشاد.

وقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ**﴾ [آل عمران:١٨٧]، وهو إيجاب للتعليم.

وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾، وهو تحريم للكتمان، كما قال تعالى في الشهادة: ﴿**وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ**﴾ [البقرة:٢٨٣].

وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا**﴾ [فصلت:٣٣].

وقال تعالى: ﴿**ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ**﴾ [النحل:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ**﴾ [البقرة:١٢٩].

وأما الأحاديث: فمنها:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما آتى الله عالمًا علمًا إلا وأخذ عليه الميثاق ألَّا يكتمه**»[١].

وهذا إنما يكون بالعلم المتعديّ بالتعليم لا العلم اللازم الذي لا يتعدىّ.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ لا ينتزع العلم انتزاعًا من الناس بعد أن يؤتيهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالًا إن سئلوا أفتوا بغير علم فَيضلِّون ويُضلِّون**»[٢].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من علم علمًا فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**»[٣].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله سبحانه وما والاه أو معلمًا أو متعلمًا**»[٤]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها حتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس**»[٥].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مثل ما بعثني الله عَزَّ وَجَلَّ به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عَزَّ وَجَلَّ بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ**»[٦]. اهـ.

فالأول ذكره مثلًا للمنتفع بعلمه، والثاني ذكره مثلًا للنافع والثالث للمحروم منهما.

---

(١) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير وصححه من حديث أبي هريرة رقم (٧٧٦٧).
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن والحاكم وصححه.
(٤) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.
(٥) أخرجه الترمذي وقال: غريب، وفي نسخة حسن صحيح.
(٦) متفق عليه.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به**»[١] الحديث.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله** عَزَّ وَجَلَّ **حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الخير**»[٢].

وأما الآثار:

فقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من حدث حديثًا فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر.

وقال بعض العلماء: العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل.

وروى أن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ قدم عسقلان فمكث لا يسأله إنسان، فقال: « اكروا لي لأخرج من هذا البلد، هذا بلد يموت فيه العلم»، وإنما قال ذلك حرصًا على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به.

وقال عطاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال ليس أحد يسألني عن شيء.

وقال بعضهم: العلماء سرج الأزمنة كل واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره.

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم»؛ أي أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) متفق عليه.

وقال عكرمة: إن لهذا العلم ثمنًا. قيل وما هو؟ قال: أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه.

وقال يحيى بن معاذ: «العلماء أرحم بأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من آبائهم وأمهاتهم»، وقيل: وكيف ذلك؟ قال: «لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة». وقيل: أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره. وقيل: علمِّ علمك من يجهل وتعلمَّ ممن يعلم ما تجهل؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت.

وقال معاذ بن جبل - في التعليم والتعلم - موقوفًا عليه: « تعلموا العلم فإنّ تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمصبرِّ على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم، أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يستغفر، حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها »[1]، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عَزَّوَجَلَّ وبه يعبد، وبه يوحد وبه يمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء. نسأل الله تعالى حسن التوفيق.

---

(١) أخرجه أبو نعيم وابن عبد البر، وذكره ابن القيم في مدارج السالكين وقال: روي مرفوعًا والأصح أنه موقوف.

ƷǸȚƷǩł :ǼDzKȐǩł ѲKɯþϝ ɳǾǮǵ϶ ǬǾϙǖơ ǬϙǖǩŁ Ǽə ƒ ǸKǾ ĶDzǩł 2 :

وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلبًا للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل، وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة وهي الآلة الموصلة إلى الله عَزَّوَجَلَّ لمن اتخذها آلة ومنزلًا لمن يتخذها مستقرًّا ووطنًا؛ وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام:

أحدها: أصول لا قوام للعالم دونها: وهي أربعة: الزراعة، وهي للمطعم. والحياكة، وهي للملبس والبناء وهو للمسكن. والسياسة وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها.

الثاني: ما هي مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها: كالحدادة فإنها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات بإعداد آلاتها كالحلاجة والغزل فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها.

الثالث: ما هي متممة للأصول ومزينة: كالطحن والخبز للزراعة؛ وكالقصارة والخياطة للحياكة؛ وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جملته فإنها ثلاثة أضرب أيضًا: إما أصول كالقلب والكبد والدماغ؛ وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين، وأشرف هذه الصناعات أصولها، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعى هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات، ولذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع والسياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا والآخرة على أربع مراتب:

الأولى: وهي العليا: سياسة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وحكمهم على الخاصة والعامة جميعًا في ظاهرهم وباطنهم.

والثانية: الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعًا ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم.

والثالثة: العلماء بالله عَزَّوَجَلَّ وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء وحكمهم على باطن الخاصة فقط، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولا تنتهي قوتهم إلى التصرف في ظواهرهم بالإلزام والمنع والشرع.

والرابعة: الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط؛ فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم.

وإنما قلنا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات لأن شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور:

إما بالالتفات إلى الغريزة التي بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العقول العقلية على اللغوية: إذ تدرك الحكمة بالعقل، واللغة بالسمع والعقل أشرف من السمع؛ وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة.

وإما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة: إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة؛ وليس يخفى أن العلوم الدينية وهي فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء، والعقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتي بيانه؛ إذ به تقبل أمانة الله، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه. وأما عموم النفع فلا يستراب فيه فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة.

وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم، وأشرف موجود على الأرض جنس الإنس وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه، والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عَزَّوَجَلَّ، فتعليم العلم من وجه: عبادة لله تعالى ومن وجه خلافة لله تعالى، وهو من أجل خلافة الله؛ فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذي هو أخص صفاته. فهو كالخازن لأنفس خزائنه؛ ثم هو مأذون له في الإنفاق منه على كل محتاج إليه؛ فأي رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه في تقريبهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى؛ جعلنا الله منهم بكرمه؛ وصلى الله على كل عبد مصطفى.

❋ ❋ ❋

الحديث الثاني والثلاثون والثالث والثلاثون

ā ʒɫƥ ǫƐāɫ ǯǆƐǼǩɫ ɫ ƒǨdžǩ ğǨǼǽ

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**».

رواه الترمذي: وقال حسن صحيح ورواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اتلوا القرآن وأبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا**»، رواه ابن ماجه بإسناد جيد.

:(١) ƤǽyƮǩɫ ţƐ‖

ذكر الغزالي آدابًا ظاهرة وهي شرح للحديث الأول «كما كنت ترتل في الدنيا»، وأخرى باطنة للتلاوة وهي شرح للحديث الثاني: «فإن لم تبكوا فتباكوا».

:ηǾǕǨǯƥ Ǽģƥ :ǸƐģǨ ŏǩɫ ǸƥÊǪǩɫ ǩɫYǫ : ëǷǫ

الأدب الأول: في حال القارئ وهو أن يكون على وضوء واقعًا على هيئة الأدب والسكون إما قائمًا وإما جالسًا مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا متكئ ولا جالس على هيئة المتكبر، وأفضل أحوال القارئ أن يقرأ في الصلاة في المسجد وما كان في قيام الليل فهو أفضل.

---

(١) الإحياء (١/ ٣٢٥) وما بعدها.

الأدب الثاني: تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**زينوا القرآن بأصواتكم**»(١). وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أذن الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن**»(٢).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**»(٣)، قيل: المراد به الاستغناء وقيل: أراد به الترنم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة.

الثالث: في وجه القسمة: أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب فقد حزَّب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ القرآن أحزابًا(٤)، وروي أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طسم، موسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس. وابن مسعود كان يقسمه أقسامًا لا على هذا الترتيب، وقيل: أحزاب القرآن سبعة. فالحزب الأول ثلاث سور، والحزب الثاني خمس سور والحزب الثالث سبع سور، والرابع تسع سور، والخامس إحدى عشر سورة، والسادس ثلاث عشرة سورة، والسابع المفصل من ق إلى آخره. فهكذا حزبه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكانوا يقرأونه كذلك. وفيه خبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهذا قبل أن تعمل الأخماس والأعشار والأجزاء فما سوى هذا محدث.

الرابع: الترتيل: هو المستحب في هيئة القرآن لأنا سنبين أنّ المقصود من القراءة التفكر والترتيل معين عليه. ولذلك نعتت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قراءة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفًا حرفًا(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث البراء.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري وأبو داود وغيرهما.

(٤) رواه الطبراني مرفوعًا وإسناده حسن.

(٥) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح وأخرجه النسائي أيضًا.

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إليَّ من أن أقرأ القرآن هذرمة. وقال أيضًا: لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحبّ إليَّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرًا.

وسئل مجاهد عن رجلين دخلا في الصلاة فكان قيامهما واحدًا إلا أنّ أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله، فقال هما في الأجر سواء.

واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرّد التدبر فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضًا الترتيل والتؤدة، لأنّ ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشدّ تأثيرًا في القلب من الهذرمة والاستعجال.

الخامس: البكاء: البكاء مستحب مع القراءة قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا**»[١].

وقال صالح المريّ: قرأت القرآن على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام فقال لي: «**يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟**».

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إذا قرأتم سجدة سبحان؛ فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه «وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود. ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي. فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإنّ ذلك أعظم المصائب.

السادس: أن يراعي حق الآيات: فإذا مر بآية سجدة سجد، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالي، ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة. وفي القرآن أربع

(١) أخرجه ابن ماجه بإسناد جيد.

عشرة سجدة. وفي الحج سجدتان. وليس في ص سجدة[١]، وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو في سجوده بما يليق بالآية التي قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة:١٥]، فيقول: «اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك»، وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٩]، فيقول: «اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك». وكذلك كل سجدة، ويشترط في هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث. ومن لم يكن على طهارة عند السماع فإذا تطهر يسجد، وقد قيل في كمالها أنه يكبر رافعًا يديه لتحريمه ثم يكبر للهوى للسجود ثم يكبر للارتفاع ثم يسلم. وزاد زائدون التشهد ولا أصل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو بعيد فإنه ورد الأمر في السجود فليتبع فيه الأمر وتكبيرة الهوى أقرب للبداية وما عدا ذلك ففيه بعد. ثم المأموم ينبغي أن يسجد عند سجود الإمام ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأمومًا.

السابع: أن يقول في مبتدأ قراءته: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨]، وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد لله وليقل عند فراغه من القراءة: صدق الله تعالى وبلغ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين وأستغفر الله الحي القيوم. وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر، وإن مر بمرجوّ سأل وإن مرَّ بمخوف استعاذ.

(١) ومعلوم اختلاف المذاهب سجدات التلاوة ومواضعها.

قال حذيفة: صليت مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فابتدأ سورة البقرة فكان لا يمرّ بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح[١].

الثامن: في الجهر بالقراءة: ولا شك في أنه لا بدّ أن يجهر به إلى حدّ يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف، ولا بدّ من صوت فأقله ما يسمع نفسه فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته. فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر. ويدل على استحباب الإسرار ما روي أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية**»، وفي لفظ آخر: «**الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالمسر بالصدقة**»[٢].

وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه: اذهب إلى هذا المصلي فمره أن يخفض صوته، فقال الغلام: إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب، فرفع سعيد صوته وقال: «يا أيها المصلي إن كنت تريد الله عَزَّوَجَلَّ بصلاتك فاخفض صوتك وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا»، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته فلما سلَّم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة. ويدل على استحباب الجهر ما روي أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع جماعة من أصحابه يجهرون في صلاة الليل فصوّب ذلك[٣].

---

(١) أخرجه مسلم مع اختلاف في الفظ.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه من حديث عقبة بن عامر وحَّسنه ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح.

(٣) وردت أحاديث في هذا المعنى في الصحيحين منها حديث أبي موسى قال له رسول الله: «لو رايتني البارحة وأنا أسمع قراتك» وحديث: «رحم الله فلانًا».

:Égp :ηǅĂǨǗǩ ǩŁY øŁ :ǨǾǅǨþ:

[فهم أصل الكلام. ثم التعظيم. ثم حضور القلب. ثم التدبر. ثـم التفهم. ثم التخلي عن موانع الفهم. ثم التخصيص. ثم التأثر. ثم الترقي ثم التبري].

فالأول: فهم عظمة الكلام وعلوّه وفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه. فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عَزَّوَجَلَّ إلا بوسيلة صفات نفسه. ولولا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى ولتلاشي ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره. ولولا تثبيت الله عَزَّوَجَلَّ لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما أطاق لسماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادي تجليه حيث صار دكًّا. ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حدّ فهم الخلق.

والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم في الحق والباطل. وهو القاضي العدل والشاهد المرتضى يأمر وينهي. ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الظل أن يقول قدام شعاع الشمس ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون من ضوء عين الشمس ما تحيا به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط. فالكلام كالملك المحجوب الغائب وجهه النافذ أمره وكالشمس الغزيرة الظاهرة مكنون عنصرها وكالنجوم الزهرة التي قد يهتدي بها من لا يقف على سيرها فهو مفتاح الخزائن النفيسة وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت، ودواء الأسقام الذي من سقى منه لم يسقم. فهذا الذي ذكره الحكيم نبذة من تفهيم معنى الكلام والزيادة عليه لا تليق بعلم المعاملة فينبغي أن يقتصر عليه.

الثاني: التعظيم للمتكلم: فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وإن في تلاوة كلام الله عَزَّوَجَلَّ غاية الخطر فإنه تعالى قال: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة:٧٩]، وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرًا، فباطن معناه أيضًا بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرًا عن كل رجس ومستنيرًا بنور التعظيم والتوقير. وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب. ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه ويقول: هو كلام ربي هو كلام ربي؟ فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله.

فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمة والتعالي. فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام.

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس: قيل في تفسير ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢]، أي بجد واجتهاد وأَخْذُه بالجدِّ أن يكون متجردًا له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره، وقيل لبعضهم إذا قرأت القرآن تحدّث نفسك بشيء؟ فقال أو شيء أحبّ إليَّ من القرآن حتى أحدث به نفسي! وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه. ففي القرآن ما يستأنس به

القلب إن كان التالي أهلا له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزه ومتفرج والذي يتفرّج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها؟ فقد قيل: إنَّ في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس ودبابيج ورياضًا وخانات؛ فإذا دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه في الرياض وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره.

الرابع: التدبر: وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره. والمقصود من القراءة التدبر. ولذلك سنّ لأن الترتيل فيه الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن. قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها. وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردِّدْ إلا أن يكون خلف إمام. فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئا مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه. وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس. فقد روى عن عامر بن عبد قيس أنه قال: «الوسواس يعتريني في الصلاة فقيل: في أمر الدنيا؟ فقال: لأن تختلف فيَّ الأسنَّة أحبَّ إليَّ من ذلك، ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدي ربي عَزَّوَجَلَّ؛ وأنى كيف انصرف»، فعدّ ذلك وسواسًا وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بمهم ديني ولكن يمنعه به عن الأفضل. ولما ذكر ذلك للحسن قال: إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا.

وعن أبي ذر قال: قام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بنا ليلة فقام بآية يرددها(١) وهي: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨]. وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الجاثية:٢١] الآية.

---

(١) حديث أبي ذر قام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فينا ليلة بآية يرددها وهي: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾، أخرجه النسائي وابن ماجه بسند صحيح.

وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هــذه الآية: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [يس:٥٩]، وقال بعضهم: إني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر. وكان بعضهم يقول: آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعدّ لها ثوابًا، وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها. وعن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكرّرها ولا يفرغ من التدبر فيها. وقال بعض العارفين لي في كل جمعة ختمة وفي كل شهر ختمة وفي كل سنة ختمة ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد. وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه وكان هذا أيضًا يقول: أقمت نفسي مقام الأجراء فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة.

الخامس: التفهم: وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل علـى ذكر صفات الله عَزَّوَجَلَّ، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

أما صفات الله عَزَّوَجَلَّ؛ فكقوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، وكقوله تعالى: ﴿ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ ﴾ [الحشر:٢٣]، فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين، وإليه أشار علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «ما أسر إليَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا كتمه عن الناس إلا أن يؤتي الله عَزَّوَجَلَّ عبدًا فهمًا في كتابه فليكن حريصًا على طلب ذلك الفهم»[١].

(١) حديث علي: «ما أسر إليَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا كتمه عن الناس إلا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في كتابه» أخرجه النسائي من رواية أبي جحيفة قال: سألنا عليًّا فقلنا: هل عندكم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء سوى القرآن؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبدًا فهما في كتابه.. الحديث وهو عند البخاري بلفظ: «هل عندكم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ليس في القرآن»، وفي رواية: «وقال مرة ما ليس عند الناس»، ولأبي داود والنسائي: «فقلنا هل عهد إليك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا لم يعهده إلى الناس؟ قال: لا إلا ما في كتابي هذا.. الحديث»، ولم يذكر: «الفهم في القرآن».

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثوّر القرآن» وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أمورًا لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها.

وأما أفعاله تعالى: فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالي منها صفات الله عَزَّوَجَلَّ إذا الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته.

ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة:٦٣]، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة:٥٨]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة:٦٨]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ [الواقعة:٧١]، فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمني، بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧]، فليتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التي منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع.

وأما أحوال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فإذا سمع منها كيف كُذّبوا وضُرِبوا وقُتل بعضُهم. فليفهم منه صفة الاستغناء لله عَزَّوَجَلَّ عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئًا. وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته لنصرة الحق. وليقس القاري للقرآن على ذلك التفهم في أقوال المكذِّبين والناجين وغيرهم والله أعلم.

السادس: التخلي عن موانع الفهم: فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحُجُب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن ومعاني القرآن من جملة الملكوت. وكل ما غاب عن الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت.

وحُجُب الفهم أربعة:

(أ) أن يكون الهمُّ منصرفًا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وُكِّلَ بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عَزَّوَجَلَّ فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه فهذا يكون تأمله مقصورًا على مخارج الحروف فأنى تنكشف له المعاني؟ وأعظم ضحكة للشيطان لمن كان مطيعًا لمثل هذا التلبيس.

(ب) أن يكون مقلدًا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة. فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفًا على مسموعه، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك! فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله. ولمثل هذا قالت الصوفية: إن العلم حجاب وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم فأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجابًا وهو منتهى المطلب؟ وهذا التقليد قد يكون باطلًا فيكون مانعًا كمن يعتقد في الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فإن خطر له مثلًا في القدّوس أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن

يستقر ذلك في نفسه.. ولو استقر في نفسه لانجرّ إلى كشف ثاني وثالث ولتواصل. ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده بالباطل. وقد يكون حقًا ويكون أيضًا مانعًا من الفهم والكشف لأن الحق الذي كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن -كما ذكرناه في الفرق بين العلم الظاهر والباطن في كتاب قواعد العقائد-.

(جـ) أن يكون مصرًّا على ذنب أو متصفًا بكبر أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون. وكلما كانت الشهوات أشدّ تراكمًا كانت معاني الكلام أشد احتجابًا وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلي المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة. والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة، قال الفضيل: حرموا فهم القرآن وقد شرط الله عَزَّوَجَلَّ الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر:١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩].

فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب.

(د) أن يكون قد قرأ تفسيرًا ظاهرًا واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهذا أيضًا من الحجب العظيمة. وهذا لا يناقض قول علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إلا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في القرآن». وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس فيه.

السابع: التخصيص: وهو أن يقدّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع أمرًا أو نهيًا قدّر أنه المنهي والمأمور، وإنّ سمع وعدًا أو وعيدًا فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته. ولذلك قال تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠]، فليقدّر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى. وكيف لا يقدّر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرسول الله خاصة، بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣١].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٣]، ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر:٥٥]، ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٢٠]، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]، وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد، فهذا القارئ الواحد مقصود فما له ولسائر الناس فليقدّر أنه المقصود قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

قال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله»، وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه.

ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عَزَّوَجَلَّ بعهوده نتدبرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات. وكان مالك بن دينار يقول ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض.

وقال قتادة: «لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]».

الثامن: التأثر: وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره. ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونًا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، ذكر أربعة شروط؛ وحيث اقتصر ذكر شرطًا جامعًا فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦]، فالإحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره.

ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن. ولذلك قال الحسن: والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه وكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته.

وقال وهيب بن الورد: «نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئًا أرق للقلوب ولا أشدّ استجلابًا للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره»، فتأثر العبد

بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت؛ وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح؛ وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعًا لجلاله واستشعارًا. لعظمته وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عَزَّوَجَلَّ كذكرهم لله عَزَّوَجَلَّ ولدًا وصاحبةً، يغض صوته ويكسر في باطنه حياء قبح مقالتهم. وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقًا إليها وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفًا منها.

ولما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن مسعود: «**اقرأ علي**»(١) قال: فافتتحت سورة النساء فلما بلغت: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء:٤١]، رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي: «**حسبك الآن**»، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية.

ولقد كان في الخائفين من خرّ مغشيًّا عليه عند آيات الوعيد ومنهم من مات في سماع الآيات؛ فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكيًا في كلامه فإذا قال: ﴿ **إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [يونس:١٥]، ولم يكن خائفًا كان حاكيًا. وإذا قال: ﴿ **عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ** ﴾ [الممتحنة:٤]، ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكيًا. وإذا قال: ﴿ **وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا** ﴾ [إبراهيم:١٢]، فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة. فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان وإنما العزيز مثل تلك الحالة التي منّ الله عَزَّوَجَلَّ بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية. فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى. بل التالي باللسان المعرض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى: ﴿ **وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ** ﴾ [طه:١٢٤].

---

(١) متفق عليه.

وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٦]، أي تركتها ولم تنظر إليها ولم تعبأ بها، فإن المقصر في الأمر يقال إنه نسي الأمر؛ وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار. فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ.

التاسع: الترقي: وأعني به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عَزَّوَجَلَّ لا من نفسه، فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عَزَّوَجَلَّ واقفًا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عَزَّوَجَلَّ يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه مُنْعَمٌ عليه، بل يكون مقصور الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره. وهذه درجة المقربين وما قبله درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين.

وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: والله لقد تجلى الله عَزَّوَجَلَّ لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون.

وقال أيضًا وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتى خرّ مغشيًّا عليه فلما سرى عنه قيل له في ذلك، فقال: ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته، ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة. ولذلك قال بعض الحكماء: كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يلقيه على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيمًا لا أصبر عنه.

وقال عثمان وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: « لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن » وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام. ولذلك قال ثابت البناني: كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة. وبمشاهدة المتكلِّم دون ما سواه يكون العبد ممتثلا لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾) [الذاريات:٥٠]، ولقوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الذاريات:٥١].

العاشر: التبري: وأعني به أن يتبرأ من حوله وقوّته والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية. فإذا تلا بآيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشوّف إلى أن يلحقه الله عَزَّوَجَلَّ بهم، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدّر أنه المخاطب خوفًا وإشفاقًا. ولذلك كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يقول اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري فقيل له: هذا الظلم فما بال الكفر؟ فتلا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم:٣٤].

وقيل ليوسف ابن أسباط: إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ فقال: بماذا أدعو أستغفر الله عَزَّوَجَلَّ من تقصيري. سبعين مرة فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كان رؤيته سبب قربه؛ فإن من شهد البعد في القرب لطف به في الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراءها؛ ومن شهد القرب في البعد مُكِرَبه بالأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه. ومهما كان مشاهدًا نفسه بعين الرضا صار محجوبًا بنفسه.

وهذه الفتوحات الربانية لا تكون إلا بعد التبري عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها، ثم تخصص هذه الفتوحات بحسب أحوال القارئ فحيث يتلو آيات الرجاء ويغلب على حاله الاستبشار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عيانًا، وإن غلب عليه الخوف صار كأنه يرى النار حتى يرى أنواع عذابها.

وذلك لأن كلام الله عَزَّوَجَلَّ يشتمل على السهل اللطيف والشديد العسوف والمرجو والمخوف وذلك بحسب أوصافه، إذ منها الرحمة واللطف والانتقام والبطش. فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب في اختلاف الحالات، وبحسب كل حالة منها يستعد لأنْ يفتح له بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربها؛ إذ يستحيل أن يكون حالة المستمع واحدًا والمسموع مختلفا إذ فيه كلام راضٍ وكلام غضبان وكلام منعم وكلام منتقم وكلام جبار متكبر لا يبالي وكلام حنان متعطف لا يهمل.

❋ ❋ ❋

الحديث الرابع والثلاثون

ƝYƘƜūǩƚ Ǹǵ ǄƘǕyǩƚ

عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [غافر:٦٠]، الحديث رواه أصحاب السنن الأربعة والحاكم وصححه وقال الترمذي حسن صحيح.

ƤǽyƮǩƚ ƫƐ[1]:

يدور شرح هذا الحديث حول محورين:

ǮǍƼǨƿƺ ǆƼǩǍƮǩƚ ƸǔƦ ǅƺǕƿǽǩƚ ƘƿǆǍ ǄƼǕǘǩƚ:

أما القرآن الكريم: فمن الآيات:

قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي** ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقال تعالى: ﴿ **ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ** ﴾.

[الأعراف:٥٥]

وقال تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [غافر:٦٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ** ﴾.

[الإسراء:١١٠]

---

(١) الإحياء (١/ ٣٦١) وما بعدها.

وأما السنة: فمنها:

١- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: أنْ يُعجِّل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة وإما أنْ يصرف عنه من السوء مثلها**»(١).

٢- وعن أنس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد**»(٢).

٣- وعن أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين ونور السموات والأرض**»(٣).

٤- وعن سلمان عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله حييّ كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبين**»(٤).

:NƐ ‡ Ü Ægp DkÜyǩł ƙłYƌ ÆDkRǩł ƷŇƮǮǩł

الأول: أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة: كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل. قال تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ يدعوني فأستجيب له؟ مَنْ يسألني فأعطيه؟ مَنْ يستغفرني فأغفر له؟**»(٥)، وقيل: إن يعقوب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما

---

(١) رواه أحمد والبزار وأبو يعلى بأسانيد جيدة، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٤) رواه أبو داود والترمذي وحسنه، ورواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم، وقال ابن ماجه: صحيح على شرط الشيخين.

(٥) حديث: «**ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل...**» الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

قال: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٩٨]، ليدعو في وقت السحر. فقيل إنه قام في وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إني قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء.

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة: قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها.

وقال مجاهد: إن الصلاة جعلت في خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصلوات.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد**»[1].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «**الصائم لا ترد دعوته**»[2]، وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضًا إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوّشات. ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها. وحالة السجود أيضًا أجدر بالإجابة.

قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه** عَزَّوَجَلَّ **وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء**»[3].

---

(١) حديث: «الدعاء بين الأذان والإقامة لايرد»، أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة، والترمذي وحسنه من حديث أنس، ورواه في اليوم والليلة بإسناد آخر جيد،وابن حبان والحاكم وصححه.

(٢) حديث: «الصائم لا ترد دعوته»، أخرجه الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه من حديث أبي هريرة بزيادة فيه.

(٣) حديث أبي هريرة: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء» رواه مسلم.

وروى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا فأما الركوع فعظموا فيه الرب تعالى،وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قمن أن يستجاب لكم»**(١).

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة: ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه روى جابر ابن عبد الله أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس»(٢)، وقال سلمان: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفرًا»**(٣).

وروى أنس أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعيه»(٤).

وروى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مر على إنسان يدعو ويشير بإصبعيه السبابتين فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أحد أحد»**(٥). أي اقتصر على الواحدة.

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تغل بالأغلال.

قال الغزالي فهذه هي هيئات الأيدي ولا يرفع بصره إلى السماء قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الصلاة أو لتخطفن أبصارهم»**(٦).

(١) حديث ابن عباس: «إنني نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا...» الحديث أخرجه مسلم أيضًا.

(٢) حديث جابر: «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس... الحديث»، أخرجه مسلم دون قوله: «يدعو» فقال مكانها: «واقفًا»، والنسائي من حديث أسامة بن زيد: «كنت ردفه بعرفات فرفع يديه يدعو» ورجاله ثقات.

(٣) حديث سلمان: «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرًا» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال: إسناده صحيح على شرطهما.

(٤) حديث أنس: «كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعه»، أخرجه مسلم دون قوله: «ولا يشير بأصبعه». والحديث: متفق عليه لكن مقيد بالاستسقاء.

(٥) حديث أبي هريرة: «مر على إنسان يدعو بأصبعيه السبابتين فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد أحد» أخرجه النسائي وقال: حسن، وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٦) رواه مسلم.

الرابع: خفض الصوت بين المخافتة والجهر: لما روي أن أبا موسى الأشعري قال قدمنا مع رسول الله فلما دنونا من المدينة كبرَّ وكبرَّ الناس ورفعوا أصواتهم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب إن الذي تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم**»(١). وقالت عائشة(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا**﴾ [الإسراء:١١٠]. أي بدعائك، وقد أثنى الله عَزَّوَجَلَّ على نبيه زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال: ﴿**إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا**﴾ [مريم:٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ [الأعراف:٥٥].

الخامس: أن لا يتكلف السجع في الدعاء: فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع والتكلف لا يناسبه. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سيكون قوم يعتدون في الدعاء**»(٣).

وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ**﴾ [الأعراف:٥٥]، قيل معناه التكلف للأسجاع، والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة فإنه قد يعتدى في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء، ولذلك روي عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن العلماء يحتاج إليهم في الجنة إذ يقال لأهل الجنة تمنوا فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلماء».

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يفعلون إلا ذلك»(٤).

ومرَّ بعض السلف بقاصٍّ يدعو بسجع فقال له: «أعلى الله تبالغ أشهد لقد رأيت حبيبًا العجمي يدعو وما يزيد على قوله: اللهم اجعلنا جيدين اللهم لا تفضحنا يوم

---

(١) حديث أبي موسى الأشعري: «يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب»، متفق عليه مع اختلاف، واللفظ الذي ذكره المصنف لأبي داود.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل.

(٤) رواه البخاري.

القيامة اللهم وفقنا للخير والناس يدعون من كل ناحية وراءه وكان يعرف بركة دعائه»، وقال بعضهم ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق. ويقال إن العلماء الأبدال لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها ويشهد له آخر سورة البقرة فإن الله تعالى لم يخبر في موضع من أدعية عبادة أكثر من ذلك. واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة.

السادس: التضرع والخشوع والرغبة والرهبة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٥٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

السابع: أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يقل أحدكم إذا دعا: اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له**»(١)، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء**»(٢)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله** عَزَّوَجَلَّ **لا يستجيب دعاء من قلب غافل**»(٣)، وقال سفيان بن عيينة: «لا يمنعنّ أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عَزَّوَجَلَّ أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله إذ قال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر:٣٦-٣٧].

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه.

(٣) أخرجه الترمذي والحاكم وقال: مستقيم الإسناد.

الثامن: أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثًا: قال ابن مسعود: «كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا دعا** دعا ثلاثًا وإذا سأل سأل ثلاثًا»(١)، وينبغي أن لا يستبطىء الإجابة لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي فإذا دعوت فاسأل الله كثيرًا فإنك تدعو كريمًا**»(٢)، وقال بعضهم: إني أسأل الله عَزَّوَجَلَّ منذ عشرين سنة حاجة وما أجابني وأنا أرجو الإجابة. سألت الله تعالى أن يوفقني لترك ما لا يعنيني.

التاسع: أن يفتتح الدعاء بذكر الله عَزَّوَجَلَّ **فلا يبدأ بالسؤال**: قال سلمة بن الأكوع: ما سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستفتح الدعاء إلا استفتحه بقول: «**سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب**»(٣)، قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم يسأله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما، وروى عن أبي الدرداء: «**إذا سألتم الله** عَزَّوَجَلَّ **حاجة فابتدئوا بالصلاة عليَّ فإن الله تعالى أكرم من أن يُسئل حاجتين فيقضي إحداهما ويرد الأخرى**»(٤) رواه أبو طالب المكي.

العاشر: وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة: التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ بكنه الهمة، فذلك هو السبب القريب في الإجابة. فيروى عن كعب الأحبار أنه قال: أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج موسى ببني إسرائيل يستسقى بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا، فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام، فقال

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد وقال العراقي: فيه عمر بن راشد ضعفه الجمهور والحديث صححه السيوطي في الجامع الصغير (٧٠٤٦).

(٤) قال العراقي: موقوف على أبي الدرداء الإحياء (١/ ٣٦٥).

موسى: يا رب ومن هو حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليه يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نمامًا؟ فقال موسى لبني إسرائيل توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النميمة فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث.

وقال سعيد بن جبير: قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبني إسرائيل ليرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذينه قيل له وكيف تقدر أن تؤذيه وهو في السماء؟ فقال: أقتل أولياءه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له، فأرسل الله تعالى عليهم السماء.

وقال سفيان الثوري: بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون، فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى أنبيائهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لو مشيتم إليَّ بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكل ألسنتكم عن الدعاء فإني لا أجيب لكم داعيًا ولا أرحم لكم باكيًا حتى تردوا المظالم إلى أهلها ففعلوا فمطروا من يومهم.

وقال مالك بن دينار: أصاب الناس في بني إسرائيل قحط فخرجوا مرارًا فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إليَّ بأبدان نجسة وترفعون إليَّ أكفًا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام. الآن قد اشتدّ غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بعدًا.

وقال أبو الصدّيق الناجي: خرج سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يستسقى فمرّ بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا، فقال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر من حضر ألستم مقرّين بالإساءة؟ فقالوا: اللهم نعم فقال: اللهم إنا قد سمعناك تقـول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة:٩١]، وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؛ اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا؛ فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا.

وقيل لمالك بن دينار: ادع لنا ربك فقال إنكم تستبطئون المطر وأنا أستبطىء الحجارة.

وروى أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقي فلما ضجروا قال لهم عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: من أصاب منكم ذنبا فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المفازة إلا واحد، فقال له عيسى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أما لك من ذنب؟ فقال: والله ما علمت من شيء غير أني كنت ذات يوم أصلي فمرت بي امرأة فنظرت إليها بعيني هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فانتزعتها وتبعت المرأة بها. فقال له عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: فادع الله حتى أؤمن على دعائك، قال: فدعا فتجللت السماء سحابًا ثم صبت فسقوا.

وقال يحيى الغساني أصاب الناس قحط على عهد داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم؛ فقال أحدهم: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعفو عمن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا؛ وقال الثاني: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعتق أرقاءنا اللهم إنا أرقاؤك فأعتقنا؛ وقال الثالث: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا فسقوا.

وقال عطاء السلمي: منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فإذا نحن بسعدون المجنون في المقابر فنظر إليَّ فقال: يا عطاء أهذا يوم النشور أوبعثر ما في القبور فقلت: لا ولكنا

منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فقال يا عطاء: بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية؟ فقلت: بل بقلوب سماوية. فقال: هيهات يا عطاء قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا فإن الناقد بصير ثم رمق السماء بطرفه وقال إلهي وسيدي ومولاي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المكنون من أسمائك وما وارت الحجب من آلائك إلا ما سقيتنا ماء غدقا فراتا تحيي به العباد وتروي به البلاد يا من هو على كل شيء قدير، قال عطاء: فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القرب فولى وهو يقول:

أفْلَحَ الزاهدون والعابدونا إذ لمولاهم أجاعُوا البطونا
أسهروا الأعْيُنَ العليلة حبًا فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شَغَلَتْهم عبادة الله حتى حسب الناس أن فيهم جُنُونا

وقال ابن المبارك: قدمت المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتزر بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه، فجلس إلى جنبي فسمعته يقول: إلهي أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوي الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك، فأسألك يا حليمًا ذا أناة يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل أن تسقيهم الساعة الساعة، فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب، قال ابن المبارك فجئت إلى الفضيل، فقال: ما لي أراك كئيبًا؟ فقلت أمر سبقنا إليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخرّ مغشيًّا عليه.

ويروى أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استسقى بالعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس: «اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت الراعي لا تهمل الضالة ولا تدع الكبير بدار مضيعة فقد ضرع الصغير ورق

الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى. اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. قال: فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال.

❁ ❁ ❁

الحديث الخامس والثلاثون والسادس والثلاثون

ÆDzơǸΣ3Ɗ ÆDzơǸŪY Ƙǭ Ǥ ǅǷ ǫYƋ ǰ ƛƗ Ƙǽ

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**قال الله** عَزَّ وَجَلَّ: **أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني**» متفق عليه.

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي؛ يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**»، رواه الترمذي وقال حديث حسن.

:ǰØŘǽƴƮǩƗ ţƸ‖

موضوعهما الرجاء وحسن الظن بالله تعالى وقد أفاض الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان هذين العملين من أعمال القلوب، ولكن نقتبس منه ما قل ودلَّ في المحاور الآتية:

:3ǨƥøƗƊ ŋDzsǩƗƊ ǯƋƸĀǩƗ ǰǭ ǷǨΣƸǩƗ ŋǬØǸə 3ǨØƛ :(1)ǧƊàƗ 3ǸƮ3ǩƗ

أما القرآن الكريم: فمما ورد: قال تعالى: ﴿**قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**﴾ [الزمر:٥٣]، وفي قراءة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم»(٢)، وقال تعالى: ﴿**وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ [الشورى:٥].

---

(١) الإحياء (٤/ ١٤٩) وما بعدها.

(٢) أخرجه الترمذي حسن غريب.

وأخبر تعالى أنّ النار أعدّها لأعدائه، وإنما خوّف بها أولياءه فقال: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ [الزمر:١٦].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٣١].

وقال تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [الليل:١٤-١٦].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد:٦].

وجاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥]. قال: «لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار»، وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول: أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ قوله: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٣]، ونحن أهل البيت نقول: أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥].

وأما السنة: فالأحاديث التي جاءت في بيان فضل الرجاء وحسن الظن بالله كثيرة منها:

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق إن رحمتي تغلب غضبي**»(١).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**»، أو قال: «**وجبت له الجنة**»(٢).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أذنب العبد ذنبًا؛ فاستغفر الله، يقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي أذنب ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له**»(٣).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، وصححه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (٥/ ٧٩٨).

(٣) متفق عليه.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد**»(١).

وفي الحديث أيضًا: «**والذي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها**»(٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعًا وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فبها يتراحم الخلق، فتحنّ الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها. فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض**»، قال: «**فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك**»(٣)، وفي الخبر: «**ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»(٤)، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اعملوا وابشروا واعلموا أن أحدًا لن ينجيه عمله**»(٥)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي أترونها للمطيعين المتقين بل هي للمتلوثين المخلطين**»(٦)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بعثت بالحنيفية السمحة السهلة**»(٧)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وعلى كل عبد مصطفى: لتعلم يهود أن في ديننا فسحة**»(٨)، ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم: ﴿**وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا**﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الأعراف:١٥٧]، وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لما نزل قوله

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.
(٦) متفق عليه.
(٧) متفق عليه.
(٨) رواه أحمد وأبو عبيد وهو بمعنى الحديث السابق.

تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥]، قال: «يا جبريل وما الصفح الجميل؟» قال عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: «**إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه**»، فقال: «**يا جبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه**» فبكى جبريل وبكى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقال: «**إن ربكما يقرئكما السلام ويقول:كيف أعاتب من عفوت عنه، هذا ما لا يشبه كرمي**»(١).

وأما الأخبار فهي كثيرة جدًّا: منها:

عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أذنب ذنبًا فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنبًا فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده في الآخرة**»(٢)، وقال الثوري: ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوَيَّ لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما. وقال بعض السلف: المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه؛ خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت: يا رب اعصمني حتى لا أعصيك أبدًا فهتف بي هاتف من البيت يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل؟ ولمن أغفر؟.

وكان الحسن يقول: لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السماوات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب. وقال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين. ولقي مالك بن دينار أبانًا فقال له: إلى كم تحدث الناس بالرخص؟ فقال: يا أبا يحيى إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح.

(١) أخرجه ابن مردوية في تفسيره موقوفًا على سيدنا علي وفي إسناده نظر.
(٢) رواه أحمد في المسند وحسنه الأرناؤط.

وفي حديث ربعي بن حراش عن أخيه قال: لما مات أخي سجى بثوبه وألقيناه على نعشه، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدًا وقال: إني لقيت ربي عَزَّوَجَلَّ فحياني بروح وريحان وربي غير غضبان، وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفتروا، وأن محمدًا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم قال: ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت فحملناه ودفناه.

وفي الحديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى، فكان أحدهما يسرف على نفسه، وكان الآخر عابدًا وكان يعظه ويزجره، فكان يقول: دعني وربي، أبعثت عليَّ رقيبًا، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال: لا يغفر الله لك. قال: فيقول الله تعالى يوم القيامة: أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي، اذهب أنت فقد غفرت لك ثم يقول للعابد: وأنت فقد أوجبت لك النار. قال: فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته(١).

وروى أيضًا أن لصًا كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فمرّ عليه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين، فقال اللص في نفسه: هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثًا، قال: فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيمًا للحواري ويقول في نفسه مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد. قال: وأحس الحواري به فقال في نفسه هذا يمشي إلى جانبي، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فمشى بجنبه فبقي اللص خلفه، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما؛ أما الحوارى فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه، فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حواريه.

---

(١) رواه أبو داود بإسناد جيد عن أبي هريرة.

وروى عن مسروق أن نبيًا من الأنبياء كان ساجدًا فوطىء عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجبهته، قال: فرفع النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رأسه مغضبًا فقال: «**اذهب فلن يغفر الله لك**»، فأوحى الله تعالى إليه: «**تتألى عليَّ في عبادي، إني قد غفرت له**».

:ĠÆØÆȚơ ηØÄØ g þ ÐĶΣƐǩƗ ηÆØÆ ƈ :ÆĐĶŘǩƗ ƷŇȚƷǩƗ

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، و أنما يسمى الوصف مقامًا إذا ثبت وأقام، وإنما يسمى حالًا إذا كان عارضًا سريع الزوال، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى حالًا لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب؛ وغرضنا الآن حقيقة الرجاء، فالرجاء أيضًا يتم من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر الحال. والحال يقتضي العمل، وكان الرجاء اسمًا من جملة الثلاثة، وبيانه: أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظَرٍ في الاستقبال، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكرًا وتذكرًا، وإن كان ما خطر بقلبك موجودًا في الحال سمي وجدًا وذوقًا وإدراكًا وإنما سمي وجدًا لأنها حالة تجدها من نفسك، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظارًا وتوقعًا، فإن كان المنتظر مكروهًا حصل منه ألم في القلب سمي خوفًا وإشفاقًا، وإن كان محبوبًا حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي حال الارتياح رجاء، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بدّ وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك إنظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم

تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب. وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، أما ما يقطع به فلا، إذا لا يقال: أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب، لأنّ ذلك مقطوع به، نعم يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقه الماء إليها، والقلب المستهتر في الدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع التي إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضًا طيبة وألقى فيها بذرًا جيدًا غير عفن ولا مسوّس، ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظرًا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته: سمي انتظاره رجاء، وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلًا، ثم انتظر الحصاد منه: سمي انتظاره حمقًا وغرورًا لا رجاء. وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضًا: سمي انتظاره تمنيًا لا رجاء؛ فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظاره محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات؛ فالعبد إذا بث بذر الإيمان. وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة،

وكان انتظاره رجاء حقيقًا محمودًا في نفسه باعثًا له على المواظبة القيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، وترك القلب مشحونًا برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة**»(١).

وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩]، وذم الله تعالى صاحب البستان إذا دخل جنته وقال: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٥-٣٦]، فإذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصى حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة. وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة. وأما قبل التوبة إذا كان كارهًا للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق إليها، فحقيق بأن يرجو منا لله التوفيق للتوبة؛ لأنّ كراهيتة للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضي إلى التوبة، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٨]. معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضًا قد يرجو؛ ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم

(١) تقدم أكثر من مرة.

على التوبة والرجوع، فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقي ولا تنقية. قال يحيى بن معاذ: من أعظم الإغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عَزَّوَجَلَّ مع الإفراط:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تثمر الجد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلًا إلى وقت الحصاد، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس، واليأس يمنع من التعهد، فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت: فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب في تعهدها، والرجاء محمود لأنه باعث، واليأس مذموم وهو ضدّه لأنه صارف عن العمل، والخوف ليس بضدّ للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة، فإذن حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لابدّ وأن تظهر على كل من يرجو ملكًا من الملوك أو شخصًا من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمني فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل، ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل، إذ قال لرسول الله

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد؟ فقال: «**كيف أصبحت؟**» قال: أصبحت أحب الخير وأهله، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه، وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه. فقال: «**هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالى في أي أوديتها هلكت**»، فقد ذكر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علامة من أريد به الخير، فمن ارتجى أن يكون مرادًا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور.

:DĶΣƸǩł Áǩƒ ƧĶǪȚǽ ǻzǩł yǕǖǩł Ǹǵ ǰǭ :PǩĶŖǩł ʒǸȚƷǩł

اعلم أنّ هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين: إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال؛ فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سمومًا مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفًا ناظرًا إلى مواقع العلل معالجًا لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها، فإنّ المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها؛ فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف أيضًا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى

الرجاء حتى ازداد الفساد فسادًا وازداد المنهمكون في طغيانهم تماديًا. قال علي كرم الله وجهه إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله.

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعًا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الأخرق الذي يظنّ أنّ كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان. وحال الرجاء يغلب بشيئين، أحدهما. الاعتبار، والآخر: استقراء الآيات والأخبار والآثار.

أما الاعتبار، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعدّ له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود؛ وإنما كان يفوّت به مزية جمال، فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد، بل إذا نظر الإنسان نظرًا شافيًا علم أنّ أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة في الدنيا، حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدًا مثلًا أو لا يحشر أصلا فليست كراهتهم للعدم إلا لأنّ أسباب النعم أغلب لا محالة، وإنما الذي يتمنى الموت نادر، ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة، فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلًا فالغالب أنّ أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده

متعطف عليهم، فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء، ومن الاعتبار أيضًا النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها، حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء. فقيل له: وما فيها من الرجاء؟ فقال الدنيا كلها قليل، ورزق الإنسان منها قليل، والدين قليل عن رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه؟.

❁ ❁ ❁

الحديث السابع والثلاثون

(ƹ Ğ ǂǩł ǨNJə) ƹǾǕƛ Żł Ǥ ǖƩ

عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يلقى رجلًا فيقول: «**يا فلان، كيف أنت؟**» فيقول: بخير أحمد الله، فيقول له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جعلك الله بخير**»، فلقيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم فقال: «**كيف أنت يا فلان؟**» فقال: بخير إنْ شكرتُ، قال: فسكت عنه، فقال: يا نبي الله، إنك كنتَ تسألني فتقول جعلك الله بخير، وإنك اليوم سكتَّ عني؟ فقال له: «**إني كنت أسألك فتقول: بخير أحمد الله فأقول جعلك الله بخير، وإنك اليوم قلت: إن شكرتُ، فشككت، فسكتُ عنك**»، رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

‖ ƫƹ Ƥǽƴǐǩł[(١)]:

إن هذا الحديث من الأحاديث العظيمة الجليلة في باب الشكر مما غفل عنه كثير من الناس، ولهذا أطال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحديث في الإحياء عن الشكر ويمكن اقتباس ثلاثة محاور فقط مما أورده في هذا الموضوع الهام:

ǮǸǐǮǩł ǧǜǟł: ǨNJə ƹ Ğ ǂǩł Ǽə ǯǝƹǞǩł Ğ ǩł ǬǽƸ Ƥǽƴǐǩǜ Ƥǽƴǐǩł ǻǸǛǩł:

أما فضل الشكر في القرآن الكريم:

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع انه قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، فقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء:١٤٧].

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٨٥) وما بعده.

وقال تعالى: ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ إخبارًا عن إبليس اللعين: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف:١٦]، قيل هو طريق الشكر، ولعلوّ رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣].

وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧].

واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ [التوبة:٢٨]. وقال: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام:٤١]، وقال: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٣٧]، وقال: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، وقال: ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة:١٥]، وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن:١٧]، وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٧٤]، وقال: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس:١٠].

وأما فضل الشكر في الحديث النبوي: فمنها:

فقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**»(١).

وروى عن عطاء انه قال: دخلت على عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فقلت: اخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجبًا؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي - أو قالت في لحافي - حتى مس جلدي جلده ثم قال: «**يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبدُ لربي**» فقالت: قلت: إني أحبَ قربك لكني أوثر هواك، فأذنتُ له فقام إلى قِربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره

(١) الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حيان وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورا، ولِمَ لا أفعلُ ذلك وقد أنزل الله تعالى عليَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾**» الآية(١).

وعن أبي الدرداء أنه قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ الله** عَزَّوَجَلَّ **يقول: يا عيسى إني باعث مِن بعدك أمة إنْ أصابهم ما يحبون حمدوا الله وشكروه، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم، قال: يا رب؛ كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم؛ قال: أعطيهم من حلمي وعلمي**»(٢).

:ĸĦǾǪŪ ǫǸǢǽ ǼǪǩǩł ǴǩǸDžǫƿ Ƹ Ǧ ǂǩł ɳǢǾǢ ƭ ǯĸǾƛ :ǼDZĸRǩł ǯǸƮǯǩł

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضًا ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه. ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعة الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه.

فالأصل الأول: العلم: وهو علم بثلاثة أمور؛ بعين النعمة، ووجه كونها نعمة في حقه، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه. فإنه لا بد من: نعمة، ومُنعِم، ومُنَعم عليه، تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة، فهذه

---

(١) حديث صحيح من رواية عروة عن عائشة مختصرًا على العبارة الأخيرة: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»، وهو بطوله عند أبي الشيخ وابن حبان.

(٢) أخرجه أحمد والهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير الحسن بن سوار وابن ــــ وهما ثقات والحديث حسنه ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٤٦).

الأمور لا بد من معرفتها. هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم، والوسائط مسخرون من جهته.

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها. بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان: التقديس. ثم إذا عرف ذاتًا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس: وهو التوحيد. ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط، فالكل نعمة منه، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة، إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد: كمال القدرة والانفراد بالفعل. وعن هذا عبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال من قال: «**سبحان الله فله عشر حسنات، ومن قال لا اله الا الله فله عشرون حسنة، ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة**»[١]، وقال إبراهيم النخعي: «ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله»[٢]، ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب «فسبحان الله» كلمة تدل على التقديس و «لا إله إلا الله» كلمة تدل على التوحيد، و«الحمد لله» كلمة تدل على النعمة من الواحد الحق. فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين.

واعلم أن تمام هذه المعرفة بنفي الشرك في الأفعال، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأي لوزيره أو وكيله دخلًا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه، بل منه بوجه ومن غيره بوجه، فيتوزع فرحهُ عليهما فلا يكون موحدًا في حق الملك. نعم لا يغض من توحيده في حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتبه عليه، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما، لأنه لا يثبت لهما دخلًا من حيث هما

(١) أحرجه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر موقوفًا عن إبراهيم النخعي.

موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك. وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضًا مضطران من جهة الملك في الإيصال، وانه لو رد الأمر اليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلَّم إليه شيئًا فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظرة إلى القلم والكاغد، فلا يورث ذلك شركًا في توحيده من إضافة النعمة إليه إلى الملك.

وكذلك من الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها، فإن الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل -شاءت أم أبت -كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلًا إلى مخالفة الملك ولو خُلِّي ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده. فكل مَن وصَّل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي؟ والقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك، وأن غرضه المقصود عنده في الحال والمال لا يحصل إلا به. وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلًا إلى تركه فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما نفعك فهو ادن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعمًا عليك بل اتخذك وسبيله إلى نعمة أخرى وهو يرجوها. وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطرًا إلى الإيصال إليك فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله، وكنت موحدًا وقدرت على شكره، بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرًا.

الأصل الثاني: الحال المستمدة من أصل المعرفة: وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع، وهو أيضًا في نفسه شكر على تجرّده كما أنَّ المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرًا إذا كان حاويًا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعِم لا بالنعمة ولا بالإنعام، ولعل هذا يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا فنقول: الملك الذي يريد

الخروج إلى سفره فأنعم بفرس على إنسان يتصوّر أنْ يفرح المنعَم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس، وهذ فرح مَنْ لاحظَّ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح.

الوجه الثاني: أن يفرح به لا مِن حيث إنه فرس بل من حيث إنه تستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه، لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلًا لاستغنائه عن الفرس أصلًا أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك.

الوجه الثالث: أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته القرب منه، وربما يرتقي إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أنْ يعطيه فرسًا ويعتني به هذا القدر من العناية، بل هو طالب لان لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب. فهذه ثلاث درجات، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلًا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر، والثانية داخله في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعِم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفًا من عقابه ورجاء لثوابه، وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصُّل إلى

القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذا هو الرتبة العليا، وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدّه عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما يريد صاحب الفرس لأنه جواد ومهملج بل من حيث انه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة. وقال الخوّاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب. وشكر الخاصة على واردات القلوب، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب، فإنّ القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره اذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرة كما قيل:

ومن يك ذا فم مريض يجد مرا به الماء الزلالا

فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى، فإن لم تكن إبل فمعزى، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية، أما الأولى فخارجة عن كل حساب، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك، وكم مِن فرق بين مَن يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه.

الأصل الثالث: العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم. وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه، وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى إن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه، فيدخل هذا في جملة

شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان: لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به؛ [وفي حديث الباب ما يشير إلى هذا المعنى حيث قال له: «شككت فسكتُ»].

وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعًا والمستنطق له به مطيعًا وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشكر، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء؛ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المبتلي والقادر على إزالة البلاء. وذل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل؛ وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدًا مثله ذل قبيح. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ [العنكبوت:١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف:١٩٤]، فالشكر باللسان من جملة الشكر.

وقد روي أن وفدًا قدموا على عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقام شاب ليتكلم، فقال عمر: كبِّر كبِّر! فقال يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك! فقال: تكلم فقال: لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك، وإنما نحن وفد الشكر، جئناك نشكرك باللسان وننصرف. فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته.

ونختم الكلام على تعريف الشكر بذكر أقاويل العارفين بالله تعالى وسبب قصورهم عن التعريف الجامع المانع للشكر:

فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب.

وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرّد عمل اللسان.

وقول القائل: إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة: جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان.

وقول حمدون القصار شكر النعمة: أن ترى نفسك في الشكر طفيليًا، إشارة إلى أنَّ معنى المعرفة من معاني الشكر فقط.

وقول الجنيد الشكر: أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة: إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تُعرِبُ على أحولهم؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق.

ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالًا بما يهمهم عما لا يهمهم، أو يتكلمون بما يرونه لائقًا بحالة السائل، اقتصارًا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه، وإعراضًا عما لا يحتاج إليه؛ فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها، بل لا يظن ذلك بعاقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني، أم يتناول بعضها مقصودًا وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه؟ ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء، والله الموفق برحمته.

:ηǮūǅǩǨƛ ǛłƸǭǕ èł ÁǫǕ ǬƕǨā Ƹ Ǧ ǂǩł :ƤǨǨƦǩł ǮǸƮǮǩł

فكان لا بد من بيان ما أنعم الله به علينا لنؤدي شكرها، وفي ذلك يقول الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وأما

مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقًا ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بوسطة واحدة أو بوسائط فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضى إلى النعمة الحقيقية.

والأسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات:

القسمة الأولى: أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعًا: كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيهما جميعًا كالجهل وسوء الخلق، وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل: كالتلذذ باتباع الشهوة، وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل:كقمع الشهوات ومخالفة النفس.

فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقًا كالعلم وحسن الخلق والضارّ فيهما هو البلاء تحقيقًا وهو ضدهما والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوي البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلًا فيه سم فإنه يعدّه نعمة إن كان جاهلًا، وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه. والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال: ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة، فالصبى الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعدّه نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ويقربه منه ويهيئ له أسبابه، فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والأب يدعوه إليها، فإن الأب لكمال عقله يلمح العاقبة، والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال، والصبى لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوًا له؛ ولو عقل لعلم أن الأم عدوًا باطنًا في صورة صديق لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشدّ من الحجامة، ولكن الصديق الجاهل

شر من العدوّ العاقل، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدوّ.

قسمة ثانية: اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها، فقلّما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب، ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب، وإلى ما ضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع، وإلى ما يكافئ ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص؛ فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات، فهو مع هذا التوفيق المال نعمةٌ في حقه، وربَّ إنسان يستضر بالقليل أيضًا إذ لا يزال مستصغرًا له شاكيًا من ربه طالبًا للزيادة عليه، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه.

قسمة ثالثة: اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره، وإلى مؤثر لغيره، وإلى مؤثر لذاته ولغيره.

فالأوّل: ما يؤثر لذاته لا لغيره: كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا انقضاء لها فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها، بل تطلب لذاتها.

الثاني: ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته: كالدراهم والدنانير فان الحاجة لو كانت لا تنقضي بها فكانت هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكثروها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة؛ ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصًا فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل

فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولًا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده، وهو غاية الجهل والضلال.

الثالث: ما يقصد لذاته ولغيره: كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا، وتقصد أيضًا لذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذى تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضًا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة، فإذن المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقًا، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضًا فهو نعمة ولكن دون الأوّل، فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمر ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته، استوى عند الذهب والمدر، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة.

قسمة رابعة: اعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل، فاللذيذ هو الذى تدرك راحته في الحال، والنافع هو الذى يفيد في المآل، والجميل هو الذى يستحسن في سائر الأحوال: والشرور أيضًا تنقسم إلى ضارّ وقبيح ومؤلم، وكل واحد من القسمين ضربان:

الضرب الآجل: المطلق: المطلق هو الذى اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضارّ وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل، وذلك بأن يرى غيره عالمًا ويرى نفسه جاهلًا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة، ثم قد يمنع الحسد، والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادّان فيعظم ألمه،

فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم، ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة.

الضرب الثاني: المقيد: وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتآكلة والسلعة الخارجة من البدن، ورب نافع قبيح كالحمق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع، فقد قيل:استراح من لا عقل له فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه، ورب نافع من وجه ضارّ من وجه: كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق، فإنه ضارّ للمال نافع للنفس في نجاتها. والنافع قسمان: ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعنى بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما، وإلى ما لا يكون ضروريًا كالسكنجبين مثلا في تسكين الصفراء؛فإنه قد يمكن تسكينها أيضًا بما يقوم مقامه.

قسمة خامسة: حاوية لمجامع النعم: اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية.

أما الغاية فإنها سعادة الآخرة: ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل فيه، وغني لا فقر بعده، وهي النعمة الحقيقية، ولذلك قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**»(١)، وقال ذلك مرّة في الشدة تسلية النفس، وذلك في وقت حفر الخندق في شدّة الضر؛ وقال ذلك مرة في السرور منعًا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا؛ وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع(٢). وقال رجل: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وهل تعلم ما تمام النعمة؟**» قال: لا. قال: «**تمام النعمة دخول الجنة**»(٣).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الشافعي مرسلًا والحاكم متصلًا وصححه.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه من حديث معاذ.

وختم الغزالي كلامه بهذا النقل عن بعض الحكماء:

وقال بعض الحكماء ـ وقد قيل له: ما النعيم؟ فقال: الغنى فإني رأيت الفقير لا عيش له. قيل: زدنا! قال: الأمن، فإني رأيت الخائف لا عيش له. قيل: زدنا! قال: العافية، فإني رأيت المريض لا عيش له. قيل: زدنا! قال: الشباب، فإني رأيت الهرم لا عيش له. وكأنّ ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث أنه معين على الآخرة فهو نعمة، ولذلك قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أصبح معافى في بدنه آمنا في سربه عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»(١)، وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما،إذ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**»(٢).

❁❁❁

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث عبيدالله بن محصن.

(٢) صحيح مسلم.

الحديث الثامن والثلاثون

Ǵ ƽ Ăƶ ǯƗƳ ǰǭ 5 ǾĞ ǩƗ

عن شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»، رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري، وذكره السيوطي في الجامع الصغير وصححه رقم (٦٤٦٨) ورواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

ƤǽƳƮǩƗ ƫƐƗ[١]:

يدور شرحه على أربعة محاور:

ǴǨ ǨǯǕǩƗƿ ǽƳǕǡ Ǩǭƿ ƟǸǯǩƗ :ǧƿǚƗ ǯǸƮǯǩƗ:

وأذكر فيه حال رجلين سلمت خاتمة أحدهما ولم يسلم الآخر[٢]:

أحدهما: مَا رُوِيَ عَنِ ٱبْن شُبْرمةَ أنه قال: دخلت مع الشعبي على رجل مريض نعوده وهو لما به، وعنده رجل يلقنه: لا إله إلا الله، فقال الشعبيُّ: أرفق به، فتكلم المريض وقال: إن تُلقني أو لم تُلَقِّنِّي فإني لا أدعُها! ثم قَرَأ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦]، فقال الشعبي: الْحَمْدُ لله الذي نَجَّا صاحبنا.

والآخر: ما حكي أن تلميذًا للفضيل بن عياض، حضرته الوفاة، فدخل عليه الفضيل وجلس عند رأسه، وقرأ سورة (يس) فقال: يا أُستاذ لا تقرأ، فسكت؛ ثم لقنه فقال قل: لا إله إلا الله، فقال: لا أقولها لأني منها بريء، ومات على ذلك؛ فدخل الفضيل

---

(١) علَّق الذهبي على أحد رواة هذا الحديث وهو أبو بكر بن أبي مريم، قال: أبوبكر واهٍ ولكني ذكرته هاهنا بناءً على حكم الترمذي ومن بعده السيوطي أي صحيح.

(٢) إحياء علوم الدين (٧٠/ ٨٤) وما بعدها ومنهاج العابدين (٦٥) وما بعدها و(٣٤٥) وما بعدها.

منزله وجعل يبكي أربعين يومًا لم يخرج من البيت، ثم رآه في النوم وهو يُسحب إلى جهنم، فقال بأيِّ شيء نزع الله المعرفة منك وكُنتَ أعلـم تلامذتي؟ قال: بثلاثة أشياء: أوَّلهـا: النميمـة، فإني قلت لأصحابي بخـلاف مـا قُلْتُ لك.

والثاني: الحسد: حسدت أصحابي.

والثالث: كان بي علة فجئتُ إلى الطبيب فسألتُهُ عنها، قال: تشرب في كل سنة قدحًا منْ خَمْرٍ، فإن لم تفعل تبقى بك العلةُ؛ فكنتُ أَشْرَبُهُ، نعوذ بالله من سخطه الذي لا طاقة لنا به.

ثم أذكر حال رجلين آخرين حسنت خاتمتهما:

أحدهما: ما حكي عن عبدالله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه لما احتضر، نظر إلى السماء فضحك وقال: ﴿**لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ**﴾ [الصافات:٦١].

وسمعت إمام الحرمين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يحكي عن الأستاذ أبي بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كان لي صاحب أيام التعليم، وكان مبتدئًا كثير الجهد في التعليم، تقيًا متعبدًا، وكان لا يحصل له مع ذلك الاجتهاد إلا القليل، وكنا نتعجب من حاله؛ فمرض فلزم مكانه بين الأولياء في الرباط، ولم يدخل إلى بيت المرضى، وكان يجتهد مع مرضه، فاشتد به الحال وأنا بجانبه؛ فبينما هو كذلك، إذ شَخَصَ ببصره إلى السماء ثم قال لي: يا ابن فورك: ﴿**لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ**﴾ [الصافات:٦١]. وتوفي عند ذلك رحمة الله عليه.

وأما الآخر: فنحو ما رُوي عن مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه دخل على جار له احتضر، فقال له: يا مالك: جبلان من نار بين يديَّ أُكَلَّفُ الصعود عليهما، فسألت أهله فقالوا: كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فدعوت بهما، فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما، ثم سألت الرجل فقال: ما يزداد الأمر عليَّ إلا عِظَمًا.

وأما القبر والحال بعد الموت، فأذكر فيه حال رجلين:

أحدهما: ما ذكر عن بعض الصالحين قال: رأيت سفيان الثوري في النوم بعد موته، فقلت: كيف حالك يا أبا عبد الله؟ فأعرض عني وقال: ليس هذا زمان الكُنى! فقلت: كيف حالك يا سفيان؟ فَأَنْشَأ يقول: [الطويل]:

نظَرْتُ إلى رَبِّي عَيَانًا فَقَالَ لِي ... هَنِيئًا رِضَائِي عَنْكَ يَا ابْن سَعِيدِ
لَقَدْ كُنْتَ قَوَّامًا إذا اللَّيْلُ قَدْ دَجَا ... بِعَبْرَةِ مشتاق وقَلْبٍ عَمِيدِ
فدُونَكَ فَاخْتَرْ أيَّ قَصرٍ تُرِيدُهُ ... وزُرْني فَإنِّي عَنْكَ غَيْرُ بَعِيدِ

والرجل الثاني: ما ذُكر أن بعضهم روي في النوم شاحب اللون، مغلولة يداه إلى عنقه، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فأنشد يقول: [المتقارب]

تَوَلَّى زَمَانٌ لَعِبْنَا به ... وَهَذا زَمَانٌ بِنَا يَلْعَبُ

وحال آخرين:

أحدهما: ما روي عن بعض الصالحين قال: كان لي ابن استشهد، فلم أره في المنام الى ليلة توفي عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذ تراءى تلك الليلة، فقلت: يا بني ألم تك ميتًا؟ فقال: لا، ولكني استشهدت، وأنا حيٌّ عند الله تعالى أرزق؛ فقلت: ما جاء بك؟ قال: نودي في أهل السماء: ألا لا يبقى نبيٌّ ولا صدّيق ولا شهيد إلا وحضر الصلاة على عمر ابن عبدالعزيز، فجئت لأشهد الصلاة ثم جئتكم لأسلم عليكم.

وأما الآخر: نحو ما روي عن هشام بن حسان أنه قال: مات لي ابن حدث، فرأيته في المنام، فإذا هو أشيب، فقلت: يا بني ما هذا الشيب؟ فقال: لما قدم علينا فلان، زفرت جهنم لقدومه زفرة لم يبق منا أحد إلا شاب. نعوذ بالله الرحيم من العذاب الأليم.

وأما القيامة، فتأمل قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٥-٨٦].

فواحد يخرج من قبره، فإذا البراق على رأسه القبر والتاج والحلل، فيلبس ويركب إلى جنات النعيم، ولا يُخَلَّى من عزة أن يمشي إلى الجنة برجليه.

وآخر يخرج من قبره، فإذا الزبانية والأنكال، لا يخلون الشقي أن يمشي غلى النار برجليه، بل يُسحبُ إلى سواء الجحيم على وجهه، نعوذ بالله من سخطه.

فأعظم برجل يشاهد تلك الأهوال والزلازل والوقائع، وهو آمن لا يدخل قلبه فزع، ولا يكون على قلبه ثقل. نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من أُولئك السُعداء وما ذلك على الله بعَزِيز.

وأما الجنة والنار: فتأمل بهما آيتين من كتاب الله تعالى إحداهما قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان٢١-٢٢]، وقال تعالى حكاية عن آخرين: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٧-١٠٨].

وروي أنهم يصيرون عند ذلك كلابًا يتعاوون في النار. نعوذ بالله الرءُوف الرحيم من عذابه الأليم؛ فإن الأمر كما قال يحيى بن معاذ: لا ندري أيُ المصيبتين أعظم: فوت الجنان، أم دخول النار؟ أما الجنة: فلا صبر عنها، وأما النار: فلا صبر عليها؛ وعلى كل حال فوتُ النعيم أيسر من مقاساة الجحيم.

ثم الطامة الكبرى والمصيبة العظمى هي الخلود، إذ لو كان الأمر على كل حال منقطعًا لكان الأمر هينًا؛ ولكن الشأْنُ في أمَدِ بلا آخر؛ فأيُّ قلب يحتمل ذلك! وأي نفس تصبر على ذلك؟ ولذلك قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ذِكْرُ الخالدين، يقطع قلوب الخائفين».

قلتُ: يرجع الأمر كله إذن إلى أصل واحد، وهي النكتة التي تقصم الظهور، وتُصَفِّرُ الوجوه، وتَقْطعُ القلوب، وتذيب الأكباد، وتدمي العيون من العباد، وهي خوف نزع المعرفة، فهذه الغاية التي ينتهي إليها خوف الخائفين، فبكى عليها أعين الباكين.

ولقد قال بعضهم: إنَّ الغموم ثلاثة: غم الطاعة أن لا تقبل، وغم المعصية أن لا تغفر، وغم المعرفة أن تسلب، وقال المخلصون: بل الغم كُلُّهُ واحد بالحقيقة، وهو غم المعرفة، وكل غم دونه جلل إذ له انقضاءُ.

ولقد بلغنا عن يوسف بن أسباط رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: دخلت على سفيان فبكى ليله أجمع، فقلت: بُكاؤُك هذا على الذنوب؟ قال: فحمل تبنًا وقال: الذنوب على الله أهون من هذا، إنما أخشى أن يسلبني الله الإسلام، نسألُ الله ربنا المنان سبحانه أن لا يبتلينا بمصيبة، وأن يتم علينا بفضله كبير نعمته، وأن يتوفانا على ملة الإسلام، إنه أرحم الراحمين.

وقد ذكرنا سبب سوء الخاتمة ومعناها في كتاب: (إحياء علوم الدين) فتأمله هناك، فإن الخوض فيه ههنا خروج إلى الإكثار، فتأمل هذه الجملة، فإن التفصيل أكثر في أن يأتي عليه الوهم والذكر لعلك تُفْلِحُ بعون الله وحُسن توفيقه.

ÝDĸΣƐǩł ǫ ÜǸUǩł ł ØǫūqǩǩƛÁǩþ ǰØǩǩȚǩł ắ :ÆĐǩRǩł ƷǸȚƷǩł

فإن قلت: فأي الطريقين أسلك: طريق الخوف، أم طريق الرجاء؟

يقال لك: بل المُركَّب بينهما، فلقد قيل: إن من غلب عليه الرجاء صار مُرْجئًا به، وربَّما يخاف عليه أن يصير خُرَّمِيًّا، ومن غَلَبَ عليه الخوف صار حَرُوريًا؛ والمراد أن لا ينفرد بأحدهما دون الآخَرِ؛ فإنَّ بالحقيقة الرجاء الحقيقي لا ينفك عن الخوف الحقيقيِّ، والخوفُ الحقيقي، لا ينفك عن الرجاء الحقيقي؛ ولذلك قيل الرجاء كله لأهل الخوف إلا الأمن، والخوف كله لأهل الرجاء إلا اليأْسِ.

فإن قلت: فهل يكون أحدُهما أرجح وأكثر ذكرًا بحال؟

فاعْلم أنَّ العبد إذا كان صحيحًا قويًا، فالخوف أولى به؛ وإنْ مرض وضعف، لا سيما إذا أشرف على الآخرة، فالرجاء أولى؛ كذا سمعت العلماء يقولون. فيصير رجاؤُه أولى في ذلك الوقت لانكسار قلبه، وخوفه المتقدم زمان الصحة والقوة والإمكان، ولذلك يقال

لهم: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت:٣٠]. فإن قلت: أليس قد جاءت الأخبار الكثيرة في الترغيب في حسن الظن بالله؟.

فاعلم أنَّ مِن حُسن الظن بالله تعالى الحذر مِن معصيته، والخوف من عقابه، والاجتهاد في خدمته. واعلم أنَّ ههنا أصلًا ونكته حسنة يغلط فيها الكثير من الناس، وهو أن الفرق بين الرجاء والأمنية، أن الرجاء يكون على أصل، والتمني لا يكون على أصل؛ مثاله: من زرع واجتهد وجمع بَيْدَرًا، ثم يقول: أرجو أن يحصل لي منه مائة قفيز، فذلك منه رجاء؛ وآخر لا يزرع زرعًا، ولا يعمل يومًا، فذهب ونام وأغفل سنته، فإذا جاء وقت البيادر يقول: أرجو أن يحصل لي مائة قفيز: فتقول له: من أين لك هذا الرجل؟ وإنما ذلك أمنية بلا اصل. فكذلك العبد إذا اجتهد في عبادة الله تعالى، وانتهى عن معصية الله تعالى، يقول: أرجو أن يتقبل الله هذا اليسير، ويتم هذا التقصير، ويعظم الثواب، ويعفو عن الزلل، وأحسن الظن، فهذا منه رجاءٌ.

فأمَّا إذا غفل وترك الطاعات، وارتكب المعاصي، ولم يبال بسخط الله تعالى ولا رضاهُ ووعده ووعيده، ثم أخذ يرجو من الله الجنة، والنجاة من النار، فذلك منه أمنية لا حاصل تحتها، سمَّاها رجاء وحسن ظن، وذلك خطأ وضلال. وقد نظم المعنى القائل: [البسيط]:

تَرْجُو النَّجَاة وَلَمْ تسْلُكْ مَسَلِكَهَا ... إنَّ السَّفِينَةَ لا تَجْري على اليَبَس(١)

قلت: وما بين هذا الأصل ما روينا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله عَزَّوَجَلَّ الأماني**».

وفي ذلك قال الحسن البصري: إن أقواما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ليست لهم حسنة، يقول: إني أحسن الظن بربي، وكذب لو أحسن الظن بربه

(١) يروى هذا البيت لعبد الله بن المبارك. كما في سراج الطالبين (٢/ ٣٤٤) وقبله: ما بال دينك ترضى أن تدنسه وثوبك الدهر مغسول من الدنس.

لأحسن العمل له؛ ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف:١١٠]، ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣].

وعن جعفر الضبعي قال: رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد، قلت: يرحمك الله إن رحمة الله واسعة؛ فغضب وقال: هل رأيت (مني) ما يدل على القنوط؟ إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين؛ قال جعفر فأبكاني قوله.

فإذا كان الرسل والأبدال والأولياء، مع كل هذا الاجتهاد في الطاعة، والحذر عن المعصية فأيش تقول؟ أما كان لهم حسن ظن بالله؟ بلى، فإنهم كانوا أعلم بسعة رحمته وأحسن ظنًّا بجوده منه، ولكن علموا أنَّ ذلك دون الاجتهاد أمنية وغرور. فاعتبر بهذه النُّكْتَةِ، وتأمل حالهم، وانتبه من رقدتك، والله وليُّ التوفيق.

ĶØĐyǩŀ Æə ǯƿƸ ǂŪ ŭŀƕǨ ăǩŀ ǳyɯŪ ĶĦλ Żŀ ǫƸ Ğ ǽ ŋǭŀƸ ǥ ǯǸūλʒ :ƤǩĶŖǩŀ ǯǸƮǮǩŀ

:ŊƸƱøŀ Æə ĶĦǪŖǭƿ

أما التي في الدنيا:

فالأُولى: أن يذكره الله سبحانه ويثني عليه، وأكرم بعبد يكون ربُّ العالمين في ذكره وثنائِهِ.

والثانية: أن يشكره جَلَّجَلَالُهُ ويعظمه، ولو شكرك مخلوق ضعيف مثلك وعظَّمَكَ، لشرُفْتَ به، فكيف بإله الأوَّلين والآخِرِينَ؟.

والثالثة: أن يحبه، ولو أحبك رئيس محله، أو أمير بلدة، لافتخرت بذلك، وانتفعت به في مواطن عزيزة، فكيف بمحبة رب العالمين؟.

الرابعة: أن يكون له وكيلًا يدبر أموره.

الخامسة: أن يكون لرزقه كفيلًا يُوَجِّهُهُ إليه من حال إلى حالٍ، من غير تعب أو زوالٍ.

السادسة: أن يكون له نصرًا يكفيه كل عدو، ويدفع عنه كل قاصد بسوء.

السابعة: أن يكون له أنيسًا، ولا يستوحش بحال، ولا يخاف التغيير والاستبدال.

الثامنة: عزُ النفس، فلا يلحقه ذل خدمة الدنيا وأهلها، بل لا يرضى أن تخدمه ملوك الدنيا وجبابرتها.

التاسعة: رفع الهمة، فيترفع عن التلطخ بمقاذر الدنيا وأهلها ولا يلتفت إلى زخارفها وملاهيها، ترفع الرجال الأولياء عن ملاعب الصبيان والنسوان.

العاشرة: غنى القلب، فيكون أغنى كل غني في الدنيا، لا يزال طيب النفس، فسيح الصدر، لا يفزعه حدث ولا يهمه عُدْمٌ.

الإحدى عشرة: نور القلب، فيهتدي بنور قلبه إلى علوم وأسرار وحكم، لا يهتدي إلى بعضها غيره إلا بجهد جهيد، وعمر مديد.

الثانية عشرة: شرح الصدر، فلا يضيق ذرعا بشيء من محن الدنيا ومصائبها، ومؤن الناس ومكايدهم.

الثالثة عشرة: المهابة والموقع في النفوس، يحترمه الأخيار والأشرار، ويهابه كُلُّ فرعون وجبار.

الرابعة عشرة: المبة في القلوب، يجعل له الرحمن ودًا، فترى القلوب كلها مجبولة على حبه، والنفوس كلها بأجمعها مطبوعة على تعظيمه وإكرامه.

الخامسة عشرة: البركة العامة في كل شيء، من كلام أو نفس أو فعل أو ثوب أو مكان حتى يتبرك بتراب وطئه، وبمكان جلس فيه يومًا، وإنسان رآه وصحبه حينًا.

السادسة عشرة: تسخير الأرض من البر والبحر، حتى إنْ شاء سار في الهواء أو مشى على الماء، أو قطع وجه الأرض بأقل من ساعة.

السابعة عشرة: تسخير الحيوان من السباع والوحوش، والهوام وغيرها فتجيبه الوحوش وتبصبص له الأسود.

الثامنة عشرة: ملك مفاتيح الأرض، فحيثما يضرب يده فله كنز إن أراد، وحيثما يضرب رجله فله عين (ماء) إن احتاج، وأينما نزل فله مائدة تحضره إن قصد.

التاسعة عشرة: القيادة والوجاهة على باب رب العزة، فيبتغي الخلقُ الوسيلة الى الله تعالى بخدمته، وتستنجح الحاجات الى الله بوجاهته وبركته.

العشرون: إجابَةُ الدَّعوة مِنَ الله، ولا يسأل الله شيئًا إلاَّ أعطاهُ، ولا يشفعُ لأحدٍ إلا شُفِّعَ، ولو أقسمَ على الله تعالى لأبرَّهً بما شاء، حتى أنَّ منْهُمْ مَنْ لو أشار إلى جبلٍ لزال، فلا يحتاجُ إلى السُّؤالِ باللِّسانِ، ولو خطر ببالِهِ شيءٌ لَحَضَرَ، ولا يحتاجُ إلى الإشارة باليد، فهذه كراماتُ في الدُّنيا.

وأما التي في العُقْبى:

فالإحدى والعشرُونَ: أن يُهونَ عليه أولًا سكرات الموت، وهي التي وجلت قُلُوبُ الأنبياءِ منها، حتى سألوا الله أنْ يُهونها عليهم حتى أنَّ منهُم مَنْ يكونُ الموتُ عندهُ مثلَ شربة الماء الزُّلالِ للظمآنِ قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٢].

والثانية والعشرون: التثبتُ على المعرفة والإيمان، وَهُوَ الذي منهُ الخوف والفزعُ، وعليه كُلُّ البكاء والجزعِ، قال عز مِنْ قَائلٍ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

والثالثة والعشرون: إرسالُ الرَّوحِ والرَّيحانِ بالبشرى والأمان، قولهُ: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت:٣٠]. فلا يخافُ ممّا تقدَّم عليه في العُقْبى، ولا يحْزَنُ على ما خَلَّفَهُ في الدُّنيا.

والرابعة والعشرون: الخُلُودُ في الجِنَانِ، ومُجاورة الرَّحمن.

والخامسة والعشرون: الحياة في السِّرِّ لِرُوحه، فيعرج على ملائكة السموات بالإكرامِ والإلطافِ والإنعامِ، ولبدنه في العلانية، بتعظيم جنازته، والمزاحمة على الصلاة عليه، والمبادرة إلى تجهيزه، يرجون ذلك أكبر ثواب ويعدونه أعظم غُنْمٍ.

والسادسة والعشرون: الأمانُ مِنْ فتنة سؤال القبر وتلقين الصواب، فيأمن مِنْ ذلك الهولِ.

والسابعة والعشرون: توسيعُ القبر وتنويرُهُ، فيكونُ في روضةٍ مِنْ رياضِ الجنةِ إلى يوم القيامةِ.

الثامنة والعشرون: إيناسُ رُوحه ونسمته وإكرامُها، فتُجعَلُ في أجواف طيرٍ خُضرٍ مع الإخوان الصالحينَ فَرِحينَ مُستبشرينَ بِما آتاهُمُ الله من فضله.

والتاسعة والعشرون: الحشرُ والعزُّ والكرامةُ، مِنْ حُللٍ وتاجٍ وبراقٍ.

والثلاثون: بياضُ الوجه ونُورهُ، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]. وقال: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس:٣٨-٣٩].

والحادية والثلاثون: الأمن من أهوال يوم القِيامة، قال الله تعالى: ﴿أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت:٤٠].

والثانية والثلاثون: الكتابُ باليمين، ومنهم مَنْ كَفى الكتابَ رَأسًا.

والثالثةُ والثلاثونَ: تيسير الحِسَابِ، ومنهم من لا يحاسَبُ أصلًا.

والرابعة والثلاثون: ثِقَلُ الميزانِ، ومنهم من لا يوفقُ للوزن أصلًا.

والخامسة والثلاثون: وُرُودُ الحوضِ على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فيشربُ شربةً لا يظمأ بعدها أبدًا.

والسادسة والثلاثون: جوازُ الصِّراطِ والنجاةُ مِنَ النار، حتى أن منهم مَنْ لا يسمعُ حسيسها، وتُخمدُ له النارُ.

والسابعة والثلاثون: الشفاعة في عرصات القيامة نحوًا من شفاعة الأنبياء والمرسلين.

والثامنة والثلاثون: ملك الأبد في الجنة

والتاسعة والثلاثون: الرضوان الأكبر.

والأربعون: لقاء رب العالمين إله الأولين والآخرين بلا كيف جَلَّجَلَالُهُ.

:ĸĦūǭ Ǩǭĸūǭǩǩł ηǾǞǾ g ƿ ǹǸĦǩł ƤǕłǸƛ ʒĸǾƛ :ŭƛłƐǩł ʒǸƮʒǩł

اعلم أنّ باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوّة المنازعة: ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال من صبر ظفر. والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصدّيقون المقربون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت:٣٠]، فهؤلاء لزموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين. وإياهم ينادي المنادي: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٧-٢٨].

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين: فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله. وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣]، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم، وقيل لمن قصد إرشادهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم:٢٩]. ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم:٣٠]، وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني وهو غاية الحمق كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله**»(١)، وصاحب

---

(١) سبق تخريجه مرارًا وهو حديث الباب.

هذه الحالة إذا وعظ قال: أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت عليَّ فلست أطمع فيها، أو لم يكن مشتاقًا إلى التوبة ولكن قال: إنّ الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي. وهذا المسكين قد صار عقله رقيقًا لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها، ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سَخَّر ما كان حقه أن لا يُستسخر، وسلَّط ما حقه أن لا يُتسلَّط عليه، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلَّطًا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلَّطًا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه فمهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلما لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته! لأن الهوى أبغض إله عبد في الأرض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض.

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالًا بين الجندين: فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [التوبة:١٠٢]، هذا باعتبار القوّة والضعف. ويتطرّق إليه أيضًا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه: فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات أو لا يغلب شيئًا منها، أو يغلب بعضها دون بعض. وتنزيل قوله تعالى: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾، على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى. والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقًا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلًا، إذ

البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات، وهذا قد خلق ذلك له وعطلة فهو الناقص حقًّا المُدبِرُ يقينًا، ولذلك قيل:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام

❁ ❁ ❁

الحديث التاسع والثلاثون

ǴǬǾǬƱ ǰǽY ǺǬŪ ƊƐǮǩŁ

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالِلْ**» رواه أبو داود والترمذي وحسنه(١).

ǁ ƐĻ ŁǩŤYǽƤ(٢):

وأما الإخوان والأصدقاء فعليك فيهم وظيفتان:

إحداهما: أن تطلب أولًا شروط الصحبة والصداقة، فلا تؤاخ إلا من يصلح للأخوة والصداقة، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**».

فإذا طلبت رفيقًا ليكون شريكك في التعلم وصاحبك في أمر دينك ودنياك فراع فيه خمس خصال:

الأولى: العقل: فلا خير في صحبة الأحمق، فإلى الوحشة والقطيعة يرجع آخرها، وأحسن أحواله أن يضرك وهو يريد أن ينفعك، والعدو العاقل خير من الصديق الأحمق.

قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه ... فكم من جاهل أردى حليمًا حين آخاه

يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ما شاه ... وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه

---

(١) قال في كشف الخفا: «وتساهل ابن الجوزي فأورده في الموضوعات ومن ثَمَّ خطَّأه الزركشي»، وقال الحافظ -ابن حجر-: «والقول ما قال الترمذي - يعني أن الحديث حسن- وأطال في شعب الإيمان من ذكر الآثار التي في معناه».

(٢) بداية الهداية (٨٠) وما بعدها.

ولــلــقــلــب عــلــى الــقــلــب   دلـــيـــل حـــيـــن يــلــقــاه

الثانية: حسن الخلق: فلا تصحب من ساء خلقه، وهو الذي لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة؛ وقد جمعه علقمة العطاردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة فقال: «يا بني إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤونة مَانَك»(١).

الثالثة: الصلاح: فلا تصحب فاسقًا مصرًّا على معصية كبيرة لأن من يخاف الله لا يصر على معصية كبيرة ومن لا يخاف الله لا تؤمن غوائله، بل يتغير بتغير الأحوال والأعراض؛ قال الله تعالى لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]. فاحذر صحبة الفاسق، فإن مشاهدة الفسق والمعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهية المعصية ويهون عليك أمرها؛ ولذلك هان على القلوب معصية الغيبة، لإلفهم لها، ولو رووا خاتمًا من ذهب أو ملبوسًا من حرير على فقيه لشتد إنكارهم عليه والغيبة أشد من ذلك.

الرابعة: أن لا يكون حريصًا على الدنيا: فصحبة الحريص على الدنيا سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري، فمجالسة الحريص تزيد من حرصك، ومجالسة الزاهد تزيد في زهدك.

الخامسة: الصدق: فلا تصحب كذابًا فإنك منه على غرور، فإنه مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب.

ولعلك تعدم اجتماع هذه الخصال في سكان المدارس والمساجد، فعليك بأحد أمرين: إما العزلة والانفراد ففيها سلامتك، وإما أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم، بأن تعلم أن الأخوة ثلاثة: أخ لآخرتك، فلا تراع فيه إلا الدين. وأخ لدنياك،

(١) **مَانه مَوْنًا**: احتمل مؤونته وقام بكفايته، تقول: مان الرجل أهله كفاهم.

فلا تراع فيه إلا الخلق الحسن. وأخ لتأنس به، فلا تراع فيه إلا السلامة من شره وفتنته وخبثه.

والناس ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يُستغنى عنه. والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت. والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط ولكن العبد قد يبتلى به، وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع، فتجب مداراته إلى الخلاص منه، وفي مشاهدته فائدة عظيمة إن وفقت لها، وهو أن تشاهد من خبائث أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجتنبه؛ فالسعيد من وعظ بغيره، والمؤمن مرآة المؤمن، وقيل لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: من أدبك؟

فقال: ما أدبني أحد ولكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته. ولقد صدق على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فلو اجتنب الناس ما يكرهون من غيرهم لكملت آدابهم واستغنوا عن المؤدبين.

الوظيفة الثانية: مراعاة حقوق الصحبة: فمهما انعقدت الشركة، وانتظمت بينك وبين شريكك الصحبة، فعليك حقوق يوجبها عقد الصحبة وفي القيام بها آداب وقد جاء في الحديث: «**ما تحاب رجلان في الله إلا كان أحبهما إلى الله عَزَّوَجَلَّ أكثرَّهما حبًّا لصاحبه**»(١).

وآداب الصحبة: الإيثار بالمال، فإن لم يكن هذا فبذل الفضل من المال عند الحاجة، والإعانة بالنفس في الحاجات على سبيل المبادرة من غير إحواج إلى التماس، وكتمان السر، وستر العيوب، والسكوت عن تبليغ ما يسوؤه من مذمة الناس إياه، وإبلاغ ما يسره من ثناء الناس عليه، وحسن الإصغاء عند الحديث، وترك المماراة فيه وأن يدعوه بأحب أسمائه إليه، وأن يثني عليه بما يعرف من محاسنه، وأن يشكره على صنيعه في وجهه وأن يذبّ عنه في غيبته إذا تعرض لعرضه كما يذب عن نفسه، وأن ينصحه باللطف والتعريض

---

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، ورواه ابن حبان في صحيحه والطبراني في الأوسط.

إذا احتاج إليه، وأنْ يعفو عن زلته وهفوته فلا يعتب عليه، وأن يدعو له في خلوته في حياته وبعد مماته، وأن يحسن الوفاء مع أهله وأقاربه بعد موته، وأن يؤثر التخفيف عنه فلا يكلفه شيئًا من حاجاته ويروح قلبه من مهماته، وأن يظهر الفرح بجميع ما يرتاح له من مساره، والحزن على ما يناله من مكاره، وأن يضمر في قلبه مثل ما يظهر فيكون صادقًا في ودّه سرًا وعلانية، وأن يبدأه بالسلام عند إقباله، وأن يوسع له في المجلس، وأن يخرج له من مكانه، وأن يشيعه عند قيامه، وأن يصمت عند كلامه حتى يفرغ من كلامه ويترك المداخلة في كلامه؛ وعلى الجملة فيعامله بما يحب أن يُعامَل به، فمن لا يحب لأخيه مثل ما يحب لنفسه فأُخوَّتُه نفاق، وهي عليه وبال في الدنيا والآخرة. فهذا أدبك في حق العوام المجهولين وفي حق الأصدقاء المؤاخين.

❁ ❁ ❁

الحديث الأربعون

ĠDzŪ Żł ÁHDZ Kǭ ƐȠǵ ǰǭ ƐΣ KHǮǩł

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**» رواه البخاري والنسائي وأبو داود وغيرهم.

ƐţǩłȚyǽP[١]:

اعلم أن الدين شطران: أحدهما ترك المناهي، والآخر فعل الطاعات. وترك المناهي هو الأشد، فإن الطاعات يقدر عليها كل أحد، وترك الشهوات لا يقدر عليه إلا الصديقون، فلذلك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»، واعلم أنك إنما تعصي الله بجوارحك، وهي نعمة من الله عليك وأمانة لديك، فاستعانتك بنعمة الله على معصيته غاية الكفران. وخيانتك في أمانة استودعكها الله غاية الطغيان فأعضاؤك رعاياك فانظر كيف ترعاها، فكلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته «[٢] واعلم أن جميع أعضائك ستشهد عليك في عرصات القيامة بلسان طلق ذلق، أي فصيح، تفضحك به على رؤوس الخلائق؛ قال الله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [النور:٢٤]، وقال تعالى: ﴿**ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ**﴾ [يس:٦٥].

فاحفظ يا مسكين جميع بدنك من المعاصي، وخصوصًا أعضاءك السبعة، فإن جهنم لها سبعة أبواب لكل منهم جزء مقسوم. ولا يتعين لتلك الأبواب إلا من عصى

---

(١) بداية الهداية (٥٩) وما بعدها.

(٢) رواه البخاري في مواضع من صحيحه وابو داود والترمذي.

الله تعالى بهذه الأعضاء السبعة وهي: العين، والأذن، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل.

١- أما العين: فإنها خلقت لتهتدي بها في الظلمات، ونستعين بها في الحاجات، وتنظر بها إلى عجائب ملكوت الأرض والسموات، وتعتبر بما فيها من الآيات؛ فاحفظها عن أربع: أن تنظر بها إلى غير محرم، أو إلى صورة مليحة بشهوة نفس، أو تنظر بها إلى مسلم بعين الاحتقار، أو تطلع بها على عيب مسلم.

٢- وأما الأذن: فاحفظها عن أن تصغي بها إلى البدعة، أو الغيبة، أو الفحش، أو الخوض في الباطل، أو ذكر مساوئ الناس؛ فإنما خلقت لك لتسمع بها كلام الله تعالى، وسنة رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحكمة أوليائه، وتتوصل باستفادة العلم بها إلى الملك المقيم والنعيم الدائم في جوار رب العالمين.

فإذا أصغيت بها إلى شيء من المكاره، صار ما كان لك عليك، وانقلب ما كان سبب فوزك سبب هلاكك، وهذا غاية الخسران. ولا تظن أن الإثم يختص به القائل دون المستمع، ففي الخبر أن المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين.

٣- وأما البطن: فأحفظه من تناول الحرام والشبهة، واحرص على طلب الحلال، فإذا وجدته فاحرص على أن تقتصر على ما دون الشبع، فإن الشبع يقسي القلب ويفسد الذهن ويبطل الحفظ ويثقل الأعضاء عن العبادة والعلم، ويقوي الشهوات وينصر جنود الشيطان. والشبع من الحلال مبدأ كل شر فكيف من الحرام، وطلب الحلال فريضة على كل مسلم. والعبادة والعلم مع أكل الحرام كالبناء على السِّرجين[١]، فإذا قنعت في السنة بقميص خشن، وفي اليوم والليلة برغيفين من الخُشكار[٢]، وتركت التلذذ بأطيب الأدم،

(١) **السرجين:** الزبل.
(٢) الخبز الأسمر غير النقي (فارسي معرَّب).

لم يعوزك من الحلال ما يكفيك. والحلال كثير، وليس عليك أن تتيقن بواطن الأمور، بل عليك أن تحترز مما تعلم أنه حرام، أو تظن أنه حرام ظنًا حصل من علامة ناجزة - أي ظاهرة - مقرونة بالمال؛ أما المعلوم الظاهر، وأما المظنون بعلامة مال من لا كسب له إلا من النياحة أو بيع الخمر أو الربا أو المزامير وغير ذلك من آلات اللهو المحرمة؛ فإن من علمت أن أكثر ماله حرام قطعًا فما تأخذه من يده، وإن أمكن أن يكون حلالًا نادرًا فهو حرام، لأنه الغالب على الظن.

٤- **وأما الفرج:** فاحفظه عن كل ما حرم الله تعالى، وكن كما قال الله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** ﴾ [المؤمنون:٥-٦]، ولا تصل إلى حفظ الفرج إلا بحفظ العين عن النظر، وحفظ القلب عن التفكر، وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشبع، فإن هذه محركات للشهوة ومغارسها.

٥- **وأما اليدان:** فاحفظهما عن أن تضرب بهما مسلمًا أو تتناول بهما مالًا حرامًا، أو تؤذي بهما أحدًا من الخلق، أو تخون بهما في أمانة أو وديعة، أو تكتب بهما ما لا يجوز النطق به، فإن القلم أحد اللسانين، فاحفظ القلب عما يجب حفظ اللسان عنه.

٦- **وأما الرجلان:** فاحفظهما عن أن تمشي بهما إلى باب سلطان ظالم، فإن المشي إلى السلاطين الظلمة من غير ضرورة وإرهاق معصية كبيرة، فإنه تواضع لهم وإكرام لهم على ظلمهم، وقد أمر الله تعالى بالإعراض عنهم في قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ** ﴾ [هود:١١٣]، وإن كان ذلك لسبب طلب مالهم فهو سعي إلى حرام.

٧- **وأما اللسان:** فإنما خلق لتكثر به ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه، وترشد به خلق الله تعالى إلى طريقه، وتظهر به ما في ضميرك من حاجات دينك ودنياك، فإذا استعملته

في غير ما خلق له فقد كفرت نعمة الله تعالى فيه. وهو أغلب أعضائك عليك وعلى سائر الخلق، «**وهل يكبّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»(١)؛ فاستظهر عليه بغاية قوتك حتى لا يكبك في قعر جهنم، ففي الخبر: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها أصحابه فيهوى بها في قعر جهنم سبعين خريفًا**»(٢). وروي أنه قتل شهيد في المعركة على عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال قائل: هنيئًا له بالجنة فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويبخل بما لا يغنيه**»(٣).

فاحفظ لسانك من ثمانية:

الأول: الكذب: فاحفظ من لسانك في الجد والهزل، ولا تعود لسانك الكذب هزلًا فيدعوك إلى الكذب في الجد؛ والكذب من أمهات الكبائر. ثم إنك إذا عُرِفْتَ بذلك سَقَطَتْ عدالتُك والثقة بقولك، وتزدريك الأعين وتحتقرك. وإذا أردت أن تعرف قبح الكذب من نفسك فانظر إلى كذب غيرك، وإلى نفرة نفسك عنه، واستحقارك لصاحبه، واستقباحك لما جاء به؛ وكذلك فافعل في جميع عيوب نفسك، فإنك لا تدري قبح عيوبك من نفسك بل من غيرك، فما استقبحته من غيرك يستقبحه غيرك منك لا محالة، فلا ترض لنفسك ذلك.

الثاني: الخلف في الوعد: فإياك أن تعد بشيء ولا تفي به، بل ينبغي أن يكون إحسانك إلى الناس فعلًا بلا قول، فإن اضطررت إلى الوعد فإياك أن تخلف إلا لعجز أو ضرورة، فإن ذلك من أمارات النفاق وخبائث الأخلاق، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**»(٤).

---

(١) رواه الترمذي والبزار وإسناده حسن.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

(٣) رواه الترمذي وأخرجه الطبري في التفسير وإسناده صحيح، والمنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواته ثقات.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

الثالث: الغيبة: فاحفظ لسانك عنها. والغيبة أشـد من ثلاثين زنية في الإسلام، كذلك ورد في الخبر (١)، ومعنى الغيبة أن تذكر إنسانًا بما يكرهه لو سمعه، فأنت مغتاب ظالم وإن كنت صادقًا. وإياك وغيبة القراء المرائين، وهو أن تُفَهِّم المقصود من غير تصريح فنقول: أصلحه الله فقد ساءني وغمني ما جرى عليه، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا وإياه. فإن هذا جمع بين خبثين: أحدهما الغيبة؛ إذ بها حصل التفهم، والآخر تزكية النفس والثناء عليها بالتحرج والصلاح. ولكن إذا كان مقصودك من قولك أصلحه الله تعالى الدعاء، فادع له في السر إن اغتممت بسببه، فعلامته أنك لا تريد فضيحته وإظهار عيبه، وفي إظهارك الغم بعيبه إظهار تعييبه. ويكفيك زاجرًا عن الغيبة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢]، فقد شبهك الله بآكل لحم الميتة، فما أجدرك أن تحترز منها.

ويمنعك عن غيبة المسلمين أمر لو تفكرت فيه، وهو أن تنظر في نفسك هل فيك عيب ظاهر أو باطن، وهل أنت مفارق معصية سرًّا أو جهرًا، فإذا عرفت ذلك من نفسك فاعلم أنَّ عجزه من التنزه عما نسبته إليه كعجزك، وعذره كعذرك، وكما تكره أن تفتضح وتذكر عيوبك فهو أيضًا يكرهه، فإن سترته ستر الله عليك عيوبك، وإن فضحته سلط الله عليك ألسنة حدادًا يمزقون عرضك في الدنيا، ثم يفضحك الله في الآخرة على رؤوس الخلائق يوم القيامة.

وإن نظرت إلى ظاهرك وباطنك فلم تطلع فيهما على عيب ونقص في دين ولا دنيا، فأعلم أن جهلك بعيوب نفسك أقبح أنواع الحماقة، ولا عيب أعظم من الحمق، ولو أراد الله بك خيرًا لبصرك بعيوب نفسك؛ فرؤيتك نفسك بعين الرضا غاية غباوتك

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وابن حبان في الضعفاء وابن مردوية في التفسير وأخرجه أيضًا هنادى السري في الزهد.

وجهلك. ثم إن كنت صادقًا في ظنك فاشكر الله تعالى عليه ولا تفسده بثلب الناس والتمضمض بأعراضهم فإن ذلك أعظم العيوب.

الرابع: المراء والجدال ومناقشة الناس في الكلام: فذلك فيه إيذاء للمخاطب وتجهيل له وطعن فيه، وفيه ثناء على النفس وتزكية لها بمزيد الفطنة والعلم. ثم هو مشوش للعيش، فإنك لا تماري سفيهًا إلا ويؤذيك، ولا تماري حليمًا إلا ويقلبك ويحقد عليك، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا زعيم بيت في رمض الجنة لمن ترك وإن كان محقًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»(١).

ولا ينبغي أن يخدعك الشيطان ويقول لك أظهر الحق ولا تداهن فيه، فإن الشيطان أبدًا يستجرُّ المتقي إلى الشر في معرض الخير، فلا تكن ضحكة للشيطان فيسخر منك؛ فإظهارك الحق حسن مع من يقبله منك، وذلك بطريق النصيحة في الخفية لا بطريق المماراة؛ وللنصيحة صفة وهيئة ويحتاج فيها إلى تلطف، وإلا صارت فضيحة، وكان فسادها أكثر من صلاحها.

الخامس: تزكية النفس: قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]. وقيل لبعض الحكماء: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. فإياك أن تتعود ذلك، واعلم أنَّ ذلك ينقص من قدرك عند الناس ويوجب مقتك عند الله تعالى. فإذا أردت أن تعرف أن ثناءك على نفسك لا يزيد في قدرتك عند غيرك، فانظر إلى أقرانك إذا أثنوا على أنفسهم بالفضل والجاه والمال كيف يستنكره قلبك عليهم ويستثقله طبعك، وكيف تذمهم عليه إذا فارقتهم. فاعلم أنهم أيضًا في حال تزكيتك لنفسك يذمونك في قلوبهم ناجزًا، وسيظهرونه بألسنتهم إذا فارقتهم.

---

(١) رواه أبو داود وإسناده صحيح وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٠٦) وقال: إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما.

السادس: اللعن: فإياك أن تلعن شيئًا مما خلق الله تعالى من حيوان أو طعام أو إنسان بعينه، ولا تقطع بشهادتك على أحد من أهل القبلة بشرك أو كفر أو نفاق، فإن المطلع على السرائر هو الله تعالى، فلا تدخل بين العباد وبين الله تعالى، واعلم أنك يوم القيامة لا يقال لك لم لم تلعن فلانًا، ولم سكت عنه؛ بل لو لم تلعن إبليس طول عمرك ولم تشغل لسانك بذكره، لم تسأل عنه، ولم تطالب به يوم القيامة، وإذا لعنت أحدًا من خلق الله تعالى طولبت به. ولا تذمن شيئًا مما خلق الله تعالى، فقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يذم الطعام الرديء قط، بل كان إذا اشتهى شيئًا أكله وإلا تركه.

السابع: الدعاء على الخلق: فاحفظ لسانك عن الدعاء على أحد من خلق الله تعالى، وإن ظلمك فكِلْ أمره إلى الله تعالى.

وطول بعض الناس لسانه على الحجاج فقال بعض السلف: «إن الله لينتقم للحجاج ممن تعرض له بلسانه كما ينقم للحجاج ممن تعرض له بلسانه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه».

الثامن: المزاح والسخرية والاستهزاء بالناس: فاحفظ لسانك منه في الجد والهزل، فإنه بريق ماء الوجه، ويسقط المهابة، ويستجر الوحشة، ويؤذي القلوب. وهو مبدأ اللجاج والغضب والتصارم، ويغرس الحقد في القلوب؛ فلا تمازح أحدًا، فإن مازحك فلا تجبه؛ فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وكن من الذين إذا مروا باللغو مروا كرامًا.

فهذه مجامع آفات اللسان، ولا يعينك عليه إلا العزلة أو ملازمة الصمت إلا بقدر الضرورة، فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يضع حجرًا في فيه ليمنعه ذلك من الكلام بغير ضرورة، ويشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد كلها. فاحترز منه بجهدك، فإنه أقوى أسباب هلاكك في الدنيا والآخرة.

:Pǽy⁄Ʈǩł łzǵ ţƐ‖ ƘHƛ ǬqƱ ŋƷǿŏŰ ȠyƘə

حركاتك وسكناتك بأعضائك نعمة من نعم الله تعالى عليك فلا تحرك شيئًا منها في معصية الله تعالى أصلًا، واستعملها في طاعة الله تعالى واعلم أنك إن قصرت فعليك يرجع وباله، وإن شمرت فإليك تعود ثمرته، والله غني عنك وعن عملك، وإنما كل نفس بما كسبت رهينة. وإياك أن تقول: إن الله كريم رحيم يغفر الذنوب للعصاة؛ فإن هذه أريد بها باطل، وصاحبها ملقب بالحماقة بتقليب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: **«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»**(١).

واعلم أن قولك هذا يضاهي قول من يريد أن يصير فقيهًا في علوم الدين من غير أن يدرس علمًا واشتغل بالبطالة وقال: إن الله كريم رحيم قادر على أن يفيض على قلبي من العلوم ما أفاضه على قلوب أنبيائه وأوليائه من غير جهد وتكرار وتعلم.

وهو كقول من يريد مالًا فترك الحراثة والتجارة والكسب وتعطل وقال: إن الله كريم وله خزائن السموات والأرض، وهو قادر على أن يطلعني على كنز من كنوزه أستغني به عن الكسب فقد فعل ذلك لبعض عباده. فأنت إذا سمعت كلام هذين الرجلين استحمقتهما وسخرت منهما، وإن كان ما وصفاه من كرم الله تعالى وقدرته صدقًا وحقًا. فكذلك يضحك عليك أرباب البصائر في الدين إذا طلبت المغفرة بغير سعي لها، والله تعالى يقول: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ** ﴾ [النجم:٣٩]، ويقول: ﴿ **إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الطور:١٦]، ويقول: ﴿ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ** ﴾ [الانفطار:١٣-١٤].

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح.

فإذا لم تترك السعي في طلب العلم والمال اعتماداً على كرمه، فكذلك لا تترك التزود للآخرة ولا تفتر، فإن رب الدنيا والآخرة واحد، وهو فيهما كريم رحيم، وليس يزيد له كرم بطاعتك، وإنما كرمه في أن ييسر لك طريق الوصول إلى الملك المقيم والنعيم الدائم المخلد بالصبر على ترك الشهوات أيامًا قلائل، وهذا نهاية الكرم؛ فلا تحدث نفسك بتهويسات البطالين، واقتد بأولي العزم والنُّهي من الأنبياء والصالحين، ولا تطمع في أن تحصد ما لم تزرع، وليت من صام وصلى وجاهد واتقى غفر له.

فهذه جمل مما ينبغي أن تحفظ عنه جوارحك الظاهرة وأعمال هذه الجوارح؛ فعليك بتطهير القلب فهو تقوي الباطن، والقلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد؛ فاشتغل بإصلاحه لتصلح جوارحك؛ وصلاحه يكون بملازمة المراقبة.

❊ ❊ ❊

الحديث الحادي والأربعون

G ƛƙƖŪ ǰǭ æ ǸǞūƛ ƵǸŪ

عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: قام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من الليل فصلى فأطال السجود حتى ظننت أنه قُبض، فلما رأيت ذلك قمت حتى فَرَكْتُ إبهامه فتحرَّك فرجعت فسمعته يقول: «**أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»، أخرجه مسلم مختصرًا.

:Ƥæ ƴ Ʈ ǩł ţ Ɛ ‖

لما أمر الله تعالى نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بطلب القرب فقيل له: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق:١٩]، قال في سجوده: «**أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا احصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»، فقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أعوذ بعفوك من عقابك**» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله، فاستعاذ بفعله من فعله، ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال: «**أعوذ برضاك من سخطك**» وهما صفتان، ثم رأي ذلك نقصانًا في التوحيد فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال: «**وأعوذ بك منك**»، وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة، ولكنه رأى نفسه فارًا منه إليه ومستعيذًا ومثنيًا، ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانًا واقترب فقال: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»، فقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لا أحصي**» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها، وقوله: «**أنت كما أثنيت على نفسك**»، بيان أنه المثني والمثنى عليه وان الكل منه بدا وإليه يعود وأن كل شيء هالك إلا وجهه؛ فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو

أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله، فيستعيذ بفعل من فعل: فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذ انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق، ولقد كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدًا بالإضافة إلى الثانية، فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصًا في سلوكه وتقصيرًا في مقامه، وإليه الإشارة بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة**»، فكان ذلك لترقية إلى سبعين مقامًا بعضها فوق البعض: أولها وان كان مجاوزًا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانًا بالإضافة إلى آخرها، فكان استغفاره لذلك.

❁❁❁

الحديث الثاني والأربعون والثالث والأربعون

ȠNÊǿǿdžǩł Ǽə ǓŃǿ ǂ Ǔǩł

عن عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيُحسنُ وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤتى كبيرة، وذلك الدهر كله**» رواه مسلم؛ ذلك في الفرض.

وأما في النافلة فعن عتبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيُحسِنُ الوضوء ثم يقوم فيركع ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه، فقد أوجب**»، فقلت: بخ بخ ما أجود هذه، رواه مسلم وأبو داود واللفظ له، والنسائي؛ و في رواية للحاكم: «ثم يقوم في صلاته فيعلم ما يقول إلا انفتل وهو كيوم ولدته أمه»، وقال: صحيح الإسناد.

ǁ Ƹ ţ ǩłȚƴǽƤ[1]:

يحتوي شرح هذا الحديث على المحاور الآتية:

ǩłǮȚŃȝ ȧàǷğ: ǿğǮǾȠ ǩłǓ ǂ ŃǓ Ƿƒ ǇŃŃȝ ǩłǢǬ ł əǼ ǿȝ ǥ ǩȝǮ ǩłǆdÊȠ ƒƩǮǩǛè:

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤]، وظاهر الأمر الوجوب، والغفلة تضاد الذكر، فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيمًا للصلاة لذكره؟ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، نهي وظاهره التحريم وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]، تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا.

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ١٨٩).

وعن ابن مسعود قال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعدًا»[١]، وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رُبَّ قائمٍ حظه من صلاته التعب والنصب**»[٢]، وما أراد به إلا الغافل.

والتحقيق فيه «أن المصلي مناج ربه عَزَّوَجَلَّ»[٣]، كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ألبتة، وبيانه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلًا فهي في نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الذي هو آلة للشيطان عدو الله، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة،وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة، وفيه من المجاهدة ما يحصل بهاالإيلام كان القلب حاضرًا مع أفعاله أو لم يكن؟ أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود.

فأما الذكر: فإنه مجاورة ومناجاة مع الله عَزَّوَجَلَّ، فأما أنّ يكون المقصود منه كونه خطابًا ومحاورة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحانًا للسان بالعمل كما تمتحن المعدة والفرج بالإمساك في الصوم، وكما يمتحن البدن بمشاق الحج، ويمتحن بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المعشوق، ولا شك أن هذا القسم باطل فإن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث أنه عمل، بل المقصود الحروف من حيث أنه نطق، ولا يكون نطقًا إلا إذا أعرب عما في الضمير ولا يكون معربًا إلا بحضور القلب، فأي سؤال في قولـه: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، إذا كان القلب غافلًا؟ وإذا لم يقصد كونه تضرعًا ودعاءًا فأي مشقة في تحريك اللسان به مع الغفلة لاسيما بعد الاعتياد؟.

---

(١) رواه أحمد في الزهد موقوفًا على ابن مسعود وإسناده صحيح موقوفًا ولا يصح في المرفوع «العراقي».
(٢) أخرجه النسائي وأحمد وإسناده حسن.
(٣) متفق عليه.

هذا حكم الأذكار بل أقول لو حلف الإنسان وقال: لأشكرن فلانًا وأثني عليه وأسأله حاجة؛ ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في النوم لم يبر في يمينه، ولو جرت على لسانه في ظلمة وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير بارًا في يمينه إذ لا يكون كلامه خطابًا ونطقًا معه ما لم يكن هو حاضرًا في قلبه، فلو كانت تجري هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه في بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب إليه عند نطقه لم يصر بارًا في يمينه. ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء، والمخاطب هو الله عَزَّوَجَلَّ وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده؛ بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوخ عقد الإيمان به؟ هذا حكم القراءة والذكر. وبالجملة فهذه الخاصية لا سبيل إلى إنكارها في النطق وتمييزها عن الفعل.

وأما الركوع والسجود: فالمقصود بهما التعظيم قطعًا ولو جاز أن يكون معظمًا لله عَزَّوَجَلَّ بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظمًا لصنم موضوع بين يديه وهو غافل عنه، أو يكون معظمًا للحائط الذي بين يديه وهو غافل عنه، وإذا خرج عن كونه تعظيمًا لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به، ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويُقدَّم على الحج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص، وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود المناجاة فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره، بل الضحايا والقرابين التي هي مجاهدة للنفس بتنقيص المال قال الله تعالى: ﴿ **لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾ [الحج:٣٧]، أي الصفة التي

استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هي المطلوبة، فكيف الأمر في الصلاة ولا أرب في أفعالها؟ فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب.

:ŬŇ ‡ Ukł kŇΣp ğŇ ₤ ЌĦλŁŇΣp ηĦШ ‖

فإن قلت: إن حكمت ببطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطًا في صحتها خالفت إجماع الفقهاء فإنهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير؟ فاعلم أنه قد تقدم في كتاب العلم: أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا في طريق الآخرة، بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح؛ وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزير السلطان؛ فأما أنه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه على أنه لا يمكن أن يُدَّعى الإجماع. فقد نقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكي عن سفيان الثوري أنه قال: من لم يخشع فسدت صلاته. وروي عن الحسن أنه قال: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع. وعن معاذ بن جبل: من عرف من على يمينه وشماله متعمدًا وهو في الصلاة فلا صلاة له. وروي أيضًا مسندًا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له إلا عشرها تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها**»(١)، وهذا لو نقل عن غيره لجعل مذهبًا فكيف لا يتمسك به؟ وقال عبد الواحد بن زيد: أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها، فجعله إجماعًا، وما نقل من هذا الجنس عن الفقهاء المتورّعين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى. والحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار والآثار ظاهرة في هذا الشرط إلا أن مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الخلق. فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأقلين، وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مردّ له إلا أن يشترط منه ما يطلق عليه

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد بإسناد صحيح وابن حبان في صحيحه.

الاسم ولو في اللحظة الواحدة، وأولى اللحظات به لحظة التكبير فاقتصرنا على التكليف بذلك. ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية. فإنه على الجملة أقدم على العمل ظاهرًا وأحضر القلب لحظة. وكيف لا، والذي صلى مع الحدث ناسيًا صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجر ما يحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره، ومع هذا الرجاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا، والذي يحضر الخدمة ويتهاون بالحضرة ويتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالًا من الذي يعرض عن الخدمة؟ وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر مخطرًا في نفسه فإليك الخيرة بعده في الاحتياط والتساهل. ومع هذا فلا مطمع في مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحة مع الغفلة، فإن ذلك من ضرورة الفتوى - كما سبق التنبيه عليه - ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها. ولكن قد ذكرنا في باب الفرق بين العلم الباطن والظاهر في كتاب قواعد العقائد أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع. فلنقتصر على هذا القدر من البحث فإن فيه مقنعًا للمريد الطالب لطريق الآخرة. وأما المجادل المشغب فلسنا نقصد مخاطبته الآن وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير. فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة. وكم من حي لا حراك به قريب من ميت؟ فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حي لا حراك به نسأل الله حسن العون.

:ÑÊdžǩł Æə ł ɋÆǩł ɲƘØ ƒ Ƿ ŬÑ ǂ Uǩł Åɋ Ü ɳǄØū Ʒǩł ƙƜƽ àł ƷƘØƛ :ÆǄƘƦǩł ƷÑƮƷǩł

اعلم أن هذه المعاني تكثر العبارات عنها، ولكن يجمعها ست جمل وهي: حضور القلب والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء. فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاج في اكتسابها.

فالأول: حضور القلب: ونعني به أن يفرّغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونًا بهما، ولا يكون الفكر جائلا في غيرهما، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء، فقد حصل حضور القلب.

الثاني: التفهم: لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضرًا مع اللفظ ولا يكون حاضرًا مع معنى اللفظ فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات. وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله؟ ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تفهم أمورًا؛ تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة.

الثالث: التعظيم: هو أمر وراء حضور القلب والفهم إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظمًا له فالتعظيم زائد عليهما.

الرابع: الهيبة: زائدة على التعظيم، بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائبًا، والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الخسيسة لا تسمى مهابة، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة، والهيبة خوف مصدرها الإجلال.

الخامس: الرجاء: لا شك أنه زائد فكم من معظم ملكًا من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو مثوبته. والعبد ينبغي أن يكون راجيًا بصلاته ثواب الله عَزَّوَجَلَّ كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عَزَّوَجَلَّ.

السادس: الحياء: هو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب.

:ŬǸ ǂ Ukł ƙƘƜƽƣ ğǸǆž ƒ ǺƣŪ ƞǄǾūƷǩł ƙƘƜƽ ǟł ƷƘǾƛ :ƤǩƘƦǩł ƷǸƮƷǩł

١- أسباب حضور القلب: سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك. ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه. والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلًا بل جائلًا فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضر فلا تظنن أن له سببًا سوى ضعف الإيمان، فاجتهد الآن في تقوية الإيمان – وطريقه يستقصى في غير هذا الموضع.

٢- أسباب التفهم: فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر. وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها. وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر، فمن أحب شيئًا أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بضرورة، لذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر.

٣- أسباب التعظيم: فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين

إحداهما: معرفة جلال الله عَزَّوَجَلَّ وعظمته وهو من أصول الإيمان فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه

الثانية: معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبدًا مسخرا مربوبًا حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة، ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه.

٤- أسباب الهيبة والخوف: فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض. وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة.

٥- أسباب الرجاء: فسببه معرفة لطف الله عَزَّوَجَلَّ وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة.

٦- أسباب الحياء: فباستشعاره التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عَزَّوَجَلَّ ويقوي ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وخبث داخلها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عَزَّوَجَلَّ،والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت، وهذه المعارف إذا حصلت يقينًا انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء.

فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه ففي معرفة السبب معرفة العلاج. ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان. واليقين أعني به هذه المعارف التي ذكرناها ومعنى كونها يقينًا انتفاء الشك واستيلاؤها على القلب، وبقدر اليقين يخشع

القلب، ولذلك قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحدّثنا ونحدّثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه». وقد روي أنّ الله سبحانه أوحى إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «يا موسى إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك وكن عند ذكري خاشعًا مطمئنًا وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك وإذا قمت بين يديَّ فقم قيام العبد الذليل وناجني بقلب وجل ولسان صادق»، وروي أنّ الله تعالى أوحى إليه: «قل لعصاة أمتك لا يذكروني فإني آليت على نفسي أنّ من ذكرني ذكرته فإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة»، هذا في عاص غير غافل في ذكره، فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان؟.

وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يتمم صلاته ولم يحضر قلبه في لحظة منها. وإلى من يتمم ولم يغب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يحس بما يجري بين يديه. ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الأسطوانة في المسجد اجتمع الناس عليها وبعضهم كان يحضر الجماعة مدّة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره. وجماعة كانت تصفرّ وجوههم وترتعد فرائصهم. وكل ذلك غير مستبعد، فإن أضعافه مشاهد في همم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم، حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدّثه بمهمته ثم يخرج ولو سئل عمن حواليه أو عن ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام:١٣٢]، فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موضع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات. ولذلك قال بعض الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة، ولقد صدق فإنه يحشر كلٌّ على ما مات عليه ويموت على ما عاش عليه؛ ويراعي في ذلك حال قلبه لا

حال شخصه فمن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

:ŊÊdžǩŀ ğƙƷŪų ǰǭ ŀ ųÆǩŀ ǴØə ƐNJƮǣ Ʒų ÆǖⅢǣ ƙǭ ǨØdžǞơ ƷƙØƛ :ǔƛŀƐǩŀ ƷǸƮƷǩŀ

فنقول: حقك إن كنت من المريدين للآخرة أن لا تغفل أوّلًا عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها. أما الشروط السوابق فهي الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائمًا والنية. فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة؛ فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر فاعرض قلبك على هذا النداء، فإن وجدته مملوءا بالفرح والاستبشار مشحونًا بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء. ولذلك قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرحنا بها يا بلال**»(١)، أي أرحنا بها وبالنداء إليها إذ كان قرة عينه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلاة.

وأما الطهارة: فإذا أتيت بها في مكانك وهو ظرفك الأبعد ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب، ثم في بشرتك وهي قشرك الأدنى فلا تغفل عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيرًا بالتوبة والندم على ما فرطت وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر بها باطنك فإنه موضع نظر معبودك.

وأما ستر العورة: فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فإنّ ظاهر بدنك مرتع لنظر الخلق فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرائرك التي لا يطلع عليها إلا ربك عَزَّوَجَلَّ؟ فأحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحان ساتر وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنهما فتذلَّ بها نفسك ويستكين تحت الخجلة

(١) رواه أبو داود وصححه كما صححه في مشكاة المصابيح رقم (١٢٠٩).

قلبك وتقوم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ قيام العبد المجرم المسيء الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكسًا رأسه من الحياء والخوف.

وأما الاستقبال: فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عَزَّوَجَلَّ ليس مطلوبًا منك هيهات فلا مطلوب سواه. وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عَزَّوَجَلَّ فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك. فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله عَزَّوَجَلَّ إلا بالتفرغ عما سواه، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثم يقوم في صلاته فيعلم ما يقول في صلاته إلا انفتل وهو كيوم ولدته أمه**»(١).

وأما الاعتدال قائمًا: فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقًا مطأطئًا متنكسًا، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهًا على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن الترؤس والتكبر، وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ في هول المطلع عند العرض للسؤال. واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، بل قدّر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع. وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها: إنك تدّعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين

---

(١) حديث الباب رواه الحاكم.

من استجرائك عليه مع توقيرك عبدًا من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى؟.

وأما النية: فاعزم على إجابة الله عَزَّوَجَلَّ في امتثال أمره بالصلاة وإتمامها، والكف عن نواقضها ومفسداتها، وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاءًا لثوابه وخوفًا من عقابه وطلبًا للقربة منه متقلدًا للمنة منه بإذنه إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك وعظِّم في نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي؟ وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفرّ وجهك من الخوف.

وأما التكبير: فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد إنك لكاذب وإن كان الكلام صدقًا كما شهد على المنافقين في قولهم: إنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله. فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله عَزَّوَجَلَّ فأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته، فيوشك أن يكون قولك «الله أكبر» كلامًا باللسان المجرّد وقد تخلف القلب عن مساعدته؛ وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه.

وأما دعاء الاستفتاح: فأول كلماته قولك: «وجهت وجهي للذي فطر السموات»، والأرض وليس المراد بالوجه الظاهر فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة والله سبحانه يتقدس عن أن تحدّه الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه. وإنما وجه القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السماوات والأرض فانظر إليه أمتوجه هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق ومتبع للشهوات أو مقبل على فاطر السموات؟ وإياك أن تكون أوّل مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق. ولن ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرفه إليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقًا

وإذا قلت: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، فإن لم تكن كذلك كنت كاذبًا فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال وتندم على ما سبق من الأحوال. وإذا قلت: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فأخطر ببالك الشرك الخفي فإن قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس وكن حذرًا مشفقًا من هذا الشرك، واستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه. وإذا قلت: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وأنه إن صدر ممن رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائمًا للحال.

وإذا قلت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عَزَّوَجَلَّ حسدًا لك على مناجاتك مع الله عَزَّوَجَلَّ وسجودك له مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها، وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله عَزَّوَجَلَّ لا بمجرد قولك، فإن من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله فقال: أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه، فإن ذلك لا ينفعه، بل لا يعيذه إلا تبديل المكان؛ فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول؛ فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عَزَّوَجَلَّ عن شر الشيطان وحصنه والمتحصن به لا معبود له سوى الله سبحانه فأما من اتخذ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عَزَّوَجَلَّ.

واعلم أن من مكايده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ. فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها.

فأما القراءة؛ فالناس فيها ثلاثة: رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل، ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره وهي درجات أصحاب اليمين، ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولًا ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه. ففرِّق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب، والمقرّبون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب.

وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت:

بسم الله الرحمن الرحيم قاله به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه، وافهم أنّ الأمور كلها بالله سبحانه. وأن المراد بالاسم ههنا هو المسمى. وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله. ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عَزَّوَجَلَّ، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى. فإذا قلت: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجاؤك. ثم استثر من قلبك التعظيم والخوف بقولك: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أما العظمة فلأنه لا ملك إلا لهو عظمة أما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه. ثم جددّ الإخلاص بقولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وجدّد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته وأن له المنة إذ وفقك لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلًا لمناجاته ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين. ثم إذا فرغت من التعوذ ومن قولك ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقًا فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك. وزده شرحًا وتفصيلًا وتأكيدًا واستشهادًا بالذين أفاض عليهم نعمة

الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ثم التمس الإجابة وقل: «آمين».

فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل**»(١)، يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيقول الله عَزَّوَجَلَّ حمدني عبدي وأثنى عليَّ. وهو معنى قوله: «سمع الله لمن حمده...» الحديث الخ، فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله؟ وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرؤه من السور- كما سبق في شرح حديث اقرأ وارتق ورتل - فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر مننه وإحسانه. ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد؛ والخوف حق الوعيد؛ والعزم حق الأمر والنهي؛ والاتعاظ حق الموعظة، والشكر حق ذكر المنة، والاعتبار حق إخبار الأنبياء. وروي أن زرارة بن أبي أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر:٨]، خرّ ميتًا وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١]، اضطرب حتى تضطرب أوصاله. وقال عبد الله بن واقد: رأيت ابن عمر يصلي مغلوبًا عليه؛ وحق له أن يحترق قلبه بوعد سيده ووعيده فإنه عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب. ودرجات ذلك لا تنحصر.

والصلاة مفتاح القلوب: فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضًا. ثم يراعى الهيبة في القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أيسر للتأمل. ويفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم

(١) أخرجه مسلم.

والتمجيد. كان النخعي إذا مرَّ بمثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ** ﴾ [المؤمنون:٩١]، يخفض صوته كالمستحيي عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به.

وأما دوام القيام فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عَزَّوَجَلَّ على نعت واحد من الحضور. قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ مقبل على المصلي ما لم يلتفت**»(١)، وكما تجب حراسة السر عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الإلتفات إلى غير الصلاة.فإذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقبح التهاون بالمناجي عند غفلة المناجي ليعود إليه. وألزم لخشوع القلب فإن الخلاص عن الالتفات باطنًا وظاهرًا ثمرة الخشوع ومهما خشع الباطن خشع الظاهر. سعد بن المسيب وقد رأى رجلًا مصليًا يعبث بلحيته: «أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»(٢).

وكان الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في صلاته كأنه وتد. وابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كأنه عود. وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد، وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا، فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك؟ وكل من يطمئن بين يدي غير الله عَزَّوَجَلَّ خاشعًا وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثًا فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عَزَّوَجَلَّ وعن اطلاعه على سره وضميره. وقال عكرمة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ** ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩]، قال: قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه.

وأما الركوع والسجود: فينبغي أن تجدد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيرًا بعفو الله عَزَّوَجَلَّ من عقابه بتجديد نية ومتبعًا سنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثم تستأنف له ذلًّا وتواضعًا بركوعك وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر

(١) أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وقال: إسناده صحيح.
(٢) رواه ابن أبي شيبة، وروي مرفوعًا ولكنه موضوع.

ذلك وعز مولاك واتضاعك وعلو ربك. وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار. ثم ترتفع من ركوعك راجيًا أنه راحم لك ومؤكدًا للرجاء في نفسك بقولك: «سمع الله لمن حمده» أي أجاب لمن شكره. ثم تردف ذلك الشكر المتقاضي للمزيد فتقول: «ربنا لك الحمد»، وتكثر الحمد بقولك: «ملء السموات وملء الأرض»، ثم تهوى إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب. وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلًا فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب للخشوع وأدل على الذل. وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله فإنك من التراب خلقت وإليه تعود، فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل: «سبحان ربي الأعلى» وأكده بالتكرار فإنّ الكرّة الواحدة ضعيفة الأثر فإذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك في رحمة الله، فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبرًا وسائلًا حاجتك وقائلًا: «رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم»، أو ما أردت من الدعاء ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانيًا كذلك.

وأما التشهد: فإذا جلست له فاجلس متأدبًا وصرح بأن جميع ما تدلي به من الصلوات والطيبات أي من الأخلاق الطاهرة لله. وكذلك الملك لله وهو معنى «التحيات» وأحضر في قلبك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشخصه الكريم وقل: «سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»، وليصدّق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه. ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين. ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلامًا وافيًا بعدد عباده الصالحين ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولمحمد نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة مجددًا عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي الشهادة ومستأنفًا للتحصن بها ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء

المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة. وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين. واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وانوِ ختم الصلاة به. واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة. وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنك ربما لا تعيش لمثلها. وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للذي أوصاه: «**صل صلاة مودع**»، ثم أشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير في الصلاة وخف أن لا تقبل صلاتك وأن تكون ممقوتًا بذنب ظاهر أو باطن فترد صلاتك في وجهك وترجو مع ذلك أن يقلبها بكرمه وفضله.

:ǰ Øū ‖ ʞUǩł ȠÊDž ʒʬƱ℘ ϴʞæʞ Ğ ƒ :ŭλłƐǩł ʒǸƮƷǩł

اعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عَزَّوَجَلَّ، ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعًا في الصلاة وفي غير الصلاة بل في خلوته وفي بيت المال عند الحاجة، فإن موجب الخشوع معرفته اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد. فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة، ولذلك روي عن بعضهم أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله سبحانه وخشوعًا له، وكان الربيع بن خيثم من شدّة غضه لبصره وإطراقه يظن بعض الناس أنه أعمى، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فإذا رأته جاريته قالت لابن مسعود: صديقك الأعمى قد جاء فكان يضحك ابن مسعود من قولها، وكان إذا دقَّ الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقًا غاضًا بصره وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤]، أما والله لو رآك محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لفرح بك، وفي لفظ آخر: لأحبك وفي لفظ آخر لضحك.

ومشى ذات يوم مع ابن مسعود في الحدادين فلما نظر إلى الأكوار تنفخ وإلى النار تلتهب صعق وسقط مغشيًا عليه وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق

فحمله على ظهره إلى منزله، فلم يزل مغشيًا عليه إلى مثل الساعة التي صعق فيها ففاتته خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول: هذا والله هو الخوف. وكان الربيع يقول: ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها إلا ما أقول وما يقال لي.

وكان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين، وكان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدّث النساء بما يردن في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله، وقيل له ذات يوم هل تحدّثك نفسك في الصلاة بشيء؟ قال: نعم بوقوفي بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ومنصرفي إحدى الدارين قيل فهل تجد شيئًا مما نجد من أمور الدنيا فقال: لأن تختلف الأسنَّة فيَّ أحب إليَّ من أن أجد في صلاتي ما تجدون وكان يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا.

وقد كان مسلم بن يسار منهم، وقد نقلنا أنه لم يشعر بسقوط اسطوانة في المسجد وهو في الصلاة. وتآكل طرف من أطراف بعضهم واحتيج فيه إلى القطع فلم يمكن منه فقيل: إنه في الصلاة لا يحس بما يجري عليه فقطع وهو في الصلاة. وقال بعضهم: الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيهاخرجت من الدنيا وقيل لآخر: هل تحدّث نفسك بشيء من الدنيا في الصلاة؟ فقال: لا في الصلاة ولا في غيرها. وسئل بعضهم هل تذكر في الصلاة شيئا؟ فقال: وهل شيء أحب إلي من الصلاة فأذكره فيها؟ وكان أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ. وكان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس، وروي أن عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفها فقيل له: خففت يا أبا اليقظان فقال: هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئًا قالوا: لا قال إني بادرت سهو الشيطان، إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها. ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها**»(١)،

---

(١) سبق تخريجه.

وكان يقول: «**إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها**»[١]، ويقال: إن طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانوا أخف الناس صلاة، وقالوا: نبادر بها وسوسة الشيطان.

وروي أن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل وكيف ذلك؟ قال لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عَزَّوَجَلَّ فيها وسئل أبو العالية عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٥]، قال هو الذي يسهو في صلاته فلا يدري على كم ينصرف أعلى شفع أم على وتر؟ وقال الحسن: هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج. وقال بعضهم: هو الذي إن صلاها في أول الوقت لم يفرح وإن أخرها عن الوقت لم يحزن فلا يرى تعجيلها خيرًا ولا تأخيرًا إثمًا.

واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كما دلت الأخبار عليه وإن كان الفقيه يقول: إن الصلاة في الصحة لا تتجزأ، ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه،وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث إذ ورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل[٢]، وفي الخبر: «**قال عيسى** عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: **يقول الله تعالى بالفرائض نجا مني عبدي وبالنوافل تقرّب إليَّ عبدي**»، وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قال الله تعالى: وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت**»[٣]، وروي أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، صلىَّ صلاة فترك من قراءتها آية، فلما انفتل قال ماذا قرأت؟ فسكت القوم؛ فسأل أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: «قرأت سورة كذا وتركت آية كذا فما ندري أنسخت أم رفعت فقال: أنت لها يا أبي ثم أقبل على الآخرين فقال: ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويتمون صفوفهم ونبيهم بين أيديهم لا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أصحاب السنن والحاكم وصححه.

(٣) متفق عليه.

يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم؟ ألا إن بني إسرائيل كذا فعلوا فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى نبيهم أن قل لقومك تحضروني أبدانكم وتعطوني ألسنتكم وتغيبون عني بقلوبكم باطل ما تذهبون إليه»[١]، وهذا يدل على أن استماع ما يقرأ الإمام وفهمه يدل على قراءة السور بنفسه. وقال بعضهم إن الرجل يسجد السجدة عنده أنه تقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولو قسمت ذنوبه في سجدته على أهل مدينته لهلكوا. قيل: وكيف يكون ذلك؟ قال: يكون ساجدًا عند الله وقلبه مصغ إلى هوى.

وختامًا: دلت هذه الحكايات والأخبار مع ما سبق على أن الأصل في الصلاة الخشوع وحضور القلب وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في المعاد والله أعلم. نسأل الله حسن التوفيق.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه محمد بن نصر مرسلًا و الديلمي والنسائي مختصرًا بإسناد صحيح.

الخاتمة

يستفيد القارئ لهذه الأحاديث وشرحها من كلام حجة الإسلام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عددًا من الفوائد الهامة:

أولًا: أن كلام سيدنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد جمع معان عظيمة وإرشادات جليلة ونصائح هامة كيف لا وهو الذي أعطي جوامع الكلم، ولا أدل على ذلك من الاطلاع على مثل هذه الشرح وغيره من كتب العلم، وربما يكون هذا العلم معجزة من معجزات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حيث لا يزال العلماء يشرحون كلامه كل بما أعطي من فهم.

ثانيًا: إعطاء المزيد من الاهتمام لعلم التزكية من خلال الرجوع إلى الكتاب والسنة وكلام جهابذة العلماء في فهم ما ورد من نصوص في هذا المجال.

ثالثًا: إصلاح كثير من الأخطاء والمفاهيم المتعلقة بعلم التصفية والتزكية كالصدق والصبر والحب والخوف والرجاء حيث كان هناك قصورًا واضحًا في فهم تلك المعاني، فعلى سبيل المثال الغالبية من الناس لا يعرفون من الصدق إلا صدق اللسان بينما أورد له الغزالي ستة معانٍ كما هي مذكورة في شرح حديث: «**إن الصدق يهدي إلى البر**».

رابعًا: تلك الأحاديث المشروحة جمعت في الجملة ما يحتاجه المسلم في تعامله مع الله تعالى وتعامله مع النفس ومع الناس بل ومع الشيطان فلم يترك شيئًا يكون سببًا في النجاة إلا وبينه؛ وذلك أقصى ما يحتاجه الانسان من علم التذكية. والله أعلم.

❁❁❁

الفهرس

الفهرس

المقدمة.. ٥

ترجمة مختصرة بحجة الإسلام الغزالي........................ ١٠

تمهيد في التعريف بالحديث الضعيف وحكم الأخذ به.................. ٢٥

الحديث الأول: أهمية الإخلاص وإحضار النية...................... ٢٩

المحور الأول: أهمية الإخلاص تكمن في أمرين...................... ٢٩

المحور الثاني: بيان حقيقة الإخلاص.............................. ٣١

المحور الثالث: بيان الأعمال والطاعات التي تحتاج إلى إخلاص........ ٣٧

المحور الرابع: بيان درجات الشوائب والآفات...................... ٣٨

المحور الخامس: حكم العمل بالمشوب واستحقاق الثواب عليه.......... ٤١

الحديث الثاني: الندم توبة... ٤٧

أولًا: شروط التوبة النصوح.. ٤٧

ثانيًا: الندم أهم شروط التوبة...................................... ٤٨

ثالثًا: كيف يخرج العبد من الذنوب على اختلاف أنواعها............... ٤٩

الحديث الثالث: لله أفرح بتوبة العبد............................ ٥١

المحور الأول: مفهوم التوبة وحقيقتها............................ ٥١

المحور الثاني: بيان وجوب التوبة وفضلها........................ ٥٣

المحور الثالث: بيان أن وجوب التوبة عام لا يعفى عنه أحد.............. ٥٨

المحور الرابع: استشكال حول التوبة من الهواجس وجوابه........ ٦٠
المحور الخامس: أقسام العباد في دوام التوبة........................ ٦٨
المحور السادس: بيان أن التوبة مقبولة إذا كملت شروطها.......... ٧٣
المحور السابع: أقسام الذنوب التي تجب التوبة منها.................. ٧٨
الحديث الرابع: فضل التوكل على الله تعالى.......................... ٨٠
أولًا: وجوب التوكل.. ٨٠
ثانيًا: مفهوم التوكل... ٨١
ثالثًا: هل يجب طلب الرزق وعلاقة ذلك بالأسباب.................. ٨٣
رابعًا: علاقة زيادة الرزق بطلبه وعدم طلبه............................ ٨٤
خامسًا: إشكال وجواب فيما ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ في الرزق........... ٨٤
سادسًا: شبهات حول بعض الآيات في موضوع الرزق.................. ٨٥
سابعًا: كيف ينجو العبد من هم الرزق.................................. ٨٦
الحديث الخامس: الصبر خير وأوسع عطاء........................... ٨٩
الوقفة الأولى: بيان حقيقة الصبر.. ٨٩
الوقفة الثانية: حاجة المؤمن إلى الصبر.................................. ٩٠
الوقفة الثالثة: بيان فوائد الصبر وفضائله في الدنيا والآخرة.......... ٩١
الوقفة الرابعة: أقسام الصبر باعتبار اليسر والعسر وحكمه........... ٩٢
الوقفة الخامسة: بيان وجوب الصبر على ما يحبه العبد ويهواه...... ٩٣
الوقفة السادسة: وجوب الصبر على ما لا يوافق الهوى والطبع...... ٩٤
الحديث السادس: طلب الرزق الحلال فريضة وفوائده وفضائله........ ١٠١
أولًا: أهمية طلب الحلال في الشرع الحنيف............................ ١٠١
ثانيًا: درجات الورع.. ١٠١

ثالثًا: أثر الحرام والشبهة في إظلام القلب........................ ١٠٣
رابعًا: ما حكم الأكل من أطعمة الناس في الولائم وغيرها.................. ١٠٤
خامسًا: إرشادات هامة في التعامل مع من تشك في أموالهم.................. ١٠٥
الحديث السابع: فضل ذكر الله تعالى.............................. ١٠٧
أولًا: فضل الذكر من الكتاب والسنة والآثار........................ ١٠٧
ثانيًا: بيان كون الذكر أفضل العبادات.............................. ١١٠
ثالثًا: بين فضل الذكر وفضل الشهادة في سبيل الله.................. ١١٣
رابعًا: للذكر أربع مراتب... ١١٥
الحديث الثامن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهميتهما.............. ١١٧
أولًا: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...................... ١١٧
ثانيًا: متى يسقط النهي عن المنكر.................................. ١١٨
ثالثًا: خلقان ضروريان لمن يتصدى للأمر والنهي...................... ١١٩
الحديث التاسع: فضل حسن الخلق وعلو رتبته........................ ١٢١
أولًا: بيان فضيلة حسن الخلق من الأحاديث النبوية وآثار العلماء......... ١٢١
ثانيًا: بيان حقيقة حسن الخلق....................................... ١٢٦
ثالثًا: ما هي القوى التي تحتاج إلى تهذيب............................ ١٢٧
رابعًا: مراتب النفس في مجاهدة الهوى............................... ١٢٨
الفرق بين إشارة العقل وإشارة الهوى................................ ١٢٨
خامسًا: بيان ما يجب تحصيله من الأخلاق إجمالًا...................... ١٣١
الحديث العاشر: لا تغضب.. ١٣٧
بيان خطورة الغضب وكسر حدته...................................... ١٣٧
أقسام الغضب... ١٣٨
علاج الغضب.. ١٤٠

الحديث الحادي عشر: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق........................ ١٤٢
المحور الأول: مفهوم الخَلق والخُلُقْ........................ ١٤٢
المحور الثاني: بيان أمهات الأخلاق التي جاء الشرع بتكميلها........................ ١٤٥
المحور الثالث: بيان قبول أخلاق الناس للتغيير........................ ١٤٧
الحديث الثاني عشر: وساوس الشيطان وكيفية علاجها........................ ١٥٣
أولًا: لا يخلو القلب من هاتين اللمتين........................ ١٥٣
ثانيًا: ضرورة الوقوف على خطرات الإنسان........................ ١٥٥
ثالثًا: التنبيه إلى عدم الاشتغال بالبحث عن ذات الشيطان........................ ١٥٧
رابعًا: ذكر الله هو العلاج الناجع لوساوس الشيطان........................ ١٥٨
أخيرًا: تنبيه حول نوع الذكر الذي يطرد الشيطان........................ ١٥٩
الحديث الثالث عشر: بيان مداخل الشيطان على الإنسان........................ ١٦١
أولًا: مجاهدة الشيطان فرض........................ ١٦١
ثانيًا: مداخل الشيطان على الإنسان تفصيلًا وهي ثنتي عشرة........................ ١٦٣
ثالثًا: الداعي إلى المعاصي شيطان واحد أم أكثر........................ ١٧١
الحديث الرابع عشر: التجاوز عن حديث النفس........................ ١٧٢
أولًا: بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب........................ ١٧٢
ثانيًا: الوسواس أصناف........................ ١٧٧
ثالثًا: بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية........................ ١٨٠
الحديث الخامس عشر: ما ملأ آدمي وعاءًا شرًّا من بطنه........................ ١٨٢
المحور الأول: ذكر أقوال العلماء في امتداح الجوع وذم الشبع........................ ١٨٢
المحور الثاني: فوائد الجوع عشرة........................ ١٨٤

الحديث السادس عشر: إلا الصيام فإنه لي.. ١٩٤

الوقفة الأولى: لما اختص الصوم بهذه الخصوصية «لي»... ١٩٤

الوقفة الثانية: الصوم ثلاث درجات.. ١٩٥

الحديث السابع عشر: الثبات على الإيمان «يا مقلب القلوب»................................ ١٩٧

المحور الأول: سرعة تقلب القلب... ١٩٧

المحور الثاني: القلوب في الثبات على الخير والشر ثلاثة.. ١٩٨

الحديث الثامن عشر: حفظ اللسان.. ٢٠٣

المحور الأول: بيان كون اللسان نعمة عظيمة من نعم الله تعالى.................................. ٢٠٣

المحور الثاني: بيان آفات اللسان.. ٢٠٨

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك.. ٢٠٩

الآفة الثانية: فضول الكلام.. ٢١٢

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل... ٢١٥

الآفة الرابعة: المراء والجدال... ٢١٦

الآفة الخامسة: الخصومة.. ٢٢٠

الحديث التاسع عشر: الكبر يمنع من دخول الجنة.. ٢٢٣

المحور الأول: ذم الكبر في الكتاب والسنة وأقوال السلف... ٢٢٣

المحور الثاني: بيان حقيقة الكبر وأقسامه وآفاته.. ٢٢٧

المحور الثالث: بيان أقسام المتكبَّر عليهم... ٢٣٠

المحور الرابع: بيان الطريق إلى علاج الكبر واكتساب التواضع................................. ٢٣٤

الحديث العشرون: ما تواضع أحد لله إلا رفعه.. ٢٥٢

الوقفة الأولى: التواضع في كتاب الله والسنة والآثار.. ٢٥٢

الوقفة الثانية: بيان أخلاق المتواضعين وما يظهر فيه أثر التواضع.............................. ٢٥٧

الوقفة الثالثة: امتحان النفس في حصول التواضع بخمسة أشياء........... ٢٦٤
الوقفة الرابعة: بيان أن التواضع فضيلة بين رذيلتين........... ٢٦٧
الحديث الحادي والعشرون: ذم العجب........... ٢٦٩
الوقفة الأول: بيان آفة العجب........... ٢٦٩
الوقفة الثاني: بيان علاج العجب........... ٢٧١
الوقفة الثالث: بيان أقسام العجب........... ٢٧٧
الحديث الثاني والعشرون والثالث والعشرون: البكاء من خشية الله تعالى........ ٢٨٤
المحور الأول: بيان ما جاء من الترغيب في الخوف والخشية........... ٢٨٤
المحور الثاني: بيان حقيقة الخوف وبيان أسبابه........... ٢٨٨
المحور الثالث: بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف........... ٢٩١
المحور الرابع: كيفية تحصيل الخوف........... ٢٩٣
الحديث الرابع والعشرون: بين الخوف والرجاء........... ٢٩٥
المحور الأول: بيان أيهما أفضل وأيهما يغلب الخوف أم الرجاء........... ٢٩٥
المحور الثاني: الحديث يشير إلى تغليب الخوف على الرجاء........... ٢٩٨
المحور الثالث: تغليب الرجاء عند الموت هو الأفضل........... ٢٩٩
الحديث الخامس والعشرون: الزهد في الدنيا........... ٣٠١
المحور الأول: الزهد في الكتاب والسنة........... ٣٠١
المحور الثاني: بيان حقيقة الزهد وأحوال الزاهدين........... ٣٠٢
المحور الثالث: بيان درجات الزهد........... ٣٠٤
المحور الرابع: تقسيم الزهد باعتبار الباعث إليه........... ٣٠٥
الحديث السادس والعشرون: من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين........... ٣٠٦
المحور الأول: فضل العلم في القرآن والسنة والآثار........... ٣٠٦

المحور الثاني: فضل العلم بحسب الشواهد العقلية.................... ٣١٢
المحور الثالث: بيان العلم الذي هو فرض وأقوال العلماء فيه.................... ٣١٣
المحور الرابع: بيان العلم الذي هو فرض كفاية.................... ٣١٦
المحور الخامس: بيان ما غُيِّر من ألفاظ العلوم.................... ٣١٩
الحديث السابع والعشرون: إن الصدق يهدي إلى البر.................... ٣٢٥
المحور الأول: فضل الصدقات في القرآن والآثار.................... ٣٢٥
المحور الثاني: بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه.................... ٣٢٧
الصدق الأول: صدق اللسان.................... ٣٢٧
الصدق الثاني: صدق النية والإرادة.................... ٣٣٠
الصدق الثالث: صدق العزم.................... ٣٣٠
الصدق الرابع: صدق الوفاء بالعزم.................... ٣٣١
الصدق الخامس: الصدق في الأعمال.................... ٣٣٣
الصدق السادس: الصدق في مقامات الدين.................... ٣٣٥
الحديث الثامن والعشرون والتاسع والعشرون: اللهم اهدي للثبات في الأمر..... ٣٣٦
الحديث الثلاثون والحادي والثلاثون: لأن يهدي الله بك رجلًا، من دل على خير.... ٣٤٠
المحور الأول: ذكر الآيات والأحاديث الدالة على فضل تعليم الناس.................... ٣٤٠
المحور الثاني: ثبات أهمية تعليم العلم للناس.................... ٣٤٤
الحديث الثاني والثلاثون والثالث والثلاثون: يقال لصاحب القرآن: اتلوا
القرآن وابكوا.................... ٣٤٧
أولًا: آداب التلاوة الظاهرة (ثمانية).................... ٣٤٧
ثانيًا: آداب التلاوة الباطنة (عشرة).................... ٣٥٢

الحديث الرابع والثلاثون: الدعاء هو العبادة........................ ٣٦٥

المحور الأول: فضل الدعاء في القرآن والسنة........................ ٣٦٥

المحور الثاني: آداب الدعاء وهي عشرة........................ ٣٦٦

الحديث الخامس والثلاثون والسادس والثلاثون: يا ابن آدم إنك ما دعوتني...... ٣٧٦

المحور الأول: بيان فضيلة الرجاء من القرآن والسنة والآثار........................ ٣٧٦

المحور الثاني: بيان حقيقة الرجاء وكيفية تحقيقه........................ ٣٨١

المحور الثالث: من هو العبد الذي يحتاج إلى رجاء........................ ٣٨٥

الحديث السابع والثلاثون: جعلك الله بخير (فضل الشكر)........................ ٣٨٨

المحور الأول: فضل الشكر في القرآن والسنة........................ ٣٨٨

المحور الثاني: بيان حقيقة الشكر وأصوله........................ ٣٩٠

المحور الثالث: الشكر قائم على الاعتراف بالنعمة........................ ٣٩٦

الحديث الثامن والثلاثون: الكيس من دان نفسه........................ ٤٠٢

المحور الأول: الموت وما بعده والعمل له........................ ٤٠٢

المحور الثاني: أيُّ الحالين أولى بالتقديم الخوف أم الرجاء........................ ٤٠٦

المحور الثالث: أربعون كرامة للعبد الطائع في الدنيا والآخرة........................ ٤٠٨

المحور الرابع: بيان بواعث الهوى وكيفية التعامل معها........................ ٤١٢

الحديث التاسع والثلاثون: المرء على دين خليله........................ ٤١٥

الوظيفة الأولى: شروط الصحبة والصداقة........................ ٤١٥

الوظيفة الثانية: مراعاة حقوق الصحبة........................ ٤١٧

الحديث الأربعون: المهاجر من هجر ما نهى الله عنه........................ ٤١٩

الحديث الحادي والأربعون: أعوذ بعفوك من عقوبتك........................ ٤٢٨

الحديث الثاني والأربعون والثالث والأربعون: الخشوع في الصلاة..........٤٣٠
المحور الأول: أهمية الخشوع وحضور القلب في أركان الصلاة إجمالًا..........٤٣٠
المحور الثاني: بيان الأسباب المعينة على الخشوع..........٤٣٤
المحور الثالث: بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر فيه القلب..........٤٣٦
المحور الرابع: حكايات وأخبار الخاشعين في الصلاة..........٤٣٩
الخاتمة..........٤٥١
الفهرس..........٤٥٣